فكر حر وإبداع جديد
aljadeedmagazine.com

الجديد

AL JADEED

ثقافية عربية جامعة تصدر من لندن
أبريل/ نيسان 2017، العدد 27

حكاية
السلطان العاري

احتضار العولمة

ترامب والترامبية وصعود اليمين الشعبوي



ISSN 2057-6005



وليد المصري

هذا العدد

تنفرد «الجديد» في هذا العدد بنشر ملف فكري يتناول فيه عدد من الكتاب العرب الترامبية ويقرأونها بوصفها ظاهرة يمينية شعبوية دهمت العالم وفاجأته كما تفاجئ الزلازل والطوفانات وأحدثت رجة طالت كل جزء من المعمورة وهزّت معها الوعي والوجدان الإنسانيين. ولئن أدّى ظهور ترامب وانتخابه رئيسا للولايات المتحدة الأميركية إلى ولادة شعور كبير بالخطر على التعدد والتنوع العرقي والديني والثقافي في أميركا والعالم الغربي قاطبة، فقد ولّد ظهوره حسا فجائعياً لدى شرائح كبيرة في العالم ممّن يؤمنون بالوجه الإيجابي للعولمة وينظرون إلى التنوع الثقافي الذي يعاديه ترامب بوصفه خشبة الخلاص للبشر، وقاموا بتحركات جماهيرية عالمية واسعة رافضة للأفكار العنصرية التي يجاهر بها ترامب ويعمل لأجلها.

على أن هذا الملف إنما يقرأ الظاهرة الترامبية من منظورات عربية. وهو ما يشير إلى احتمال أن تختلف هذه القراءة جزئياً عن القراءات العالمية الأخرى لها، خصوصاً لدى من أنهكته فكريا سنوات أوباما العجاف وانعكاساتها الكارثية على العالم العربي. ولكن هل إن الترامبية والمتعارضة مع النزعة الأوبامية النكوصية ما هي إلا طبعة جمهورية جديدة وذروة من ذروات التوحش الانعزالي اليميني المسلح بدوغمائية مراوغة، ويستند إلى شعبوية رائجة لا يمكن التنبؤ إلى أين يمكن أن تأخذ أميركا والعالم في ظل انهيار مريع لكل ما أنتجه العالم المتحضر من قيم إنسانية.

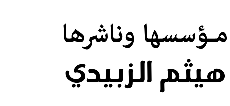
في العدد أيضا قصائد وقصص ومقالات فكرية ومراجعات للكتب ورسائل ثقافية ورسوم وتخطيطات لعدد كبير من الفنانين التشكيليين العرب.

بهذا العدد تواصل «الجديد» دعوتها الكاتبات والكتاب العرب إلى المشاركة على صفحاتها في نقد الفكر العربي والمساهمة في توليد أسئلة ثقافة عربية جديدة والتواصل مع التطورات الفكرية في العالم، مؤكدة على مواصلتها الاحتفاء بالنصوص الشعرية والسردية العربية الجديدة والمبتكرة، وإتاحة المجال واسعاً أمام الأفكار الجديدة والتطلعات النقدية في الفكر العربي المعاصر، مؤكدة باستمرار على ترحيبها الاستثنائي بالكاتبات والكتاب الشباب لممارسة أدوارهم في نقد الظواهر السلبية الثقافية والمجتمعية■

المحرر

سلافة حجازي

■ لوحة الغلاف للفنان محمد الوهيبي



الجديد
aljadeedmagazine.com

مؤسسها وناشرها
هيثم الزبيدي

رئيس التحرير
نوري الجراح

مستشارو التحرير
أزراج عمر، أحمد برقاوي
عبد الرحمن بسيسو، خلدون الشمعة،
خطار أبو دياب، أبو بكر العيادي
ابراهيم الجبين، رشيد الخيون
تحسين الخطيب، مفيد نجم

التصميم والإخراج والتنفيذ
ناصر بخيت

رسامو العدد:
وليد المصري، سلافة حجازي، محمد الوهيبي
لقمان محمد، حسين جمعان، محمد لبش
علي حسين، علاء الأيوبي، فؤاد حمدي
نجيب بلخوجة، علي بن سالم، رضا بالطيب
عبدالرزاق الساحلي، محمد عمر خليل
صفوان داحول، بهرام حاجو، جوني سمعان
عمر خيري، وليد المصري، فؤاد حمدي
صلاح المر، سلافة حجازي، موفق قات

التدقيق اللغوي:
عمارة محمد الرحيلي

الموقع على الإنترنت:
www.aljadeedmagazine.com

الكتابات التي ترسل إلى «الجديد» تكتب خصيصاً لها
لا تدخل المجلة في مراسلات حول ما تعتذر عن نشره.

تصدر عن
Al Arab Publishing Centre

المكتب الرئيسي (لندن)
Kensington Centre
Hammersmith Road 66
London W14 8UD, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للاعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

لمراسلة التحرير
editor@aljadeedmagazine.com

الاشتراك السنوي
للافراد: 60 دولارا. للمؤسسات: 120 أو ما يعادلها
تضاف إليها أجور البريد.

ISSN 2057- 6005



المحتويات

العدد 27 - أبريل/ نيسان 2017

مكر حر وإبداع جديد
ثقافية عربية جامعة

لقمان محمد

غلاف العدد الماضي مارس/ آذار 2017

النخب إلى الصراع والجموع إلى المصارع

عن الذات الواعية وتموجات التاريخ وانهيار قيم الحضارة

كيف يبدو حال الشرق وتبدو مصائره في الزمن العالمي الراهن وقد أوهم الغرب في دوائره التسلطية نفسه أنه بات مكتفيا بذاته كما السايكلوب الإغريقي، فلا يقربنّ شاطئه وكهفه مغامر إلا ليكون طعاماً له. ولكنه نوع جديد من السايكلوب (الذي كان يوماً بعين واحدة)، يبحر حيثما شاءت له رغباته وحاجاته أن يبحر ويتصرف في الشرق كما في الغرب كقوة جبارة لا رادّ لها.

في الزمن العالمي الراهن، وهو زمن العولمة في طور من الزعزعة، يطرح العقل على نفسه السؤال الأكثر جوهرية: هل نحن في عصر الجماهير المتطلعة إلى الحرية وقد امتلكت وعي الحرية، أم في عصر الجموع المخدرة بالصيغ الرومانسية عن الحرية في سوق عالمية ماكرة هي سوق السايكلوب ذي العيون الكثيرة وقد استهلكت من الأفكار والصيغ والماركات خلاصات قرون من كدح العقل الإنساني والتجارب المجتمعية والمغامرات الفكرية؟

فهل نحن في عصر الجموع المتملكة لإرادتها الواعية في خوض الصراع على المستقبل أم في عصر النخب حاكمة ومعارضة وهي تسوق الجموع إلى مصائرها المأساوية، بينما الجموع تظن نفسها صاحبة الإرادة والسبيل وصانعة الشرف في المأساة؟

وعلى طرفي المصارع، بين خندقي الدين والدنيا، تتناظر أفكار الأرض مع أفكار السماء، وتتواجه خيالات المستبد مع حجج المطالب بالحرية، وترفرف بيارق الجماعات وقد تساقط تحتها صرعى شهداء الحرية وجنود الاستبداد معاً، وقد اختلطت الأسباب بالأسباب.

أهي معمعة عمياء، إذن، في صراع دام بين قوى أعماها الجشع وأخرى أعمتها الأيديولوجيات، وقودها وضحاياها جموع حملوا بيارق مصارعهم وقد أوهمهم المتصارعون أنها بيارقهم وهم أصحابها؟

هل يريد كلامي تبسيط التعقيد الذي يتحكم بمجريات الصراع المأساوي في المشرق العربي كأن يقول إن الأيديولوجيات الخلاصية والشمولية هي في شراكة واعية ومنظورة ومحددة المعالم والنسب والمواقيت بين الحاكم المستبد والثائر المتطلع إلى انتزاع السلطة باسم الجموع المؤمنة بطريقته؟

هل أساوي بين الحاكم والثائر في لحظة عربية وشرقية يحيط بها عالم مضطرب الأحوال ومختل الموازين استهلك كل ما طرحه العقل البشري المتحضر من صيغ لتوديع الوحشية وتسييد قيم الحضارة على حاضر الإنسان ومستقبله، فإذا به عالم يزداد حاضره وحشية ومستقبله غموضاً.

المثقف في التاريخ، شاعرا وروائيا ونحاتا ومصورا ومفكراً لأجل الحرية لا يساوي هذا المثقف الفاعل في التاريخ بين رموز الطغيان ورموز الحرية، ولا بين الضحية والقاتل، ولكنه يقف في خندق الحرية، ومن تلك الجهة لا يتورع هذا المثقف عن تشريح الذات ونقدها اتقاء للتيه والغرور والأخطاء القاتلة بحق الناس الذين يتكلم باسمهم.



ولكن كيف يقوم الدليل في الحكم على الشيء، وما دليلي على ما يؤرق العرب اليوم سوى ما آلت إليه أحوال الجموع، ثائرة وخانعة، وما حلّ بها في ديارها من دمار وموت ورعب وما طالها من تهجير وتشريد وما ألحق بها من مآس مهولة لا يحتملها جبابرة الأساطير، وقد تسبب لها بهذا كله عنف المستبد وحماته الإقليميون والعالميون، ومكر المتصارعين الكبار في العالم (السايكولوبات الجدد) بما أحدثوه من انقلابات في و(على) انتفاضات بريئة سرعان ما اختلت موازينها من حيث قامت لعدل الميزان وإقامة العدل ورد الحرية واستعادة الكرامات.

ولكن هل يكفي في مآسي العرب، السوريين والعراقيين واللبنانيين والفلسطينيين واليمنيين والليبيين، تجريم المستبد مرة وحماته الغزاة أخرى، هل نعفي أنفسنا من التفكر أوسع ليطال تجريمنا الجريمة منظومةَ الأفكار الفاعلة على خندقي الدنيا والدين معا، وهي الأفكار والأوهام التي قرأت الصراع وحلّلته واتخذت مواقعها فيه، متمترسة وراء سد قوامه مئات الآلاف من الضحايا وقد غرزت في أجسادهم النازفة بيارق أيديولوجياتها وقراءاتها. وما برحت تبني من هذه المصارع وذلك الحطام جسورها إلى «المستقبل»؟

إنها أسئلة أجوبتها ليست ناجزة ولكنها أسئلة أطرحها أولا على عقل النخب العربية المثقفة التي قالت لنا أدبياتها إنها مؤمنة بالتغيير ولأجله تعمل، ولكونها أعلت من شأن نفسها ومواقعها وقراءاتها للصراع، وجعلت من فكرة الجموع جمهوراً لأفكارها وتطلعاتها.. وهي بالتالي تتحمل قسطها من المسؤولية بإزاء نهر الدم الذي يتدفق بلا توقف في حاضر العرب وحواضره. فليس السفاحون وحدهم المسؤولين عن سفك الدماء، ولكن أولئك الذين خاضوا المعركة متسلّحين بالجموع ولم يخوضوها بكفاءة، إن لم نقل إنهم لم يحرصوا على أرواح الضحايا أو هم جعلوا من غزارة دماء الضحايا وقودا لحركاتهم الفكرية والأيديولوجية وتطلعاتهم القيادية.

مرة أخرى، ليس من شأن هذه الكلمة أن تساوي بين الجلاد والضحية، ولا بين المستبد والثائر على الاستبداد، ولا بين مغتصب الحق وصاحب الحق، ولكنها كلمة ناقدة تحاول أن تضيء مصباح السؤال في عتمة الأجوبة الدوغمائية وظلام التطلعات العمياء الناكصة بأهل الحاضر نحو ماض متوهَم لا يمكن استعادته في برهة زمنية يسودها خليط من المغامرين والأفّاقين اللاعبين بدم الأبرياء وقد هان هذا الدم حتى صار أرخص من ماء مسفوح وليس له صاحب.

ولعمري إن هذه الكلمة إذ تفتتح هذا العدد إنما تتداخل ملاحظاتها وإشاراتها مع ملف يغامر بدوره في طرح السؤال عن ظاهرة صعود اليمين الشعبوي المتطرف مستعملاً بدوره الجموع ليرتقى على مصائرها ومصارعها نحو قمة السلطة الأعلى في العالم، سلطة العولمة في أكثر صورها مركزية وتوحشا؛ أميركا الجديدة التي لا هي بالديمقراطية ولا هي بالمحافظة، ولكنها خليط متطرف من يمين غاضب وديمقراطيين محبطين، وطبعة جديدة من شعبوية لا يمكن التنبؤ إلى أين ستأخذ أميركا والعالم في ظل انهيار مريع لكل ما أنتجه العالم المتحضر من قيم في العصر الحديث ■

نوري الجراح

لندن في أواخر آذار/مارس 2017



السلطان العاري

الفائض عن الاستبداد الشرقي

خلدون الشمعة

حكاية «الإمبراطور العاري» نعرفها جميعاً. في طفولتي لم أكن أعرف أن هذه القصة البارعة والمتميزة والتي تنسب لكاتب دانماركي من القرن التاسع عشر يدعى هانس كريستيان أندرسن، هي في الحقيقة حكاية مغربية ترجمت من العربية إلى اللاتينية في القرن الحادي عشر.

وفي يفاعتي قرأت بحثاً في مجلة «الثقافية الوطنية» للناقد محمود أمين العالم يحاجج فيه أن القصة القصيرة فن أوروبي تعود أصوله إلى عصر ظهور الطباعة، وأن العرب لم يعرفوا هذا الفن قبل ذلك التاريخ.

آية ذلك أن حكاية «الإمبراطور العاري» ليست دانمركية بل مغربية. وقد سبق أن أشرت إلى أن الصلات المبكرة التي تربط بين القصص الغربي وبين التراث الشعبي لا تقتصر على «ألف ليلة وليلة» كما هو شائع، بل تتعدى ذلك إلى كتاب آخر عنوانه: «ديسبلينا كليريكاليس» (Disciplina Clericalis) ترجم من العربية إلى اللاتينية في القرون الوسطى قبل أن ينقل إلى اللغات الأوروبية الأخرى، وعلى رأسها اللغة الانكليزية. وقد لفت نظري بعد مطالعتي لهذا الكتاب أن قصة هانس أندرسن، الكاتب الدانماركي الشهير التي تعود بتاريخها إلى القرن التاسع عشر، هي النموذج الأكثر شبهاً بالأصل العربي من النماذج الأخرى التي يكشف عنها هذا المصدر. بل إنّ هذه القصة التي صدرت بعنوان «ثياب الإمبراطور الجديدة» ربما كانت النموذج الذي يمكن أن يُعد إذا ما نظر إليه من منظور التشابه والاختلاف، نصاً أميناً للأصل المغربي، وبالتالي فإنه كان الأقل تعرضاً للتحوير والتكييف والتبديل.

والآن دعوني أسرد موجزاً للنص الغربي، وآخر للنص المغربي، بغرض المقارنة بين النصين:

يقول هانس أندرسن:

«في قديم الزمان عاش إمبراطور مولع بالثياب الجميلة. وقد بلغ من تعلقه بها أنه كان ينفق كل ماله على اقتنائها. وكانت البلدة التي يقع قصره فيها سعيدة للغاية، يتوافد عليها الزائرون الجدد في كل يوم. وذات يوم جاءها اثنان من النصابين كانا يشيعان بأنهما حائكان يعملان في صناعة النسيج، وأنهما قادران على نسج أروع الأقمشة وأشدها جمالاً. كما زعما أن هذه الأقمشة لم تكن تتميز من حيث الألوان والنقوش فحسب، بل كانت لها خاصية تجعلها غير مرئية لكل من كان يشغل منصباً ليس مؤهلاً لشغله، أو كان أحمق حماقة لا تغتفر».

«إن هذا رائع حقاً» هكذا قال الإمبراطور لنفسه: «والآن إذا صنعت أردية من هذا القماش، أمكنني أن أعرف من مِن مستشاري غير كفء لشغل منصبه. سأطلب من الرجلين أن ينسجا لي بعض الأقمشة». ثم دفع الإمبراطور للنصابين مبلغاً كبيراً من المال لكي يشرعا في عملية النسج. وفكر قائلاً:

«سوف أرسل رئيس وزرائي المؤتمن ليرى على أيّ نحو يسير العمل، فهو يعرف كيف يحكم على مادة القماش».

وسرعان ما دخل رئيس الوزراء العجوز الطيب الحجرة التي يعمل فيها الحائكان وشاهد النول الفارغ، ففكر قائلاً: «اللهم احفظنا!.. إنني لا أرى شيئاً».

ولكن أحد النصابين بادره بالسؤال: «أخبرنا ما رأيك فيما ترى؟». فرد متمتماً: «رائع» وبادر إلى ضبط نظارتيه على عينيه، ثم لم يلبث الإمبراطور أن دخل الحجرة التي كان الحائكان منهمكين بالعمل على النول الفارغ.

فتوسلا إليه أن يقترب من النول فتساءل رئيس الوزراء: «رائع؟».

فكر الإمبراطور: «إنني عاجز عن رؤية أي شيء إنها لكارثة». ثم صاح بصوت مرتفع: «إنه قماش رائع، وهو يروق لي». ونصحه مستشاره بأن يقص القماش وأن يخاط لكي يرتديه في موكبه خلال الاحتفال المبكر الكبير.

وفي الليلة التي سبقت الاحتفال لم تغمض للنصابين عين ولكن الجميع كانوا يلاحظون إلى أيّ حد انهمكا في

العمل. وأخيراً أعلنا على الملأ: «ملابس الإمبراطور الجديدة جاهزة» وعندما اقترب الإمبراطور منهما تحركا على نحو يوحي بأنهما يقومان بإلباسه الثياب الجديدة.

وعندما سار في الموكب، أجمع سكان البلدة على أنها رائعة، ولم يجرؤ أحد على الاعتراف بأنه لا يرى شيئاً.

بل إن ملابس الإمبراطور لم تحظ بمثل هذا القدر من الترحاب من قبل.

ولكن طفلاً صغيراً لم يلبث أن صرخ قائلاً: «إنه لا يرتدي شيئاً». ودار الهمس واللغط بين الحاضرين قبل أن يكرروا ما قاله الطفل الصغير: «الإمبراطور عريان».

اعترت الإمبراطور الرجفة إذ أدرك أنهم على حق. ولكن قال في نفسه: «لا بد أن أتحمل حتى ينتهي الموكب»، وسار في خيلاء أكثر من أيّ وقت مضى.

***

هذه هي حكاية هانس أندرسن. أما الحكاية المغربية فيمكن إيجازها على النحو التالي:

وفد ثلاثة نصابين على أحد الملوك، وزعموا أنهم عمال تمرسوا بحياكة النسيج، وأن في وسعهم صنع قماش يتميز بخاصية عجيبة فلا يرى هذا القماش إلا من كان ابن أبيه حقاً. أما إذا كان ابنا غير شرعي، حتى إن اعتقد أنه شرعي، فإنه لن يتمكن من رؤيته.

وقد سعد الملك بالفكرة أيما سعادة، وشعر أنه سيتمكن بهذه الوسيلة أن يميز الرجال في مملكته، فيعرف من منهم شرعي النسب، ومن منهم غير شرعي، ذلك أنه لا يجوز عند المغاربة المسلمين أن يورّث الآباء أبناءهم غير الشرعيين.

وقد أمر لتحقيق هذا الغرض بتخصيص قصر لصنع هذا النوع من القماش. ولكي يتمكن النصّابون الثلاثة من إقناعه بأنهم لا يخدعونه، وافقوا على أن يحبسوا في القصر حتى يفرغوا من صناعة القماش.

وشاء الملك الاستئناس برأي أناس آخرين قبل أن يقرر ما يفعل، فأرسل وزيره لتفحص القماش عن كثب ليتأكد من أنهم لا يخدعونه. وعندما رأى الوزير العمال لم يجرؤ على الاعتراف بأنه لم ير شيئاً بين أيديهم، فقفل عائداً للاجتماع بالملك وإبلاغه بأنه رأى القماش، ولكن الملك سرعان ما قز عزمه على التحقق من الأمر بنفسه.

وعندما دخل القصر ورأى العمال منهمكين في الحياكة، أحس بقلق عظيم من ألا يكون الابن الشرعي لأبيه، ولكنه رأى أنه إذا اعترف بأنه لم ير شيئاً فربما فقد مملكته، وبتأثير من هذا الشعور أخذ يمتدح عمل الحائكين، وساءت الأمور على حالها حتى حل موعد عيد كبير، فنصح الملك بأن يرتدي ثوباً مصنوعاً من القماش الجديد.

وما أن حل العيد حتى كان النصابون الثلاثة قد انتهوا من صنع القماش وأحضروه للملك.

آنذاك تظاهر الملك بأنه ارتدى حلته الجديدة غير المرئية، فامتطى صهوة جواده متجهاً إلى المدينة، وكان من حسن الحظ أن الفصل كان صيفاً.

وعندما رأى الناس جلالته عارياً أصابتهم الدهشة ولكنهم احتفظوا بالدهشة لأنفسهم، خوفاً من الفضيحة.

غير أن زنجياً لم يكن يملك شروى نقير يخسره، صاح لدى مرور الموكب الملكي قائلاً: «ليس لديّ ما أخسره يا سيدي ولا يهم ابن من أنا، ولذلك أقول لك إنك تركب الجواد بيننا عارياً».

سارع الملك إلى جلد الزنجي قائلاً إن الأخير ليس الابن الشرعي لأبيه، ولهذا لم يتمكّن من رؤية الملابس المصنوعة من قماش غير مرئي. ولكن ما أن تفوه الزنجي بعبارته عن الملك العاري حتى شعر الناس أنه ينطق بالحقيقة، فرددوا العبارة مراراً. وأخيراً زال الخوف من بطانة الملك وأدركوا حيلة النصابين الثلاثة الذين لاذوا بالفرار حاملين معهم ما أمر لهم الملك من أعطيات.

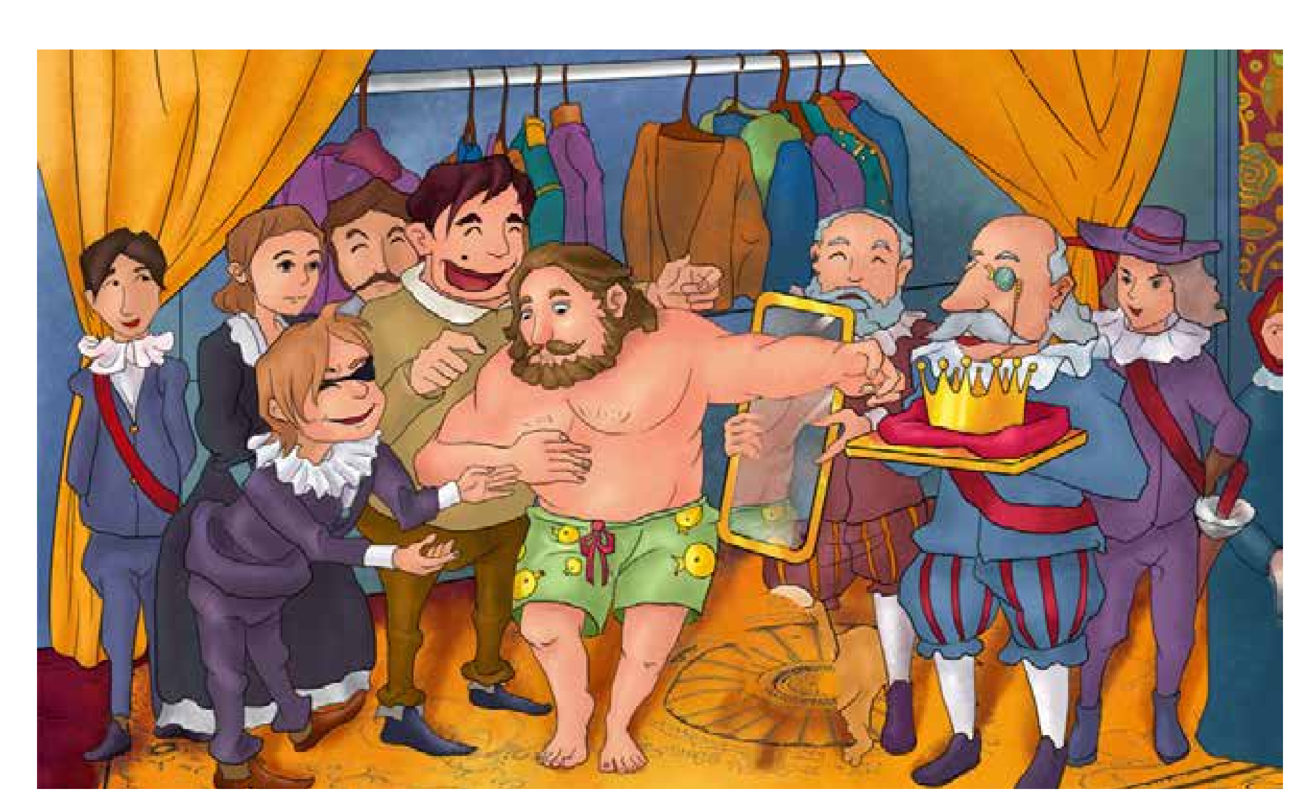
***

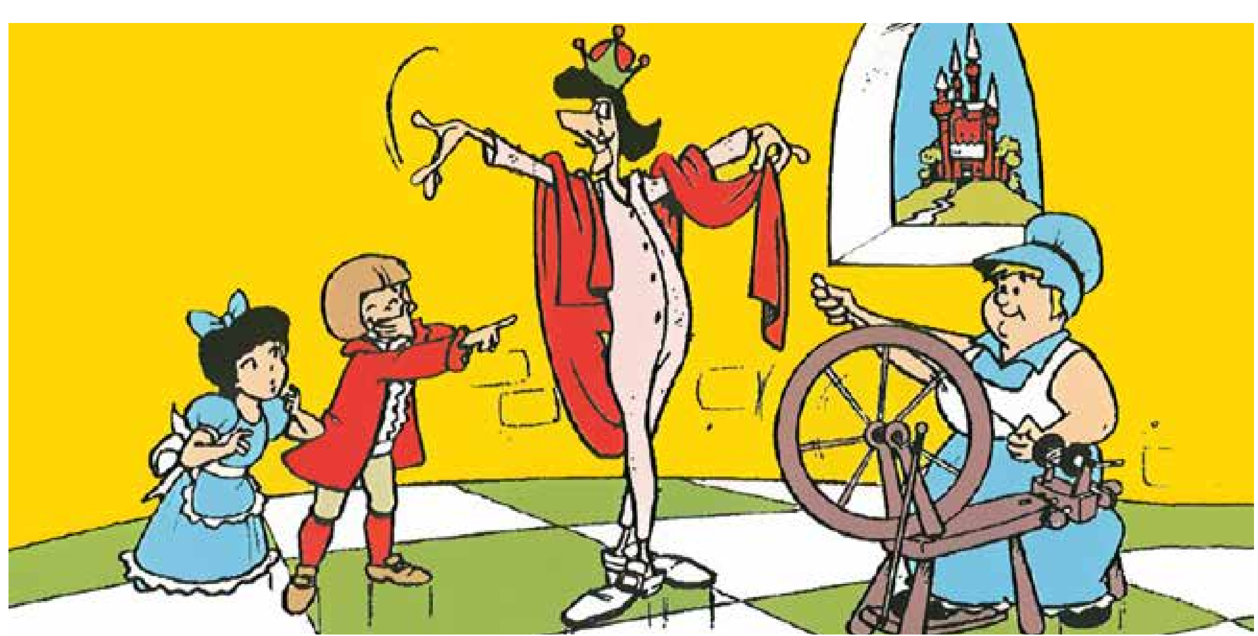
يخلص القارئ من المقارنة بين النصين المغربي والدانماركي إلى أن التشابه بينهما أشد بروزاً من الاختلاف. ولكن الاختلاف في حد ذاته من المتعذر أن نقلل من أهميته. فلأن المؤلف الدانماركي يكتب حكاية للأطفال اختار طفلاً بريئاً لم يتردد في الجهر بحقيقة كون الإمبراطور عارياً والكشف بذلك عن سيطرة الرياء والمداهنة بطانة الإمبراطور وحاشيته من جهة وإذعان الجمهور المستسلم لما يريد المراؤون والمداحون المحيطون به رؤيته من جهة أخرى.

وأما القصة المغربية كما هو جلي، فإنها تنحو نحواً آخر. فهي لا تقتصر على مؤشرات طبقية مكبوتة، بل تتجاوز ذلك إلى تصور معنى آخر للحرية كما يراه المخيال الشعبي. فالزنجي الفقير المملوك وليس المالك، والذي لم يكن لديه ما يخسره إذ يجهر بالحقيقة، يكشف بتدخله المفاجئ أنه ليس عبداً فحسب بل كائن يتوق إلى الحرية بمعنى من المعاني. والحرية الخفية هنا مناظرة للبراءة في قصة هانس أندرسن.

ولا شك أن هناك نقاط تشابه واختلاف كثيرة أخرى تستحق الالتفات ولا مجال للتطرق إليها الآن.

وقد طالعت قبل سنوات رواية لافتة لرالف إليسون وهو كاتب زنجي أميركي معاصر عنوانها «الرجل الخفي» (The Invisible Man) أو ربما «الرجل غير المرئي»، صدرت في عام 1952. هذه الرواية البارعة ذات المنحى الأوتوبيوغرافي الذي يسرد الوقائع كسيرة ذاتية، والتي تعد واحدة من عيون الأدب الأميركي بطلها زنجي يذكرني بزنجي القصة المغربية ولكن بطريقة معكوسة، فالزنجي فيها رجل غير مرئي، وذلك خلافاً لزنجي الحكاية المغربي المرئي الذي نفخ في الصفارة





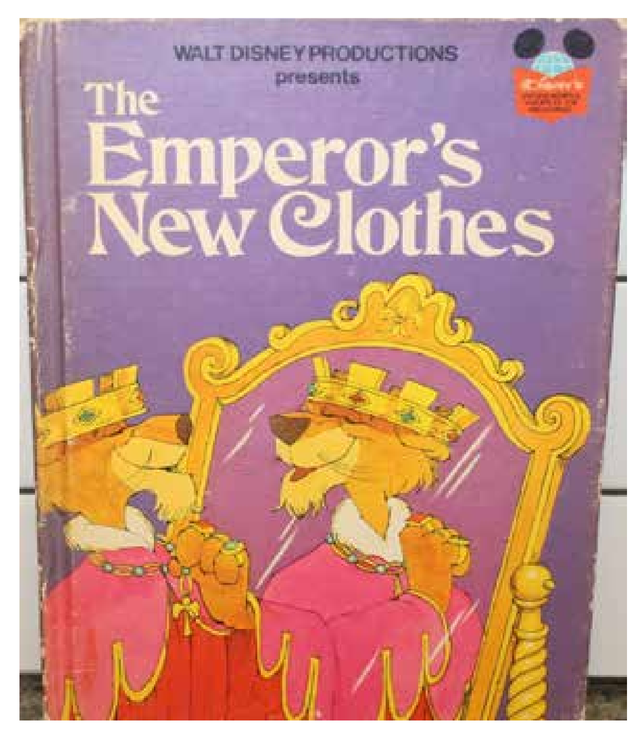
إذ رأى بعينيه خديعة الإمبراطور العاري غير المرئي.

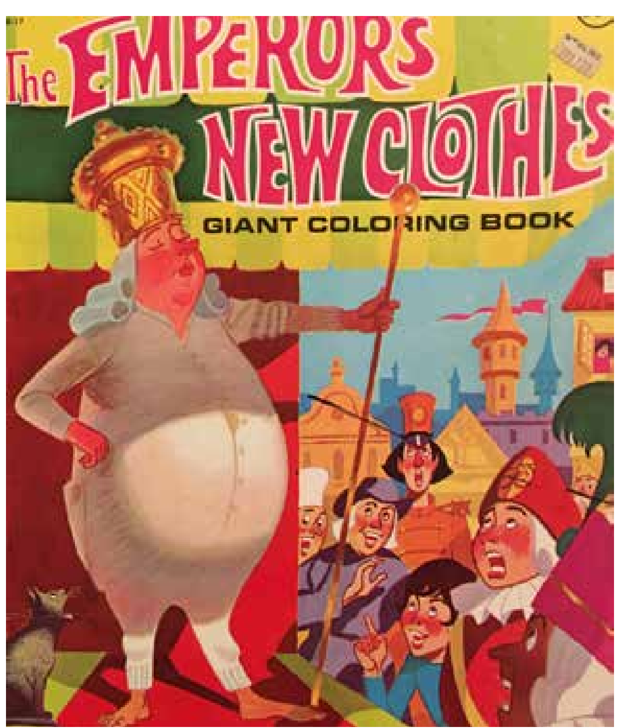
وفي تقديم E. L. Ranelagh مؤلف كتاب «الماضي المشترك» الذي أشار فيه إلى كتاب ديسبلينا كليريكاليس ووضعه جنباً إلى جنب مع كتاب «ألف ليلة وليلة» من حيث كونه أحد أكثر الكتب المترجمة عن العربية تأثيراً على فن القص في الغرب، يتساءل قائلاً: «من سمع بهذا الكتاب عندما يذكر كتاب 'الليالي العربية' الذي ترجم إلى الفرنسية في عام 1704 والذي صار مألوفاً؟».

ومع ذلك فإن هذا الكتاب الذي ترجم إلى اللاتينية في عام 1106 كان أشد تأثيراً على الأدب الأوروبي من «الليالي العربية».

هذا الرأي ربّما كان خلافياً وفي تقديري أنه بحاجة إلى ناقد بارع وعدة نقدية متميزة للبرهنة على صحته.

وفي المصدر نفسه يورد المؤلف تفاصيل مفيدة حول بطرس ألفونسس الذي ترجم الكتاب من العربية إلى اللاتينية. فقد ولد في أراغون بالأندلس عام 1062، وكان يهودياً نشأ في ظل الحكم العربي الذي استمر حتى عام 1030.. ثم صار طبيب بلاط ألفونسو الأول بأراغون، قبل أن يهاجر إلى إنكلترا حيث تنصّر وعمل





في بلاط هنري الأول.

وفي إنكلترا جمع وترجم قصص «ديسبلينا كليريكاليس». وعلى الرغم بروزه في حقول كثيرة ظل هذا الكتاب الصغير قمة إنتاجه. فقد كانت اللاتينية آنذاك لغة القارة الأوروبية بأكملها. وقبل ما ينيف على قرن، أحصى شوفين (Chauvin) المستعرب الفرنسي قرابة خمسين كاتباً أوروبياً تأثروا بهذا الكتاب من بينهم الإيطالي بوكاتشيو والإسباني ثرفانتسس والإنكليزيان تشوسر وشكسبير.

ولا شك أن سيطرة الرومانتيكية على الأدب الغربي في القرن التاسع عشر كان لها أثرها الكبير على الاهتمام الاستثنائي الذي أبداه الكتّاب الأوروبيون آنذاك بالمصادر الشرقية عموماً والعربية تحديداً كمنابع ثرة للإلهام. وفي ذلك مفارقة تستحق الذكر. فعلى الرغم من الدور الذي لعبته المصادر الشرقية في صناعة الرومانتيكية فإن أوروبا كانت آنذاك تلح على إبراز خصيصة الاختلاف بدلاً من الاعتراف بخصيصة التشابه، ولا ريب أن فكر الفرنسي ميشيل فوكو يسعفنا كما أسعف فكر إدوارد سعيد في الكشف عن سر هذه المفارقة. فما حدث ويحدث هو أن الفرضية الاستشراقية عن الشرق هي التي ظلت مسيطرة. وحسب ميشيل فوكو فإن الفرضية تقول: «أنا أعلم بوجود الاختلاف ولهذا فأنا أسيطر».

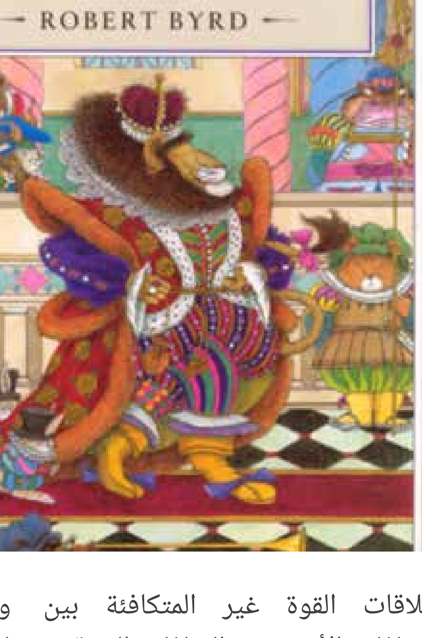
وهذا يحيلنا إلى دور الترجمة الذي أعده ضرباً من ضروب الفتح. وأنا لا أستعمل كلمة «فتح» العربية للتذكير بجذرها اللغوي الحامل للكثير من الدلالات فحسب، وإنما للتذكير تحديداً بما أشار إليه الباحث الأيرلندي كيبرد (Kiberd) أحد أبرز الباحثين في «دراسات ما بعد الاستعمار» من أن فعل «Translate» بالإنكليزية ومعناه «يترجم» يتحدر من الجذر اللغوي لفعل «يفتح، يغزو». وقد اكتسب هذا الفعل أهمية خاصة في مجال «دراسات ما بعد الاستعمار» وهو مجال يشغل حيزاً مركزياً في دائرة أوسع هي «النقد الثقافي» (Cultural Critique).

وتعليل وجود هذه الأهمية يكمن في أن العلاقة بين فعل «يترجم» وفعل «يفتح» ذات محمول معرفي يشير إلى محاولات الاستعمار الأوروبي القيام بعمليات تصنيف وتسجيل وتمثيل المجتمعات غير الأوروبية، وبالتالي فتحها لكي تصير قابلة للهيمنة والخضوع.

آية ذلك أن الترجمة من العربية إلى اللغات الأوروبية هي بدورها بمثابة «فتح» مغاير للفتح الأوروبي ولكنه يشير إلى رحلة النص من لغة إلى لغة أخرى، النص الذي تستقطبه نزعة مركزية أوروبية طاغية. وهو بهذا المعنى محاولة لإعادة الاعتبار للهامش العربي في مواجهته المستمرة للمركز الأوروبي.

ولكن ما المقصود بالهامش؟

المقصود بهذا المصطلح النظر إلى الثقافات غير الأوروبية وعلى رأسها الثقافة العربية الإسلامية من زاوية المركز الأوروبي. وبعبارة أخرى يمكن القول إن معناه تهميش هذه الثقافة وسلبها من الدور التاريخي الذي لعبته في تطور الحضارة العالمية. وحتى في هذا الزمن الذي يحتلّ فيه مفهوم العولمة الثقافية موقع السيطرة في علاقات القوة غير المتكافئة بين الثقافات الأوروبية والثقافات الشرقية، مازالت النزعة المركزية الأوروبية هي المهيمنة على الهامش الذي يشمل كل ما عداها. وتتجلى هذه النزعة في التردد بقبول فكرة كون الغرب قد اقترض شيئاً يُعتدّ به من الشرق، أو رؤية أمشاج الفكر الشرقي الكامنة في داخل التراث الغربي. ولأن أوروبا تربط تاريخها الحضاري باليونان فقد اعتبرت الحضارة العربية الإسلامية مجرد وسيط لا أكثر بينها وبين الحضارة اليونانية.



وبعبارة أخرى يمكن القول إن عدم وجود تكافؤ في معادلات القوة بين الطرفين يحيلنا إلى مسألة تمثيل أوروبا لـ»الآخر». وقد كان كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد محاولة لتفنيد مؤسسة الاستشراق وليس وضع المستشرقين كلهم في سلة واحدة كما شاع لدى صدوره، فلا شك أن هناك مستشرقين ساهموا إلى حد كبير في الكشف عن الدور الذي لعبته الحضارة في تكوين الحضارة الأوروبية وفي تطوير مفهوم التعددية الحضارية العالمية. والمقدمة التوضيحية التي وضعها إدوارد سعيد للطبعة الثانية من الكتاب أوضحت أنه تعرض لمؤسسة الاستشراق تحديداً وليس إلى جميع إسهامات المستشرقين.

وكما هو معروف فإن موضوع تمثيل «الآخر» هو أحد أمشاج كتابه الذي صدّره بعبارة ماركس اللافتة عن الشرقيين: «إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم ولذلك يجب علينا أن نقوم بتمثيلهم».

لا شك أن الحراك الثوري السوري، قد نجح في تفنيد هذا الادعاء رغم أنه أرغم على دخول نفق مظلم ليس من صنعه. ويبدو أنّ ما يحدث في معظم أنحاء العالم العربي الآن، يعزز الرأي القائل أنه لن يُسمح للهامش بتمثيل نفسه قبل أن يتمكن بنفسه من انتزاع حقه في التمثيل. وحتى يتحقق ذلك لا بد من التذكير بمقولة الفيلسوف هيغل حول «الاستبداد الشرقي»، ونظيرتها مقولة عالم الاجتماع «ماكس ويبر» حول ما دعاه بـ»السلطانية الشرقية».

هاتان المقولتان تطرحان السؤال التالي: هل صحيح أن الشرقيين غير مؤهلين ولن يكونوا مؤهلين للديمقراطية؟ ثمة قطاع من المثقفين العرب، وأنا أحدهم، يحاول عبثاً تفنيد هذا التأطير العنصري للشرق. ومن الجلي أن قصة أندرسن، وأصلها المغربي، تشتركان بحدود، في البرهنة على تهافت منطق «الداروينية الاجتماعية» الذي يختزله هذا التأطير. فالطفل في القصة الدانمركية (التي ظلت شرقية رغم التحوير)، ونظيره الزنجي في القصة مغربية الأصل، كلاهما يرى الحقيقة ويفضح الاستبداد. ومنذعقود، رأى السوريون بدورهم حقيقة الوحل الأمني والطائفي والمناطقي الذي أوغل فيه الحاكم وأشاروا إلى الاستبداد وعلقوا عليه ومازالوا يدفعون الثمن. إن ما نواجهه الآن هو «السلطانية الشرقية» بامتياز، ما نواجهه هو الفائض عن «الاستبداد الشرقي».

ناقد من سوريا مقيم في لندن

الفريضة الغائبة
في آليات الاستبداد الشرقي

هند عبدالحليم محفوظ

تبدو السلطة في غالب الدول والمجتمعات والعصور غاوية وفاتنة ولذائذية لمن استطاعوا الوصول إليها، وفي عيون وإدراكات من يرومون وصالها! ولكن السلطة فتنة وتحمل في أعطافها العديد من الأمراض السياسية والنفسية، غالبا ما تنطوي النفس السلطوية الأمارة بالسوء على بواعث الانحراف بها عن مسارات الشرعية وضوابطها، وقواعد دولة القانون على اختلافها، ولا سيما في مجتمعات «السلطنة الشرقية»، حيث الافتقار إلى التقاليد المؤسسية، وغياب معنى الدولة ورأسمالها الخبراتي لدى «بعض» من يصلون إلى سدة الحكم، ويعتقدون أنهم هم الدولة -على نمط لويس السادس عشر- «أنا الدولة والدولة هي أنا!»، ومن ثم يختصرون الدولة في ذواتهم المصونة والمحصنة ضد النقد أو العزل أو المساءلة القانونية عن بعض قراراتهم السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو انحرافهم بالسلطة كما يعرفها القانون الحديث والمعاصر.

هذا النمط من اختزال الدولة والنظام السياسي الحديث في نمط سلطاني في الحكم حيث لا قواعد ولا روادع ولا انصياع لحكم القانون في إطار الفصل بين السلطات يحوّل «الحكم الشرقي السلطاني» إلى حكم شبه مطلق، ومن ثم تغدو السلطة المطلقة أو «أشباهها» مفسدة مطلقة، وفق مقولة لورد أكتون ذائعة الصيت (النخبة والثورة.. الدولة والإسلام السياسي والقومية والليبرالية، نبيل عبدالفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2013 ، ص 369).

أطلق المستشرق الإيطالي الشهير مقولة مفادها أن الإسلام ليس بالحركة الدينية؛ إذ ليس فيه ما يتصل بالدين غير واجهته. أما جوهره فسياسي واقتصادي محض.

وقد جسدت الحركات الراديكالية في الأقطار الإسلامية هذا المفهوم من خلال التعبير عن المظالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية تعبيراً دينيا والاعتبار الديني منحها المبرر للتمرد على السلطة.

وهناك اعتبار خاص بمفهوم العرب في العصر الجاهلي عن السُنّة، فالسنة لغة هي الطريق، طريق الأسلاف الذي ثبت أنه في أسفارهم في الصحراء يقودهم إلى واحات وعيون لولاها لهلكوا، وبالتالي فإنه من الخطورة بمكان أن ينحرف الفرد قيد أنملة عن طريق الآباء والأجداد. وقد قيد هذا الموقف العقلي الموروث قدرة العرب على المغامرة والابتداع وأشاع بينهم التقليد الأعمى والجمود. وقد أحدثت الدعوة الإسلامية تغيراً كبيرا في نفوس المعاصرين لعصر النبوة وما تلاه وموقفهم من القيم السياسية والدينية والاجتماعية لدرجة أن الذين ارتدّوا عن الإسلام قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وبعدها، ورفضوا الاعتراف بسلطة الخليفة في المدينة على سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية خلعوا على دعوتهم سمت الدين وانتحل زعماؤهم لأنفسهم وصف النبوة وصوّروا ثوراتهم على أنها وحي من الإله، رغم أنه من الثابت أن هذه الثورات قد أشعلتها دوافع سياسية واجتماعية واقتصادية بحتة. لذلك كان من أبرز سمات التاريخ الإسلامي ارتباط الدعوات والأفكار الخاصة بضرورة التغيير وإزالة المظالم، وكذلك الآراء المناهضة لتلك الدعوات هي الأخرى، ارتباطا وثيقا بفكر ديني وما كان ليدور بخلد أتباعها أن احتجاجهم نابع عن غير العقيدة الدينية، ولا أنّ لهم من الأهداف غير تخليص الأمة من حكم لا يرضاه الله، والعودة بها إلى الطريق القويم، أو دعم حكومة ارتضاها الله للأمة واستئصال شأفة جماعات المعارضة.

ولا يمكن أن ننسى النزاع المرير خلال العصر العباسي الأول حول ما إذا كان القرآن مخلوقاً أو قديما قدم الله. وقد واكب قيام الدولة العباسية ظهور طبقة من الوزراء والكتّاب والولاة والإداريين المحترفين جلّهم من الموالي والفرس، كان هدفهم تعزيز سلطان الخليفة الذي من شأنه أن يوفر لهم حرية أكبر في نشاطهم الإداري. وكان من أبرز وسائلهم لتحقيق هذه الغاية أن يحرروا الخليفة من الخضوع لأحكام الشريعة، نظرا إلى أن هذا الخضوع إنما يعني إذعانهم في ممارسة سلطاتهم لرقابة منافسيهم وخصومهم، ألا وهم طبقة الفقهاء وعلماء الدين وقد أيد هذا الاتجاه من طبقة الوزراء والكتّاب الكثيرون من الفرس والشيعة المعتدلين، في حين تصدت له بالمقاومة طبقة الفقهاء والعلماء التي أصرت على وجوب التزام الخليفة ووزرائه وولاته بأحكام الشرع وهو ما صادف هوى في نفوس الكثيرين من العرب ذوي النزعة الديمقراطية والمؤمنين بالمساواة. وهكذا ظهرت إبان ذلك العصر جبهتان متصارعتان، يمكن أن نسمي الأولى بالجبهة الأوتوقراطية وقوامها من الفرس ورجال الإدارة، وأن تسمى الثانية بالجبهة الدستورية، وقوامها من العرب والفقهاء.

وبمجرد أن تولّى المأمون الحكم بمعونة الفرس، وتمكن من القضاء على أخيه الأمين وأنصاره من العرب الأقحاح، حتى مال هذا الخليفة ذو الميول الشيعية إلى مساندة الجبهة الأوتوقراطية الراغبة في تعزيز سلطانه (سلطانها) وفي كسر شوكة العرب والفقهاء من أعدائها. وقد وجد المأمون في إحدى نظريات المعتزلة ما قد يصلح لأن يستند إليه في سبيل تحقيق غرضه، ألا وهي نظرية خلق القرآن. ذلك لأن القول بأن القرآن غير مخلوق، وبأنه قديم قدم الله، إنما يعني أنه مساو له في القدر، وتعبير كامل عن حقيقته، في حين أن القول بأن القرآن مجرد كلام خلقه، يجعله بمثابة غيره من المخلوقات، كالناس والأنعام والجبال والحجارة، فليس له إذن من المقام ما يعزوه الفقهاء إليه، وبالتالي فإنه يمكن للخليفة أن يأخذ بأحكامه أو ينحيها جانبا وفق ما يشاء. فالقول بخلق القرآن يُضعف من الأساس الذي تقوم عليه آراء الجبهة الدستورية التي تذهب إلى ضرورة أن يكون القرآن دستور المجتمع، والنظام السياسي للدولة، في حين تؤدي نظرية قدم القرآن إلى القول بأن الشريعة فوق الإمام وليس الإمام فوق الشريعة.

وهذا مثال يوضح كيف اكتست الآراء والمذاهب المتباينة في أقطارنا في ميدان السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد ثوب الدين، وكيف أضحى الدفاع عنها أو التهجم على مخالفيها مصطبغا بصبغة الحرمة الدينية، لا الموضوعية العلمية (أبو شاكوش، حسن أحمد أمين، دار العين للنشر، القاهرة 2007، ص ص 148- 149).

وقد ارتفع الخطاب الأشعري بالحاكم إلى مقام الشراكة مع الله في الفعل والقدرة، بما يعني أن الاستبداد يصبح دينا يتعبد به الناس له، وهكذا يحصن الاستبداد نفسه بأن يجعل من نفسه جزءاً من الدين على نحو يكون فيه أيّ سعي إلى مناهضته والخروج عليه بمثابة خروج على الدين ذاته. وليس من شك في أن هذه الحالة التي يستحيل فيها الاستبداد إلى نظام في الدين تكون هي الأكثر ضراوة واستعصاء على التحدي.

وقد مضى رجل الإصلاح الكبير عبدالرحمن الكواكبي يفضح الطريقة التي يسطو من خلالها المستبدّ على الدين ويحيله إلى مطية لطغيانه واستبداده؛ سواء أكان ذلك من خلال اتخاذه لنفسه صفة قدسية يتشارك بها مع الله، أم تعطيه مقاما ذا علاقة مع الله، أو يتخذ بطانة من أهل الدين المستبدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبد الرحمن الكواكبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، ص 13).

وبالطبع فإن هذا الامتطاء للدين، من جانب المستبد، هو ما كان لا بد أن يجعل منه مجرد زخارف ورسوم شكلية خارجية، وبحيث يتحول إلى ما يشبه الدواء المهدّئ الذي تتعاطاه جماهير يائسة محبطة، لتتعزى به عما تعانيه من الاستبداد والقهر، ويفقد دوره الجوهري في تنوير الإنسان

محمد لبش



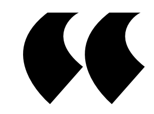
وتحريره بالأساس؛ وبما يعنيه ذلك من التأكيد على دور المستبد في تفريغ الدين من مضمونه وتحويله إلى مجرد شكل فارغ.

ولقد كان الكواكبي هو من كشف -وببراعة فائقة- عن الكيفية التي ينتج بها الاستبداد «التنطع» في الدين؛ والذي هو الآية الكبرى على دخول الدين إلى دائرة الخواء والصورية. فقد مضى إلى أن «المستبدين قد سطوا على الدين واتخذوه وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الأمة شيعاً، وجعلوه آلة لأهوائهم، فضيعوه وضيعوا أهله بالتفريع والتوسيع والتشديد والتشويش وإدخال ما ليس منه فيه كما فعل أصحاب الأديان السائرة، حتى جعلوه دينا لا يقوى أحد ممن يتوهمَ أن كل ما دونوه هو منه على القيام بواجباته وآدابه ومزايداته التي صارت تشتبه مراتبها على العام والخاص. وبذلك انفتح باب التلوّم على النفس اعتقاد التقصير، وأن لا نجاة ولا مخرج، ولا إمكان لمحاسبة النفس. وهذه الحال تصغر النفس وتخفت الصوت وتمنع الجسارة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المنوط بها قيام الدين وقيام النظام والعدل. وهذا الإهمال للمراقبة والسيطرة والمؤاخذة والسؤال أوسع لأمراء الإسلام مجال الاستبداد وتجاوز الحدود. وبهذا وذاك ظهر حديث «هلك المتنطعون» أي المتشددون في الدين (السابق ص ص 17-18).

والأدهى من ذلك أن سياسة القهر التي انتهجها حكام المسلمين وعلماء الدين تجاه كل مبادرة فكرية حرة، كان لها من الآثار الوخيمة ما لا يزال العرب يعانون منه إلى يومنا هذا. فقد بات التصدي لتلك المبادرات الفكرية تصديا إداريا من السلطة، لا تصدياً فكرياً من أصحاب الرأي المخالف. وقد أحبط هذا القمع العنيف كل محاولة من أجل التجاوب مع المتغيرات في العالم المحيط بدولة الإسلام، ومن أجل مجابهة التحديات الجديدة. فكان أن وجد المثقفون السلامة إما في التزام الصمت، أو الالتزام بما تمليه عليهم السلطتان السياسية والدينية. ثم كانت ثمرة أخرى لهذا الافتقار إلى الحوار الفكري بين أصحاب الآراء المختلفة: وهي أن الرجعيين من علماء الدين، وقد اطمأنوا إلى مناصرة الحكام المستبدين لهم، ومؤازرة السلطة السياسية والعسكرية وإلى فقدان المفكرين للجرأة على التحدي والنقاش، لم يجدوا ضرورة للتسلح بالمزيد من العلم والمعرفة من أجل ضمان النصر في أيّ جدل أو حوار مع مخالفيهم في الرأي وبالتالي فقد أهملوا الدرس والتحصيل، وقلّت بضاعتهم من العلم، وانصرفوا عن تراثهم الفكري الرائع، مكتفين بالاستناد إلى



الأدهى من ذلك أن سياسة القهر التي انتهجها حكام المسلمين وعلماء الدين تجاه كل مبادرة فكرية حرة، كان لها من الآثار الوخيمة ما لا يزال العرب يعانون منه إلى يومنا هذا



الحكومات في حماية العقيدة ومحاربة البدعة. وهو ما لا يزال يحدث في بلادنا إلى اليوم إذ نرى المتشددين كلما ظهر كتاب أو مقال يخالف فكرهم، يهرعون في جزع إلى السلطة يضرعون إليها أن تصادر هذا الكتاب، أو تقمع فكر هذا الكاتب، أو تمنع عرض هذا الفيلم أو هذه المسرحية، أو تغلق أبواب هذا المعرض الفني.

ويحضرني هنا ما ورد عن علي باشا مبارك من أنه أثناء تفقده لإحدى مدارس الريف المصري، وقف صبيّ فلاح يجهر بأن له رأياً مخالفا لبعض ما قاله الوزير، فلما انتهره ناظر المدرسة بقوله «اسكت يا ولد، عيب»، بادر علي مبارك يقول «بل دعه يعبر عما في خاطره. فما دام قد قال للوزير لا، فسيجد من السهل عليه بعد ذلك أن يختلف في الرأي مع أبيه، ومع العمدة، ومع المأمور وهو ما نرجوه، ونتطلع إليه» (أبوشاكوش ص ص 150-151).

ويكشف تاريخ الثورات أنها تندلع من أجل الدخول بمجتمعاتها إلى آفاق جديدة. ومن هنا فقد كان الظن بأن الثورات العربية سوف تفتح الباب أمام مجتمعاتها لدخول عصر الحداثة العقلية والسياسية والاجتماعية. لكن يبدو وكأن العرب -وكعهدهم في التفرد دوما- قد أرادوا لثوراتهم الراهنة أن تكون سبيلهم إلى النكوص إلى العصور الوسطى. فإذا كانت الثورة هي وسيلة البشر في الإفلات من قبضة البنية ذات التمركز الديني التي تمحور حولها عالم العصور الوسطى، فإن العرب قد جعلوا ثورتهم هي وسيلتهم في تديين السياسية. ولسوء الحظ فإن «العنف في كل أشكاله الناعمة والدامية يكاد يكون أحد أهم المآلات التي لا بد أن ينتهي إليها الخطاب الرامي إلى تديين السياسية. ويتفرع عن ذلك حقيقة أن التفكير في السياسة أو ممارستها بالدين، يحيلها إلى جملة 'مطلقات' سوف يجد البعض أن لا سبيل لتسكينها في الواقع -على فرض إمكان ذلك- إلا بالإكراه والقسر. وعلى الدوام، فإنه يبقى أن العبرة هي بالمصائر والمآلات التي تقتضيها أنظمة الخطابات، وليست بالمقاصد والنيات التي تسكن نفوس الأفراد»، (في لاهوت الاستبداد والعنف، الدكتور علي مبروك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2014، ص ص 104-106).

كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر



فؤاد حمدي



نقد سياسة الاعتراف

الجماعات والهوية الوطنية والعلاقة الديمقراطية

علي رسول حسن الربيعي

إنَّ أحدى السمات الأكثر بروزا للسياسة في عصرنا هو تنامي طلب الجماعات الثقافية المختلفة الاعتراف لها بهوية خاصة تميزها. المطلب الأساس هو أن ينفتح النظام السياسي الديمقراطي تجاه هذه الجماعات، ويتخلَى عن السياسات والإجراءات التي تضرَ بهم أو تتجاهلهم، وأن يتم الاعتراف بهم على قدم المساواة مع حاملي الهويات الثقافية للأغلبية أو السائدة.

السؤال هنا ما هو حجم الاعتراف المطلوب، كيف ينشأ، ما إذا كان ذلك مُبرراً طبقاً لشروطه الخاصة، وعمَا إذا سيكون الإجماع عليه متوافقًا مع الحفاظ على الشروط السياسة للديمقراطية الناجحة؟ سنتناول هنا العلاقة بين الهويات الجماعية والهوية الوطنية في إطار ديمقراطي. لكني أيضا سأقدم نقدا لفلسفة أو سياسة الاعتراف من وجهة نظر فلسفة الجمهورية.

سياسة الاعتراف

تتجاوز سياسة الاعتراف التسامح كما فُهِمَ في المجتمعات الليبرالية. تنطوي سياسة التسامح على ترك الجماعات أحرارًا في تأكيد هوياتهم والتعبير عن قيمهم الثقافية خاصةً. ويكون دور الدولة هنا سلبيًا: إذ لا ينبغي لها إجبار الأقليات على التكيف وإطاعة ثقافة السائدة، ولا أن تُقيم الحواجز التي تُعيق ازدهار ثقافات تلك الأقليات. إضافة إلى ذلك، تقع على الدولة مسؤولية إيجابية أيضا هي حماية ثقافات الأقليات عندما يجد أعضاء تلك الأقليات أنفسهم في منافسة غير متكافئة مع الثقافة السائدة. لكن يعتبر هذا غير كاف بالنسبة إلى مؤيدي سياسة الاعتراف، لأنه يحاصر الجماعات في مجالها الخاص، ولا يوفر لها فرصة الحصول على تأييد الفضاء العام لهوياتها الخاصة. فالفضاء العام -طبقا لرأي مؤيدي الاعتراف- يخضع للقواعد التي تبدو عامة ومحايدة ثقافيا، لكنها في حقيقة الأمر تعكس القيم الثقافية للفئات الاجتماعية المهيمنة، تقول آرز موران يونغ بوصفها من أبرز المدافعين عن سياسة الاعتراف (في كتابها العدالة وسياسة الاختلاف الذي سأعود إليه دائماً) تقدم وجهة نظر الذين يتمتعون بالامتياز تجربتهم ومعاييرهم الخاصة كشيء معتاد ومحايد. وإذا اختلفت تجربة بعض الجماعات عن هذه التجربة المحايدة، أو أنها لا ترقى إلى معاييرها، ينظر لاختلافهم على أنه قد بُنِيَ على نحو منحرف وذو منزلة أدنى. ليس فقط يتم تجاهل وكتم تجربة وقيم المضطهدين، لكنهم يصبحون في وضع غير مُواتٍ بسبب هوياتهم.

إذن، من هذا المنظور، لا يمكن أن تنشأ الفرص المتكافئة للمجموعات المختلفة التي يأمل الليبراليون خلقها من خلال سياسات التسامح. فالمطلوب بدلاً من ذلك أن يحدث تحول في المجال السياسي ومن خلال ثلاثة جوانب رئيسة:

أولاً، تطهير المجال السياسي من الإجراءات والرموز والمعايير التي تجسد قيم المجموعات التي هيمنت حتى الآن. فعلى سبيل المثال لا ينبغي أن تقتصر السياسة على لغة مجموعة الأغلبية في مجتمع ثنائي اللغة. أو إعطاء أيّ دين معين امتياز خاص في الفضاء العام.

ثانياً، أن تشارك الجماعات في المجال السياسي على أساس مبدأ المساواة وتشجيعها على تأكيد هوياتها الخاصة ووجهات نظرها في سياق القيام بذلك. فمن ناحية أولى، يتطلب هذا الأمر الوجود الفعلي لأعضاء كل جماعة في المحافل السياسية كالمجالس التشريعية وغيرها، وبأعداد كافية حتى يكون وجودهم كبيرًا ومؤثراً. من ناحية أخرى، أن تشارك تلك الجماعات ليس تبعًا للشروط التي حدَدتها الجماعات الأخرى والتي قد لا تأخذ شكلاً علنياً، ولكن وفقا للوسائل التي تتطلبها تجربتهم الخاصة. يبنى على هذا حق الجماعات في أن تنظم نفسها بشكل مستقل. ربما يكون هذا التنظيم ضروريًا لهذه الجماعات من أجل اكتشاف وتعزيز إيجابيات وخصوصية تجربتهم الذاتية. يحقَ لأعضاء الجماعة مناقشة وتحديد احتياجاتهم ومصالحهم الخاصة. ثم نقل تلك المصالح والاحتياجات إلى المجال السياسي وتُعرض على الجماعات الأخرى التي كانت قد عرضت وأوصلت وجهات نظرها الخاصة بطريقة مماثلة.

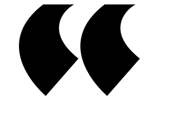
علاء الأيوبي

ثالثا، أن تراعي السياسات التي تنبثق عن دوائر صنع القرار السياسي حساسية الاختلافات بين الجماعات باستبعاد أيّ إجراءات بسيطة ومباشرة لحساب الأغلبية في اتخاذ القرارات. يحق للجماعات الإصرار على سياسة معينة بوصف نتائجها ضرورية لاحترامهم الذاتي ورفاهيتهم، وهذا ما قد يبرر منحهم حق النقض في المجالات السياسية هذه، إذ قد لا تكون المعاملة المتساوية كافية في ظروف تتأثر بها الجماعات المختلفة بشكل غير متكافئ في السياسية التي تم اختيارها.

تُلخص يونغ «سياسات الاختلاف» التي تؤيدها على النحو التالي «ينبغي على الجمهور الديمقراطي أن يُقدم آليات للاعتراف والتمثيل الفعال للأصوات ووجهات النظر المميزة لتلك الجماعات المكونة من المضطهدين والمحرومين. يتضمن تمثيل الجماعة هذا، الآليات المؤسسية والموارد العامة الداعمة (1) التنظيم الذاتي لأعضاء الجماعة بحيث يمكنهم من الإنجاز الجماعي لقدراتهم وفهمهم وخبراتهم ومصالحهم الجماعية في سياق المجتمع؛ (2) التحليل الجماعي وتوليد مجموعة من سياسات مقترحة في سياق مؤسساتي حيث يلزم صناع القرار بإثبات أنهم قد أخذوا بالاعتبار وجهات نظر الجماعة؛ (3) للجماعة حق الفيتو تجاه السياسات التي تؤثر عليهم مباشرة». يمكننا إلقاء مزيد من الضوء على سياسة الاعتراف من خلال كشف وجوه اختلافها عن نموذجين في السياسة الديمقراطية. الأول هو تعدّد مصالح الجماعة التي ترى في الدولة الديمقراطية ساحة لاختلاف تلك المصالح حيث يفاوضون ويساومون بعضهم البعض في إطارها، وما ينتج عن ذلك في نهاية المطاف يمثل السياسة التي تُقيم تسوية عادلة بين مختلف مطالب الجماعات. وتذهب سياسة الاعتراف أبعد من ذلك في طريقين. الأول، مع أنّ تعدد مصالح الجماعة تواجه المشكلات التي يسببها واقع أنّ الجماعات المختلفة يتاح لها قدر غير متساو من المصادر التي تؤهلها لدخول الساحة السياسية، إلا أنها تفترض أن المؤسسات السياسية يمكن أن تكون محايدة بين الجماعات: بعد إتمام تحقيق هذا الدخول يعتمد نجاح كل جماعة على قوة مساومتها وقدرتها على تشكيل تحالفاتها. في المقابل، ترى سياسة الاعتراف أن الفضاء العام يتجسد في معايير تعتبر بعض الجماعات ذات وجود شرعي ومقبول، وأخرى منحرفة عن تلك المعايير. وعليه لا تُحلّ مشكلة الجماعات التي تندرج في فئة المنحرفة في حق دخول المجال السياسي فقط، ولكن في



تنطوي سياسة التسامح على ترك الجماعات أحرارًا في تأكيد هوياتهم والتعبير عن قيمهم الثقافية خاصةً. ويكون دور الدولة هنا سلبيًا: إذ لا ينبغي لها إجبار الأقليات على التكيّف وإطاعة ثقافة السائدة



الحصول على اعتراف بشرعية هوية الجماعة التي يمثلونها أيضاً، والتي تنطوي على تحدي المعايير السائدة المتعلقة بتحديد من الذي يُنظر له ويعوّل عليه كمواطن صالح. الثاني، ينطلق تُصوّر تعدد مصالح الجماعات من رأي يقول بإمكان وصول هذه الجماعات فيما بينها إلى اتفاق حول مطالبها مما ينعكس في تسوية سياسية منصفة تحفظ مصالحهم. تميل سياسة الاعتراف، من ناحية أخرى، إلى إعادة التوزيع (توزيع الفرص والمناصب والثروة وغيرها) لصالح تلك الجماعات التي اعتبرتها محرومة أو مضطهدة، لكن على كلّ جماعة أن تقدم تفسيرا لاحتياجاتها وأن يكون لهذه الاحتياجات وزنا أخلاقا أو ثقلا معنويا عند أعضاء الجماعات الأخرى. بعبارة أخرى، أن تحكم النقاش السياسي حول هذا النموذج قواعد العدالة بما يعود بالمنفعة على الجماعات المختلفة.

النموذج الثاني من السياسة الديمقراطية الذي يغاير سياسة الاعتراف هو النموذج الجمهوري. تقع على الأفراد الناشطين في المنتظمات السياسية، طبقا لهذا النموذج، تبنّي الهوية الوطنية الجامعة والتي تتجاوز هوياتهم الفئوية كأفراد أقليات طوائفية (دينية أو عرقية)، وغيرها. فمن المهم بالنسبة إلى السياسة الديمقراطية أن تكون جميع وجهات النظر ممثلة في الساحة السياسية، ومن أجل الوصول إلى قرارات سياسية عادلة ومتفق عليها على المواطنين أن يتركوا التزاماتهم الشخصية وانتماءاتهم جانبا ويحاولوا تقييم المطالب المتنافسة اعتمادا على مدى استيفائها المعايير المشتركة للعدالة والمصالح. يجد هذا النموذج تعبيره الأكثر وضوحاً وربما الأكثر تشدداً في مطلب روسو بمنع جميع العصبيات في الجمعية التشريعية من أجل أن تظهر الإرادة العامة. تزعم سياسة الاعتراف أن العمومية التي يطالب بها الجمهوريون زائفة، وأن المعايير التي افترضت أنها توجه النقاش العام ستكون في الواقع هي المعايير التي تفت برعاية الجماعات القوية القائمة. ولا يوجد سبب وجيه أن يضع أعضاء كل جماعة هوياتهم الخاصة جانباً عند المشاركة في المحافل السياسية. لأن سيكون ذلك استسلامًا لهوية مواطنة مصطنعة التجانس. تقول يونغ، بالضد من النموذج الجمهوري، إن سياسة الاختلاف تعبّر عن مفهوم لجمهور «لا يفترض ضمنًا التجانس أو يتبنى بعض وجهات نظر عامة وواحدة في جميع الأحوال والأمكنة.. إذن ينبغي على المشاركين الديمقراطيين، ومن أجل تعزيز سياسة الاندماج، تأييد تصور جمهور غير متجانس، يعترف باختلاف مواقف الأشخاص ويحترمها، على الرغم من أنها ربما تبدو غير متفهمة تماما، من قبل الآخرين».

إن سياسة الهوية التي وصفتها تمتلك أوجها رمزيةً وماديةً، إنها تنطوي، من ناحية أولى، على اعتراف عام بالهويات الجماعية، وعلى كسب الشرعية للهويات العرقية أو الدينية أو الجنسية التي، وفقا لأنصارها، قد جرت العادة على اعتبارها أقل شأنا من الهوية المهيمنة. وتنطوي من ناحية أخرى على إعادة توزيع الموارد لهذه الجماعات في شكل برامج عملية وثقافية ذات مردودية إيجابية للأقليات. لذلك سيكون من السخرية، القول بأن مفهوم السياسة الذي تنطوي عليه سياسة الهوية ضمنًا هو مفهوم رمزي بحت. مع ذلك، فإنني سوف أركز على الجانب الرمزي لأنه يمثل الجانب الأكثر تميزا لهذا النوع من السياسة. لكن يبقى البحث عن الاعتراف من خلال السياسة -أي فكرة أن الهوية الجماعية ليست آمنة ما لم تحصل على الموافقة السياسية- هي ظاهرة تتطلب مزيداً من التحقيق.

الهويات الجماعية والاعتراف السياسي

ليست هناك حقيقة ذات صلاحية كونية أو شاملة تقول إن الجماعات ذات الهويات الطوائفية (دينية أو عرقية) يجب أن تسعى للحصول على الاعتراف السياسي. بتعميم عريض، يمكننا أن نقول، تاريخيا، كان مطلب الأقليات الأول وسابقا أن تترك وحدها من قبل الدولة، من أجل حصولها على مساحة لتطوير مؤسساتها الاجتماعية والثقافية. فلم تكن مطالبها تتعلق بعدم اضطهادها أو تحويلها قسرا إلى الدين أو الثقافة المهيمنة. وسيكون من السخف اعتبار كل مطالب الجماعات هو الاعتراف السياسي. ليس هذا لأن هذا الاعتراف كان في متناول الجماعات في الماضي ولكن لأن هذه الجماعات لا تعلق أيّ أهمية خاصة للاعتراف السياسي من قبل من هم خارجها. فكل عضو يكسب مكانته واحترامه من داخل الجماعة، كما أن رأي من هم خارج الجماعة ليس ذو أهمية طالما لا يمثل خطراً أو تهديداً على وحدة كيان الجماعة ومصالحها الخاصة. ولذلك لا تسعى الجماعة للحصول على الاعتراف بها من قبل من هم خارجها ومختلفون عنها في أسلوب حياتهم.



النموذج الثاني من السياسة الديمقراطية الذي يغاير سياسة الاعتراف هو النموذج الجمهوري. تقع على الأفراد الناشطين في المنتظمات السياسية، طبقا لهذا النموذج، تبنّي الهوية الوطنية الجامعة والتي تتجاوز هوياتهم الفئوية كأفراد



يمكن وصف المرحلة الثانية كمطلب للاندماج، فقد برزت، في مرحلة معينة من تطور الدولة الحديثة، فكرة أن يكون لكل عضو في المجتمع السياسي منزلة فوق انتمائه الخاص كالعضوية في طائفية دينية مثلا. أي بدت فكرة المواطنة المشتركة، الفكرة التي ينبغي أن تكون لها الأولوية لدى كل عضو في المجتمع السياسي فوق كل انتماء لهذه الجماعة أو تلك.

واجهت قضية المواطنة بعض الصعوبات كتفضيل بعض الأعضاء على الآخرين، أو تحدّي من قبل جماعات ظهرت وبدأت تضغط مطالبةً بأن تُعامل على مبدأ المساواة. وغالبًا ما ترافق هذا مع تغيير في أفكار الهوية الوطنية، وفي ما يعنيه من أن يكون الفرد عضوا مخلصًا ومساهمًا في قضايا الشأن العام في أمّته. حيث قُبل المسيحي بالمواطنة الكاملة في الثقافات الوطنية الحديثة في الدولة العربية وقُبل الكاثوليك بالمواطنة الكاملة في الثقافات البروتستانتية مثل بريطانيا. إن المنطق الأساسي للحجة هنا هو أن جماعة لها خصائص مميزة «ج» تسعى لإظهار أن امتلاك أو عدم حيازة «ج» غير ذي صلة بمطلب شخص للتمتع بالمساواة في حقوق المواطنة؛ إما لأن «ج» لا صلة لها بالمواطنة أو لأن وجود «ج» يجعل المرء لا بأسوأ أو بأفضل من وجهة نظر المواطنة في حال وجود «ج». مهما كان الشكل الدقيق للحجة فالمطلب هو أن يحق لأي فرد أن يُعامل كمواطن يتمتع بحق المساواة بصرف النظر عن الجماعة التي ينتمي إليها. فلا ينبغي أن يعتمد القبول في المجال العام على خصائص ثقافية أو اعتقادية كالتي لدى العضو في مجموعة «ج».

يمثل السعي للاندماج، في جزء منه، محاولة للحصول على الفوائد المادية الملموسة التي تُكتسب من حقوق المواطنة الجديدة كالوصول إلى المناصب العامة. فأن يريد أعضاء الجماعات المستبعدة الاعتراف بهم كمواطنين متساوين من قبل الجماعات المهيمنة؛ هذا يعني ضمنًا أنهم يتبادلون هوية مشتركة مع تلك الجماعة المهيمنة، الأمر الذي يجعل الاعتراف بهم من قبل غير المنتمين لهم له أهمية عندهم. فلم يعد الاحترام كافيا بذاته من قبل عضو في المواطنة لعضو آخر ينتمي

لجماعة معينة. من ناحية أخرى، المطلوب هو الاعتراف بمواطن لا غنى عنه وليس الاعتراف بعضو جماعة لا غنى عنها. أي المطلب هو، أن يكون الفرد منتميا إلى جماعة (دينية أو مذهبية أو عرقية)، ولكنه مواطن في دولة، ولديه ولاء وقيمة مواطن كما هو الآخر. إذن هنا، لدينا جماعات تحمل هويتين -هوية جماعة معينة، والهوية الوطنية التي تتشاركها مع الآخرين- ففي بعض السياقات يريد أعضاء هذه الجماعات في مجريات تعاملهم مع مواطنيهم أن تكون الأولوية للاعتراف بهوياتهم الجماعية. وفي سياقات أخرى - خاصة في السياقات العامة- يريدون ألاّ يُنظر إلى هويتهم الجماعية كأولوية ويُعاملون وفقاً لهوياتهم الوطنية ويحضون بالاحترام على أساسها.

كيف يمكن تفسير هذا التحول من قبل بعض الجماعات (أو على الأقل المتحدثين باسمها الأكثر صخبًا)، من سياسة الإدماج إلى سياسة الاعتراف؟ لماذا أصبحت المشاركة السياسية مهمة للناس ليس كمواطنين متساوين لكن كحَمَلة لهوية فئوية؟ يمكن إعطاء إجابتين عن هذا السؤال. إن الجواب المفضل عند المدافعين عن سياسة الاعتراف هو، لا يمكن أن تنجح سياسة الإدماج وفقا لشروطها الخاصة. فمن الصعب جدا أن يُعامل أعضاء الجماعات كمواطنين متساوين بتجريدهم من صفاتهم وتفضيلاتهم الجماعية باعتبارها غير ذات صلة بالأهداف والأغراض السياسية، وأن الفضاء العام متحيز ضدهم لأنه يجسد المعايير التي من الصعب على أعضاء تلك الجماعات إطاعتها. ربما يبدو هذا الانحياز أقل علنية بمقارنة مع المفاهيم السابقة من المواطنة، لكنه على الرغم من ذلك مازال موجوداً. فتزعم يونغ على سبيل المثال «عمل المجال العام التقليدي للمواطنة العامة على استبعاد الأشخاص الذين يوحدون بين الجسم والشعور.. يتبنى العديد من المنظّرين المعاصرين للمشاركة الديمقراطية التصور عن جمهور مدني يترك به المواطنون خلفهم خصوصياتهم واختلافاتهم، ولأن هذا التصور العمومي يستمر يهدد باستبعاد البعض، ينبغي أن يتحول معنى «الجمهور» إلى تقديم إيجابية اختلافات الجماعة، وعاطفتها، وأدائها».

إن الإدعاءات حول تأصل وملازمة الانحيازات الجماعية في المجال العام لا تصمد أمام التمحيص الدقيق. فلا يوجد أي سبب للاعتقاد بأن مفهوم المواطنة الجمهوري الذي يرى أن المواطن يلعب دوراً فاعلاً في تشكيل الاتجاه المستقبلي لمجتمعه من خلال النقاش السياسي



عندما نفكر في جماعة طوائفية (دينية أو عرقية)، فإننا غالبًا ما نفكر بمجتمع مغلق، يعترف به أعضاؤه بعضهم ببعض، وينظر الآخرون لهم من الخارج بوصفهم ينتمون إلى تلك الجماعة. تميزهم ثقافة وتقاليد وعلاقات اجتماعية



وصناعة القرار، يضع جماعات مثل الأقليات العرقية أو الدينية في وضع غير مُوات لها. أما فيما يتعلق بالجواب الثاني عن سؤالنا حول سياسة الهوية فهو أن يصبح الاعتراف السياسي العلني بالهويات الجماعية مهمًا للجماعات عندما تكون هذه الهويات في أوضاع غير آمنة ومهددة بالتلاشي. ومطلوب من هذا الاعتراف تعزيز وإضفاء الشرعية على الهويات الجماعية التي قد تتسبب العوامل الاجتماعية بطريقة أو أخرى في خفض أهميتها. وهناك العديد من الأمثلة عن الهويات الجماعية تكون فيها هذه الجماعات خاضعة أو مضطهدة، وتتطلب اعترافا خاصاً كما تزعم يونغ.

عندما نفكر في جماعة طوائفية (دينية أو عرقية)، فإننا غالبًا ما نفكر بمجتمع مغلق، يعترف به أعضاؤه بعضهم ببعض، وينظر الآخرون لهم من الخارج بوصفهم ينتمون إلى تلك الجماعة. تميزهم ثقافة وتقاليد وعلاقات اجتماعية وربما قيم مشتركة، ولا تعتمد هوية الجماعة على الخيارات التي يقوم بها أعضاء منفردين، على الرغم من أنه في بعض الحالات يمكن أن تُقارب العضوية في جماعة هذه الصورة الأخيرة. على كل حال، يمكننا اعتبار الهوية مسألة اختيارات حاصلة إما عن طريق الجماعات أو الأفراد. ويمكن تختار الجماعات التعريف عن نفسها في هذه الطريقة أو تلك؛ ولدى الأفراد المتساوين، في كثير من الأحيان، مجموعة من الخيارات التي تتعلق بالهوية للتفضيل فيما بينها، والأمر متروك لهم في أيّ الخيارات التي يفضلونها في سياق تحديد الهوية الذاتية. إذن كل هذه الهويات متاحة لأعضاء الجماعة ليقوموا بالخيارات المختلفة. علاوة على ذلك، فإنه قد يتحوّل مركز ثقل الجماعة بأكملها مع مرور الوقت، ومع تغيير في ثقافاتها الداخلية والظروف الخارجية.

يسلّط هذا الضوء على مدى قدرة الأفراد تحديد أيٍ من جوانب انتماءاتهم لها الأولوية، ففي الظروف التي يكون فيها لدى الجميع أصول مختلطة، يختار معظم الناس عدم التخلّي عن هوياتهم الجماعاتية أو الطوائفية لصالح الهوية الموحدة، ولكن يختارون هوية واحدة أو مختلطة وفقا لتفضيلاتهم الثقافية الشخصية، وفقا للجاذبية الاجتماعية النسبية لمختلف الهويات. التي تبرز واضحة مثلا في أحد أشكالها التي تعرف بـ»العرقية الرمزية» على حد تعبير جي. أج. جينس في كتابه بهذا العنوان. حيث يستفيد الناس من شعورهم بالانتماء إلى جماعة محددة. بالتأكيد لا يمكن تعميم هذه الهويات على المجتمعات كافة إذ من الخطأ أن تُعتبر الهويات من هذا النوع نسخة معيارية للهويات في المجتمعات الليبرالية المعاصرة مثلا. فقد يختلف الموقف كثيرًا بالنسبة إلى جماعات مغلقة وثابتة.

قد يكون الاعتراف السياسي بالهويات الجماعية مهمًا لأنه يساعد على ترسيخها. فإذا نجحت جماعة في كسب هذا الاعتراف، فإنها تؤسس لواحد من بين العديد من الخطوط الممكنة للانقسامات الاجتماعية من ناحية أولى؛ ومن ناحية أخرى تكون قادرة علناً على تحديد ما يعنيه أن تنتمي إلى جماعة.

الهويات الجماعية والديمقراطية

سألت أعلاه عمّا الذي قد يدفع جماعة ما بعد مطالبتها بالتسامح أو الاندماج كمواطنين متساوين أن تطالب بالاعتراف. لا تنشأ سياسة الاعتراف في الأعمّ الأغلب من فشل سياسة الاندماج أو من أوضاع تصبح فيها الهويات الجماعية متحولة وخاضعة للخيار الفردي على نحو متزايد، وإن ظلت هذه الهويات مهمة لحامليها. إن سؤالي التالي هو ما إذا كانت السياسة من هذا النوع قابلة للحياة: ما إذا يمكن أن توفر دولة ديمقراطية من أوضاع يتم فيها الاعتراف بالجماعات على قدم المساواة وتتشرعن هوياتهم في إطار سياسي.

إن إحدى المشكلات التي تنشأ مباشرة من تحليلي هذا، هي تحديد الجماعات المؤهلة للاعتراف السياسي. إن باحثين مثل يونغ يضعون معياراً واحداً تتأهل به الجماعة للاعتراف وهو أن تكون «مضطهدة ومحرومة»، بصرف النظر عن الصعوبات التي قد ينطوي عليها تطبيق مثل هذا المعيار على جماعة غير متجانسة كأفراد طائفة دينية معينة مثلًا، لا تزال هناك مجموعة واسعة جدا من الاحتمالات. فإذا أخذنا بنظر الاعتبار بعض العوائق ما تتعلق منها مثلا بـ: الجنس والطبقة والعرق، أو حتى بالانتماء الديني أو الهوية السياسية. إن إحدى الطرق الممكنة لتأسيس جماعات قد تأخذ مع كل بعد شكل منفصل: إن هؤلاء الأفراد الذين ينتمون لمذهب ديني منهم من ينتمون لأحزاب علمانية، ومن بينهم من ينتمون لعرق معين، أو جنس كالنساء وهكذا كلهم يمكن أن يشكلوا هويات جماعية ويكونوا مؤهلين للحصول على الاعتراف السياسي. أيّ وسيلة هي الوسيلة الصحيحة؟



يتطلّب التسامح ترك الآخرين أحرارا في ممارسة قيمهم الخاصة. وتتطلب سياسة الإدماج أن يتعامل المواطنون مع بعضهم البعض كمتساوين، بصرف النظر عن هوياتهم الجماعية. ولا تطلب من أيّ الجماعات أن تُقيّم الواحدة منها الأخرى



إن جواب يونغ، بشكل عام، كلما كانت الجماعة تميل إلى الانفصال أكثر كلما كان ممكنا تمييزها بشكل أوضح. فهي تنادي بفكرة «جماعة الانتماء». فتقول «تضمّ فكرة 'جماعة الانتماء' أولئك الناس الذين أشعر معهم بالراحة أكثر، والألفة. والشبه في الأسماء، والترابط العاطفي، ولكن ليس وفقا لبعض الصفات الطبيعية العامة. قد يتحول بروز انتماءات شخص لجماعة معينة وفقا للحالة الاجتماعية أو وفقا لتغيرات في حياته.. يتم بناء هوية الجماعة خلال عملية مستمرة يعرف بها الأفراد أنفسهم والآخرين من ناحية صلتهم بالجماعات، وبالتالي تتحول هوية الجماعة نفسها مع التغييرات في هذه العملية الاجتماعية».

يتناسب هذا الوصف مع تحليل الهويات الطوائفية والجماعات الأخرى حيث كنت حريصًا على التأكيد إنه لا ينبغي أن يُنظر إلى هذه الهويات بوصفها ثابتة، ولكنها متحولة، سواء على مستوى الجماعة أم الأعضاء. يطرح هذا صعوبات شديدة على فكرة تمثيل الجماعة والجوانب العملية الأخرى لسياسة الاعتراف. فأيّ سياسة هي المناسبة والضرورية لتمييز هويات جماعية معينة على حساب أخرى.

قد يبدو للوهلة الأولى أنها مجرد مسألة تفصيل عملي في إطار سياسة الاعتراف. لكنها في واقع الأمر تدل على عدم تماسك الدفاع عن الهوية السياسية جنبا إلى جنب مع الادعاء بأن الهويات الجماعية لا تُعطى مسبقا ولا ثابتة ولكن تتجدد باستمرار وفقا للانتماءات التي يشعر بها مختلف الأفراد؛ فلا يمكن لسياسات الهوية أن تبقى مرنة بلا حدود.

لا بد أن تؤطر الجماعات نفسها لتحصل على الاعتراف السياسي، وتثبيت شروط عضويتها وتحديد الحقوق التي سيتمتعون بها. يعتمد هذا على بعض الخصائص مثل نوع الدين أو المذهب الديني أو الجنس أو العرق الذي يمكن تحديده بسهولة في الغالبية العظمى من الحالات واستخدامه كأساس لتصنيف الجماعة. قد يشتغل هذا الأمر على مستوى سياسي وقد لا يشتغل، لكن بقدر ما يشتغل فإنه يفعل ذلك عن طريق تثبيت وتفضيل بعض الهويات على حساب أخرى. إنه ببساطة غير متوافق مع الادعاء بأن كل شخص يمكن له أن يكون قادراً باستمرار على تغيير تفضيلات هوية

جماعته على أساس مشاعر الانتماء.

تتعلق المشكلة الثانية في ماذا يعني أن تكون هوية جماعية معترف بها سياسيا. في ما يتعلق ببعض جماعة «ج»، هو أولا وقبل كل ذلك أن أولئك الذين ليسوا أعضاء في «ج» عليهم أن يفهموا ما يعنيه أن تكون جزءاً من «ج»، و ما هي وجهة نظر أولئك الذين ينتمون إلى»ج» في الواقع. ثانيا، لا بد من الاعتراف بهذه الهوية كهوية ذات قيمة، بل في الحقيقة اعتبارها هوية ذات قيمة متساوية مع هويات الجماعات التي تقع خارج «ج»، وأخيرا، من الضروري أن تتجلّى هذه القيمة عمليًا في السياسات التي تحترم مطالب الجماعات، على سبيل المثال السياسات التي تمدد امتيازات غير الأعضاء في «ج» إلى أعضاء في «ج». دعنا نطلق على هذه العناصر الثلاثة: فهم الاعتراف، التأييد العملي، والتقييم .

لا يواجه العنصر الأول الذي يتعلق بالفهم أيّ صعوبات. يبدو لي أن هناك حجة قوية مؤيدة لفكرة أن وجود أعداد كافية من جماعة معينة على الساحة السياسية تكون قادرة على إسماع صوتها يساعد غير الأعضاء على فهم ما يهتم به أعضاء «ج»، وإضفاء معنى على مدعياتهم ومطالبهم التي ربما تبدو للوهلة الأولى غير ذات قيمة. إن وجود هذه المطالب لا يضمن فهمها، ولكنه شرط ضروري لها، والفهم ضروري لأيّ وجهة نظر سياسة تجسد المبدأ الديمقراطي الذي يحسب صوت أيّ فرد بالتساوي مع أصوات الآخرين. فإذا كنا لا نفهم ما يريده أعضاء «ج» ولماذا يريدون ذلك، فإننا لا يمكن أن نوازن مطالبهم وبالتساوي تجاه الآخرين.

يكون العنصر الثاني، التقييم العملي أكثر صعوبة عندما يكون هناك تعارض بين قيمة الهوية التي تنادي بها «ج» وإعلاء القيم الخاصة من قبل شخص معين، سواء كانت هذه القيم لجماعة محددة أو قيما اجتماعية عامة. ولكي نتجنب سوء الفهم، لا أقصد لا يمكننا أن نجد قيمة في حياة أولئك الذين يعيشون وفقا لمعايير مختلفة عن عاداتنا وتقاليدنا. إذا أخذنا مثلا، المسيحية فنجد من الممكن للمسلم أن يُقيم ويحترم هذه الهوية الدينية المسيحية بينما يحمل قيمه الإسلامية في الوقت نفسه. فمن المرجّح أن يكون هناك الكثير من التداخل في الفضائل التي يجسدها الإيمان المسيحي مع قيم الهوية الإسلامية، وحتى مع أنه لا يرغب في اعتناق هذه الهوية الدينية. إن المسألة التي أطرحها هي لا يمكن أن يضمنَ هذا التقييم مقدما معرفة أيّ هويات معينة سندعو لتأييدها. إن تقييم أمر ما، هو الحكم بأنه يلبّي معايير معينة، حتى لو كانت هذه المعايير واسعة أو غير مرنة فلا نذهب، هنا، إلى أن مطلب الهويات الجماعية غير معقول أو غير مقبول تأييدا لرأي جارلس تايلور في كتابه «التعددية الثقافية».

ينبغي تطبيق الشيء نفسه على العنصر الثالث، التأييد العملي. فللموافقة على المطالب التي تقدمت بها الجماعة التي لا نجد لهويتها قيمة إيجابية، سوف يكون دعمنا لما هو أقل قيمة على حساب ما نعتبره أكثر قيمة، وهذا لا يمكن أن يكون أمرا معقولا. وحتى عندما تكون الهوية المعنية باعتبارها هوية ذات قيمة، فقد تبقى هناك صراعات على توزيع الحرية أو على تخصيص الموارد. هذا يعني أن ليس كل ما تطلبه الجماعة يمكن أن يكون مقبولاً من قبل من هم خارجها.

ما أود التأكيد عليه هنا هو النتائج العكسية المحتملة والخطيرة التي تثيرها سياسة الاعتراف في العلاقات بين الجماعات. يتطلّب التسامح من الجماعات ترك الآخرين أحرارا في ممارسة قيمهم الخاصة (في حدود معينة). وتتطلب سياسة الإدماج أن يتعامل المواطنون مع بعضهم البعض كمتساوين، بصرف النظر عن هوياتهم الجماعية. ولا تطلب من أيّ الجماعات أن تُقيّم الواحدة منها الأخرى فيما يتعلق بطريقة حياتها أو ممارساتها. تبحث سياسة الاعتراف عن مثل هذا التقييم الإيجابي، ولكن تحمل في طياتها خطر رفض هذا التقييم، وأيضا شبه اليقين بأن بعض السياسات التي تعتز بها جماعات معينة لن يكون لها دور عند إيجاد تسويات سياسية.

الهويات الجماعية والهوية الوطنية

قدمث لحد الآن ملاحظتين نقديتين حول سياسة الاعتراف. الأولى، يبدو أن هناك توترا شديدا، بل وربما تناقضا بين الاعتراف بالانفتاح وبين صيرورة وتحولات الهويات الجماعيّة في مجتمعات معاصرة والسعي لإبعاد جماعات معينة من النظام السياسي ومنحهم حقوق حرية الوصول للسلطة، وسياسة حق النقض التي رفضت من قبل جماعات أخرى. الثانية، لا يمكن ضمان الاعتراف السياسي -الذي يشمل التقييم الإيجابي والتأييد العملي للهويات الجماعية وليس مجرد فهمهم- مقدما وفي جميع الأحوال. فقد يكون من المستحيل على بعض الجماعات الاعتراف وتأييد بعض جماعات أخرى بالطريقة المطلوبة دون أن يكون هناك انتهاك لهويّاتهم الخاصة. قد يكون التسامح ممكنا، لكن الاعتراف ليس كذلك. إنّ سياسة الاعتراف عرضة لنتائج عكسية من خلال ما قد تتعرض له جماعات من رفض صريح ومباشر لم تواجهه حتى في ظل نظام سياسي أقل تسامحا.

سوف أنتقل الآن إلى القضية الثالثة والأخيرة والتي تتطلب منا النظر في العلاقة بين هويات هذه الجماعات والهويات الأكثر شمولية التي قد يحصل عليها الناس كأعضاء في المجتمعات الوطنية. هنا أود أن أبدأ بالتأكيد على أنه لا يصبح لسياسة الاعتراف معنى إلا إذا افترضنا أن هذه الهويات العامة (الوطنية) موجودة بالفعل من قبل. ماذا أن تعني لي، بوصفي عضوا في جماعة «ج»، إذ أن



علا الأيوبي

هويتي مسلّم بها من قبل أعضاء الجماعات أ-ص وض- ي؟ إنها قد تعنيني فقط إذا كان هؤلاء الناس الآخرون هم «مهمين» لي وأن تقديرهم لممارساتي وطريقة حياتي يؤثّر على إحساسي الخاص بقيمتها. نحن لا نطالب بالاعتراف من الناس الغرباء عنا تمامًا: كل ما نطلبه هو أن يتم احترام حقوقنا الأساسية، وبخاصة إذا تُركنا للمضيّ قدما في حياتنا بطريقتنا الخاصة. كما قلت سابقًا، إن الجماعات المستقلة التي تعيش بتقارب (مثل الطوائف الدينية في القرون الوسطى)، لم تطالب بالاعتراف بعضها ببعض بالمعنى الذي نتحدث به الآن، ولكن طالبت بتسامح بسيط. نحن نطلب الاعتراف من هؤلاء الذين حددناهم بالفعل كأعضاء في المجتمع الأكبر مثل الأمة؛ وبالمقابل، سنكون مستعدين لمنح الاعتراف فقط لأولئك الذين لدينا بالفعل هذه الرابط معهم.

تستحق هذه النقطة التأكيد عليها، لأن دُعاة سياسة الاعتراف غالبا ما يسعون إلى الحط من قيمة هذه الهويات الكبيرة باعتبارها مصطنعة من قبل الجماعات المهيمنة وعلى أعضاء الجماعات المضطهدة والمحرومة التبرؤ منها. أي أنهم يرون، أن فكرة الأمة الموحدة تتضمن فكرة وجود جمهور متجانس يستبعد الجماعات التي يراها منحرفة. ويترتب على ذلك أن «نظام الحكم العادل» ينبغي أن يكون متجانسًا بشكل جذري، فتقول يونغ «لا ينبغي تجاهل الاختلافات الجماعية..، ولكن يجب أن تكون مقبولة ومعترف بها علنًا، بل أكثر من ذلك ينبغي قبول الاختلافات الجماعية للأمة أو العرقية. كانت الدولة المثالية في القرن العشرين تتكون من تعددية أمم أو جماعات ثقافية، مع وجود قدر من حق تقرير المصير والحكم الذاتي المتوافق مع المساواة في حقوق وواجبات المواطنة». توصلت يونغ إلى هذا الاستنتاج، لأنها عادلت المثل الأعلى للوحدة الوطنية مع فكرة إجبار الأقليات الجماعية على التخلي عن ثقافاتهم المحلية من أجل استيعابهم في ثقافة وطنية واحدة. على سبيل المثال، في حالة السياسة اللغوية، فسرت يونغ سياسة أن تكون هناك لغة رسمية وحيدة لدولة تقطنها جماعات ذات لغات أخرى تنطوي على الإدماج القسري لجماعات لغوية أخرى، وأنها تعبر عن 'إبادة « لتلك

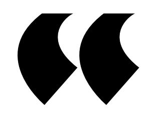
الأقليات الثقافية. لكن من الممكن تماما معاملة اللغة الواحدة كلغة عامة للدولة، وإلزام الجميع اكتساب الكفاءة في اللغة كشرط أساسي للمواطنة، مع الاعتراف في الوقت نفسه، بل التشجيع على تكون لغات أخرى هي اللغات الأولى لجماعات عرقية معينة. وهذا يوضّح المغالطة التي تتعلّق بالهوية الوطنية المشتركة على أنها تطبق ضمنًا التجانس الثقافي: فممكن أن تكون هناك ثقافة عامة مشتركة تُعرف الهوية الوطنية (يشمل في معظم الحالات لغة وطنية) جنبا إلى جنب مع تعدد الثقافات الخاصة التي تساعد على تحديد هويات الناس كأعضاء في جماعات (بما في ذلك ربما لغات الأقليات). على الرغم من أنه سيكون هناك نقاط توتر بين مجموعتين من القيم الثقافية، لم تقُل يونغ وغيرها من مناصري سياسات الاختلاف شيئا يذل لماذا مثل هذا التعايش مستحيل.

لا تسعى الجماعات الأقلية دائما وبكل الأحوال إلى تعزيز هوايتها الخاصة على حساب الهوية الوطنية المشتركة؛ بل على العكس من ذلك، غالبًا ما تحرص على تأكيد التزامها بالأمة من أجل استباق الاتهام أن الاختلافات الثقافية تجعل من أفرادها مواطنين غير أوفياء لهويتهم الوطنية على حد تعبير جون هارلس(في كتابه: السياسة في قارب نجاة المهاجرين والنظام الديمقراطي الأميركي). لكن لنفترض، وفقا لمنطق سياسة الاختلاف، أن على هذه الجماعات التخلّي عن انتماءاتهم الوطنية، وتعريف أنفسهم من خلال عضويتهم في جماعتهم حصراً. ماذا سيكون حال السياسة في دولة تتكون من هذه الجماعات؟ إن الأمر سيأخذ حتما شكل مساومات تستخدم كل جماعة ما لديها من موارد وإمكانيات متاحة من أجل تعزيز مصالحها المادية والثقافية. وبهذه الحالة لم يعد هناك أي سبب لجماعة أن تنظم إلى أيّ مطالب أخرى، إلا إذا مكنها ذلك من الحصول على بعض المزايا عند القيام بذلك. قد تلقى المناشدات من أجل المصلحة المشتركة أو التزامات العدالة آذانا صماء في مثل هذه الظروف، لأنه في حالة عدم وجود هوية مشتركة أو غياب الشعور بالانتماء، فإن كل جماعة تفسر هذه المناشدات على أنها مجرد قناع للمصالح ووجهات النظر التي تصنعها الجماعة الأخرى. باختصار، سيكون هذا في أحسن الأحوال، لمصلحة سياسة جماعة بعينها على راي سايبونش (في كتابه «بعض القلق من الاختلاف»).

ليس هذا نمط السياسة الذي يدافع عنه مؤيدو سياسة الاعتراف. إنهم يسعون إلى شكل من سياسة تقدم بها الجماعة مجموعة حقيقية من المطالب من خلال



تعتقد يونغ أن الاهتمام بالعدالة ينشأ من مطلب وهو أن تبرر الجماعات تفضيلاتها السياسية لجماعات أخرى ذات خبرات وتجارب مختلفة. وهذا قد يفضح محاولة تمرير المصالح الجماعية كمصالح مشتركة



حوار داخلي، ويمكنها أن تلجأ إلى معايير للعدالة تكون مقبولة من قبل الجماعات الأخرى للحصول على قبول لتلك المطالب وتسويغها. فكما تقول يونغ «في السياسة التحررية الإنسانية، إذا خضعت جماعة للظلم، على جميع المهتمين في مجتمع عادل أن يتحدوا لمكافحة القوى التي تمارس ذلك الظلم. علاوة على ذلك، إذا كان العديد من الجماعات يخضع للظلم، فإن عليهم أن يتوحدوا للعمل من أجل مجتمع عادل». وقد قارنت يونغ هذا النوع من السياسة مع مصلحة الجماعات المتعددة، والتي بموجبها «تعزز كل جماعة مصلحتها الخاصة بقوة وعلى أكمل وجه قدر الإمكان، وليس من الضروري النظر إلى المصالح الأخرى المنافسة في الساحة السياسية ما عدا الاستراتيجي منها، كحلفاء أو خصوم محتملين في سعيها ذلك. ولا تتطلب قواعد مصلحة الجماعات المتعددة تبرير مصلحة أحد كحق، أو كمتوافقة مع العدالة الاجتماعية. ومع ذلك فإن الجمهور غير المتجانس، يعتبر جمهوراً، بينما هو يشارك معنا في نقاش القضايا المعروضة عليه ليتوصل إلى قرار بشأنها وفقا لمبادئ العدالة».

وبناء عليه، يكون السؤال، إذن، ما هي الأوضاع أو الشروط التي يمكن أن يتوصل فيها جمهور غير متجانس إلى قرارات وفقًا لمبادئ العدالة. طالما لدى مبادئ العدالة المتعلقة بالأمر هنا جانبان، الأول معرفي والآخر تحفيزي: ما هي الظروف التي يتوصّل الناس بموجبها إلى اتفاق مرض حول مبادئ العدالة الاجتماعية من أجل أن تقودهم تلك المبادئ للوصول إلى قرارات جماعية؟ ما هي الظروف التي بموجبها سيكون هناك دافع الناس للتعامل مع احتياجات بعضهم البعض على أساس مبادئ العدالة وليس على أساس مصلحة المساومة أو بالطرق العنيفة لحل النزاعات؟

يبدو واضحا لي أن الجواب الكافي عن السؤالين ينبغي أن ينطوي على فكرة أن المجتمع الذي يشترك في أسلوب الحياة الذي يخدم كمصدر للمعايير الأخلاقية وأيضا كإطار يريد الناس الذين بداخله أن يبرر أحدهم للآخر قراراتهم استنادا إلى معايير العدالة. إذا كان اهتمامنا يتعلق في سياسة الدولة، فإن المجتمع هنا لا بد أن يكون هو الأمة أو الشعب، وعليه فإن الوطنية هي المؤهلة لتوفير الخلفية المشتركة المجدية والوحيدة التي تُمكن جماعات متنوعة من حل خلافاتها طبقا للمعايير المشتركة عن العدالة. فإذا كنا نريد تشجيع تنوع الجماعات ونفضل في الوقت نفسه السياسة الديمقراطية التي تهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، فإنه علينا القيام بترسيخ الهويات الوطنية بدلا من محاولة تبديدها.

تعتقد يونغ أن الاهتمام بالعدالة ينشأ من مطلب وهو أن تبرر الجماعات تفضيلاتها السياسية لجماعات أخرى ذات خبرات وتجارب مختلفة. وهذا قد يفضح محاولة تمرير المصالح الجماعية كمصالح مشتركة. إنه من المؤكد ضمان حضور الجماعات المستبعدة من المجال السياسي سيكون وضع مرغوب به بالنسبة إلى هذه الجماعات. لكن بشرط أن يوصلهم هذا الوضع إلى اتفاق ينسجم مع مبادئ العدالة كما يرى أم. اس. وليامز (في مقالته نحو عدالة للجماعات).

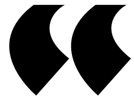
أما إذا كان هذا الوضع مفقودا فإن الجماعة المساومة سوف لا تقلق من هذا الواقع لأنها ستنخرط بانفتاح أكثر إزاء سياسة مساومة المصالح. يبدو أن يونغ تعتمد في بعض النقاط هنا على فكرة أغلبية تحالف قوس قزح من الجماعات المحرومة التي تعمل معا لانتزاع تنازلات من الأقوياء، ولكن يعتمد هذا مرة أخرى على ظهور التزامات ومعايير مشتركة للعدالة تربط هذه التحالف معا، وكما نعلم من خلال التجربة من غير المرجح أن يحدث هذا دائما، أو نادرا ما يحصل. فمواجهة جماعات أخرى لوجهات نظر ومطالب مختلفة لا تستلزم عدالة تلك المطالب. قد لا يكون أكثر من مجرد تأثير في انحياز جماعات بعضها لبعض. فإذا لم يتحلّ المواطنون بشعور الهوية المشتركة التي تتجاوز خصوصية هوياتها الجماعية فإن تحقيق العدالة الاجتماعية يبقى احتمالا بعيدًا.

لقد قدمنا هنا موقفا نقديا إزاء سياسة الاعتراف، وناقشت مسألة هوية الجماعات المفتتة والمقلقة في المجتمعات المعاصرة. إن سياسة الهوية في جوهرها هي دفاع ذاتي، لتأكيد الهويات التي لا يمكن أن يوفرها المجال السياسي بطبيعته؛ ولتشجيع الجماعات على تأكيد هوياتها المفردة على حساب الهويات الوطنية المشتركة، إنها تقوض الشروط التي تمكن الجماعات ولا سيما المحرومة منها من أن تأمل في تحقيق العدالة لمطالبها.

لا يعني هذا القول أن الجماعات والهويات الجماعية لا صلة لها بالسياسة. لقد كان هناك في الآونة الأخيرة قدر كبير من النقاشات للظروف التي تسوّغ للجماعات



إن تمثيل وجهات النظر كافة في المجال السياسي يُعدّ مما هو أساس في السياسة الجمهورية. لذلك تمثل القرارات التي تنبثق عنها إما بالإجماع أو على الأقل بتسوية عادلة بين مجموعة من الآراء السائدة في المجتمع



المطالبة بحقوق خاصة لها، لما يعانيه أعضاؤها من مصاعب نتيجة انتمائهم إلى الجماعة طبقا لرأي ويل كاميلكا (في كتابه: المواطنة والتعددية الثقافية).

لا أرغب في إجهاض نتائج هذا النقاشات، ولكن أشير إلى أن الحجج التي تساق لصالح الالتزام بحقوق الجماعة يمكن الحصول عليها عن طريق الاستعانة بمعايير العدالة التي يشترك فيها جميع المواطنين وعلى نطاق واسع والتي لا تختص أو تقتصر على أيّ جماعة بعينها. وهكذا يدخل أعضاء الجماعة الساحة السياسية في نظام الحكم الجمهوري، كمواطنين ويقدمون مطالبهم لا من حيث هويتهم الجماعة ولكن من ناحية المبادئ والسوابق المتجسدة في ممارسة المجتمع السياسية، ويكون متساوقا مع منح حقوق خاصة للجماعات الموجودة.

إن تمثيل وجهات النظر كافة في المجال السياسي يُعدّ مما هو أساس في السياسة الجمهورية. لذلك تمثل القرارات التي تنبثق عنها إما بالإجماع أو على الأقل بتسوية عادلة بين مجموعة من الآراء السائدة في المجتمع؛ يلزم عن هذا كما أشار أي. فيليبس (في كتابه سياسة الحضور)، أن اختيار أيّ نظام للتمثيل عليه أن يضمن حضور أكبر قدر ممكن من أعضاء كل جماعة في المجالس التشريعية والمنتديات السياسية الأخرى. وهذا يستلزم أيضا العودة إلى سياسة الاندماج، واستمرار معركة تحرير المجال العام من الرموز والممارسات والافتراضات غير المعلنة التي تمنع أعضاء بعض الجماعات من المشاركة كمواطنين متساوين.

هنا لا أقصد أن المجال العام ينبغي أن يصبح محايدًا ثقافيًا، فهو يعبر عن الهوية الوطنية المشتركة للمواطنين، وبالتالي أن يكون له البعض من المضامين التي قد تختلف من مكان إلى آخر. ولأن الهويات الوطنية في حالة تغير متواصل فالتحدي هو في إعادة صياغتها بطريقة تتقبل أكثر الأقليات الدينية والعرقية والجماعات الأخرى دون أن يؤدي ذلك إلى إفراغها من محتواها وتدمير أسس السياسة الديمقراطية.

كاتب وأكاديمي من العراق مقيم في اسكتلندا

كيف صار اليسار الغربي حليفا للإسلاميين

فرنسا نموذجا

حميد زناز

أصبحت مواقف اليسار تجاه الأصولية في فرنسا وتحليلاته سخيفة بعد اعتداءات باريس وبروكسل. ما عدا اليسار الغارق في ملائكيته الساذجة، لقد بات واضحا للجميع أن المشروع الأصولي المعدّ لزعزعة فرنسا بغية أسلمة المناطق المأهولة بالسكان المنحدرين من الثقافة الإسلامية هو حقيقة وليس وهما. ولا داعي للتذكير بأن اليساريين يقدمون أنفسهم دائما في طليعة اللائكيين حينما يتعلق الأمر بالديانة المسيحية ولكنهم لا ينبسون ببنت شفة وهم يرون الإسلاميين يحتلّون ضواحي المدن الكبرى في فرنسا ويهددون العيش المشترك فيها والقيم الجمهورية في البلد كله. أنتم الذين تزعمون الكلام باسم الشعب قلت يوما لسيناتورة شيوعية كيف تخافون من انتصار اليمين المتطرف ولا تكترثون كثيرا بما قد يلحقه الأصوليون ببلدكم فرنسا؟

نحن لسنا عنصريين سيدي، قالت وأضافت متعجبة: أنت عربيّ وتفكر هكذا؟

بجملة واحدة، لخصت السيدة السيناتورة ما يدور في أذهان وتفكير هؤلاء الذين يحترفون معاداة الفاشية: العرب بالنسبة إليهم محكوم عليهم أن يكونوا مسلمين وينبغي أن تتعامل معهم الجمهورية على أنهم كذلك. وهي أحسن طريقة لركنهم في انعزالية معادية لكل اندماج في المجتمع الفرنسي. وفي رأيي ليس هناك من عنصرية أوضح من هذا.

«لا أعير أدنى اهتمام لما يسمّى أسلمة»، هكذا قال لي الشيخ الشيوعي الذي يرافق السيناتورة. وهو بالضبط ما قاله ليونيل جوسبان سنة 1989 للصحافية الفرنسية إليزابيت شملة، حينما كان وزيرا التربية «أن تتأسلم فرنسا، لماذا تريدين أن يهمني ذلك أو يؤثر فيّ؟ قد يقول قائل ربما قد تكون تلك مجرد ردود فعل آنية!».

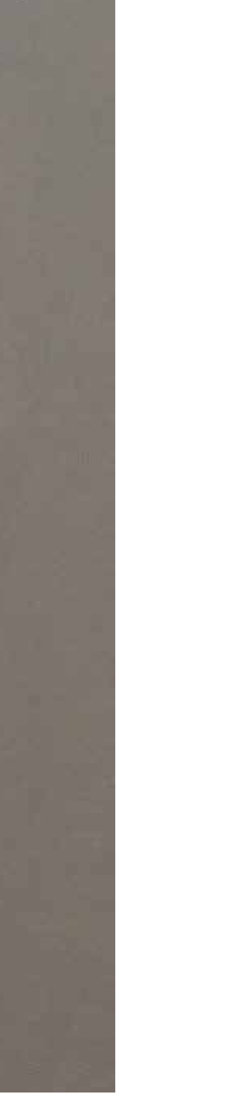
لا أبدا.. لننظر إلى الواقع كما هو.. هناك فعلا أسلمة على الأرض وليس مجرد أوهام اختلقها اليمين المتطرف العنصري بهدف تأجيج وإشاعة الخوف من الإسلام والمسلمين كما يريد أن يوهمنا الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي رفاييل ليوجيه في كتابه المعنون «أسطورة الأسلمة/ محاولة حول وسواس جماعي» الصادر سنة 2012. وكذلك أوليفيه روا ونيكولا تريونغ في كتابهما «الخوف من الإسلام» المنشور سنة 2015. فهل هناك صعود للإسلاموفوبيا في فرنسا كما يدّعي هؤلاء؟ هل هناك خوف مرضيّ من الإسلام؟

على عكس ما يدّعي بعض اليساريين المخاتلين هذا الخوف من الإسلام ما هو سوى كذبة. في حقيقة الأمر هذا الخوف الوهمي هو حيلة إسلاموية تهدف إلى إعطاء صورة خاطئة وخادعة عن وضعية المسلمين في فرنسا. فكلمة إسلاموفوبيا هي كلمة/فخ يتاجر بها أعداء العلمانية الفرنسية اليوم. هي مجرد كلمة تضليلية تقدم صورة مشوّهة عن وضع المسلمين في فرنسا كأنّ البلد أصبح مذبحة للمسلمين والعرب. استغلّ الإسلاميون الجو الديمقراطي وسذاجة بعض الفرنسيين وعقدتهم الكولونيالية لتمرير بعض الكلمات إلى الخطاب الإعلامي والسياسي، أقلّ ما يقال عنها إنها تضليلية. من أنجح هذه الكلمات لفظ «إسلاموفوبيا» التي يعمل كثير من المتلاعبين بالعقول على فرضها وإدخالها إلى قاموس اللغة اليومية وقد نجحوا نسبيا. والهدف مزدوج: أوّلا ليتسنى للإسلاميين الضغط على المؤسسات من أجل افتكاك حقوق فئوية (مسابح وقاعات رياضية غير مختلطة، فرض الحجاب والنقاب، تجريم فقدان العذرية)، وثانيا ليتمكّن أعداء العلمانية الفرنسية من الدفاع عن لائكيتهم الجديدة مستغلّين الفوضى المفهومية المفتعلة.

لا يستقيم الحديث عن خوف باتولوجي من الإسلام في فرنسا إذ لا يمكن أن تجد بسهولة في هذا البلد إنسانا مكوّنا تكوينا طبيعيا يكره المسلمين لكونهم مسلمين أو يكره الإسلام مجانا. حتى الأقلية العنصرية لا تجرؤ على إظهار ما يختلج بدواخلها من أحقاد. ففضلا عن وقوف القانون بالمرصاد لكلّ من تسوّل له نفسه الاعتداء على الغير، تجد الأفكار العنصرية مناهضة من المجتمع المدني الفرنسي. في هذا البلد إرادة لجعل الإسلام يتمتع بمكانة مساوية لكلّ الديانات الأخرى، وهذا طبيعي في إطار العلمانية الفرنسية، ولن يستطيع الإسلاميون أن يغيروا شيئا حتى ولو استعملوا أبشع الطرق البربرية، كما فعلوا في حق صحيفة شارلي إيبدو حيث أطلقوا النار على المسلمين في فرنسا وكل العالم.

ولئن كان الإسلاميون العنصريون ينعتون هذا بالضالّ وذاك بالكافر المغضوب عليه عبر وسائل الإعلام ومختلف المواقع الإلكترونية دون أن يلاحقوا قانونيا، فإنّ إخوانهم في كره الآخر سرعان ما يجدون أنفسهم متّهمين في المحاكم و«مبهدلين» أمام الرأي العام بمجرّد محاولة التعبير همسا عن كرههم للآخر.

تنبغي الإشارة إلى أعداء العلمانية في



فؤاد حمدي

فرنسا ليتضح الأمر: أولا: الإسلاميون بغية ممارسة الضغط على السلطات العمومية الفرنسية من أجل فرض التنازلات عليها في الأمد القصير ومحاولة تطبيق ما تسميه شريعة في الأحياء المأهولة من طرف أغلبية مسلمة في الأمد البعيد.

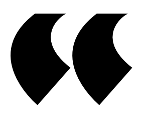
ثانيا: المنادون بما يسمونه «العلمانية الإيجابية» والذين يتسترون وراء كلمة إسلاموفوبيا ليحضّروا الميدان لعودة المسيحية للفضاء العام.

ثالثا: الحمقى الذين يعتقدون أن الإسلاموية حركة ثورية يمكن أن تكون حليفا لهم في صراعهم مع الرأسمالية ولكن هؤلاء ينسون أن الاتكال على الإسلاميين في إسقاط الرأسمالية هو الغباء بعينه.

ونظريا لا يمكن القول إن معظم مسلمي فرنسا هم ضد العلمانية! ولكن من يجرؤ على مصارحة المسلم الفرنسي أو الذي يعيش في فرنسا اليوم أن دينه يجب أن يبقى روحانيا لا يتعدّى المجال الشخصي، بعيدا عن الفضاء العام حسب ما تقتضيه مبادئ العلمانية الفرنسية؟ ألا نستنتج من كل استطلاعات الرأي في الموضوع أن جلّ المسلمين في فرنسا لا يرون الإسلام إلا كمنظومة كاملة «دين ودولة» كما تقول العبارة الشائعة؟ هل تعلمين أن شعار «القرآن دستورنا» الذي أطلقه الإخوان في العشرينات من القرن الماضي لا يزال يرفع اليوم في فرنسا ومن طرف رئيس «اتحاد الجمعيات الإسلامية في فرنسا» السابق الحاج تامي بريز الذي ردّد مرارا «القرآن دستورنا وهو الذي ينظم حياتنا». أما عمار لصفر فيقول حينما كان إماما لمسجد في مدينة ليل ورئيس الرابطة الإسلامية لشمال فرنسا فقال بالحرف الواحد «مفهوم المواطنة غير موجود في الإسلام. يوجد فقط مفهوم الأمة المهم جدا إذ الاعتراف بالأمة هو اعتراف بالقوانين التي تسيّرها». واسمعي ما يقول اليوم بعد أن أصبحت الشكوك تحوم حول الإخوان بعد هجمات باريس ونيس ولاحظي كيف يمارس تقية الإخوان باحترافية عالية وهو على رأس اتحاد الجمعيات الإسلامية المذكور سابقا و»لا نريد الوصول إلى الحكم. شريعتي هي قوانين الجمهورية. شريعة المسلمين في فرنسا هي قوانين الجمهورية». والمتابع لنشاط الجمعيات الثقافية والشعائرية الإسلامية في فرنسا يلاحظ أنها لا تخرج عن منطق الأسلمة فهي تعمل بطريقة صريحة أو ضمنية على غرس في أذهان المسلمين المطالبة بافتكاك الاعتراف بالإسلام كدين وكطريقة حياة والحق على سبيل المثال في نسبية ثقافية تتيح لهم الزواج والطلاق والميراث على الطريقة الإسلامية. بكلمة واحدة يريد الإخوان ومن يدور في فلكهم سجن العرب والأمازيغ في إقامة دينية جبرية.



لا يمكن القول إن معظم مسلمي فرنسا هم ضد العلمانية! ولكن من يجرؤ على مصارحة المسلم الفرنسي أو الذي يعيش في فرنسا اليوم أن دينه يجب أن يبقى روحانيا لا يتعدّى المجال الشخصي



وشخصيا لا أسمح لأحد أن يحدد هويتي بجزء من ذاتي سواء كان حقيقيا أو مفترضا إذ اعتبار البشر ككائنات محددة عن طريق ماهية ثقافية راسخة لا تتغير هو اعتداء على المواطنية.

فما العمل إذن لضمان العيش المشترك في فرنسا أمام الانعزالية المتصاعدة بين صفوف المسلمين في فرنسا؟

ينبغي رفض الرضوخ لأيّ مطالبة بقوانين استثنائية مهما كان مصدرها. أليس من واجب الجمهورية أن تحمي الفرد حتى من سطوة جماعته الدينية أو الإثنية؟ عندما نترك للمشعوذين نشر أخطر الأفكار فنحن نفتح باب الإرهاب والحرب الأهلية وهو ما يحدث في أغلب بلدان الغرب. في يوم من الأيام تفاجأت بوجود كتاب في متناول القراء الشباب باللغة الفرنسية في إحدى المكتبات البلدية بفرنسا العميقة لا يختلف عن كتاب هتلر «كفاحي» في خطورته هو كتاب «الجهاد في الإسلام» للمودودي الباكستاني منظّر الأصولية الإسلامية! ودون الخوف من الكلمات سأقول دون لف ولا دوران إن في دواخل كل مسلم يعيش اليوم في فرنسا تشتعل شبه حرب شجعها الإسلاميون واليساريون بمختلف طوائفهم عن طريق خطاب ديني في غاية التخلف وخطاب غبي يدّعي مناهضة العنصرية، بل يمكن الحديث عن حرب حضارات دائرة في بواطن أغلب المسلمين، حرب بين إيمانهم والحداثة التي تحاصرهم من كل جهة.

يجب على هذا اليسار أن يفهم أو يعترف بأنه لا مجال لتغليط الناس فالديمقراطية وحقوق الإنسان والمرأة وحرية امتلاك الجسد وحق الإيمان وعدمه وحق تغير الديانة.. ليست قيما تتناسب مع الإنسان الغربي فقط بل هي كونية ولا يمكن لأيّ ديانة تحقيقها بما فيها الإسلام.. أهم مشكلة يعاني منها اليسار الفرنسي والأوروبي عموما هو عدم فهمه لجوهر الظاهرة الدينية لسبب بسيط هو أن أوروبا قد أبعدت الدين من تسيير شؤون المدينة منذ ثلاثة قرون. ومن هنا فاليسار وحتى بعض اليمين لم يفهم بعد بأن حرية الضمير والحق في التفكير والتسامح واستقلالية الفرد والمساواة بين الجنسين وغيرها من المسائل لا يمكن أن تحل في إطار الدين. هذا اليسار وربما بحسن نية يعتبرنا غير ناضجين بعد لا لتبني العلمانية ولا الديمقراطية.

كفرد يستحق المؤمن كل الاحترام في بلد ديمقراطي ولكن حرية الرأي والتعبير تقتضي أيضا أن يخضع الجهاز الأيديولوجي الذي ترتكز عليه المرجعية الدينية إلى المساءلة النقدية أم ينبغي السكوت كما يفعل اليسار بدعوى عدم تقديم حجج إضافية لليمين المتطرف المتربص؟ شخصيا لا أريد أن أكون رهينة الظرف الفرنسي الموبوء بالخوف من تهمة الإسلاموفوبيا. ولن أساير هذا اليسار المتنكر لقيمه والذي يواصل إنكاره السياسي الساذج للمسألة الأصولية في شعار سطحي لا علاقة له بالمعرفة مفاده أن «لا علاقة للأصولية بالدين الإسلامي».

وقد ذهب بعض المثقفين بعيدا في تحليلاتهم حينما حاولوا تقديم تبريرات للعمليات الإرهابية الجهادية نذكر هنا على سبيل المثال المفكر ميشال أونفري الذي يقول بأن فرنسا والغرب في حرب أعلنها جورج بوش متناسيا أن 3000 أميركي قد قتلوا في اعتداءات 11 سبتمبر. ويعتبر أنه مثلما تقتل داعش الناس الأبرياء، ففرنسا تقتل الأبرياء أيضا، فالغرب وداعش عنده سيان، برابرة ضد برابرة!

أما مواطنه طوماس بيكيتي عالم الاقتصاد الشهير صاحب الكتاب الضخم ذائع الصيت الصادر أخيرا «رأس المال في القرن الحادي والعشرين» فقد اعتبر بعد اعتداءات باريس أن عدم المساواة في فرنسا هو سبب نجاح داعش والأصولية بصفة عامة. وأظن أن هذا العماء يمس أغلب مثقفي أوروبا، ألم يصف الفيلسوف الألماني بيتر سلوترديك أحداث 11 سبتمبر الدامية بأنها مجرد «إزعاج بسيط»؟ أما المتفلسف النيو-ماركسي السلوفيني سلافوي جيجك فيرى أن الأصولية الإسلامية قد تبدو ربما رجعية ولكن قد تكون أيضا مجالا يمكن أن تنطلق منه شكوك نقدية إزاء مجتمع اليوم. ويضيف غير خائف من سخرية الواقع من هذيانه أن الدين غدا فضاء المقاومة.

ويذهب البرتغالي جوزيه ساراماغو صاحب نوبل للآداب سنة 1998 مذهبا تافها حينما يعتبر أن قذف طائرتين على البرجين في نيويورك يمثل ثأرا ضد الإذلال. أما الإيطالي داريو فو صاحب جائزة نوبل للآداب أيضا سنة 1997 فقد صرح عقب أحداث سبتمبر «يختفي المضاربون بين ثنايا اقتصاد يقتل كل سنة عشرات الملايين من الناس فقرا، فما أهمية 20.000 قتيل بنيويورك ولا يهم من كان وراء المذبحة، فهذا العنف هو ابن شرعي لثقافة العنف والجوع والاستغلال اللاإنساني.» وهو انتحار طبيعي للديمقراطية الرأسمالية في رأي هؤلاء الذين ينظرون إلى الإرهاب كتمظهر لغضب البطالين ويعتبرون الكلاشنكوف «سلاح الفقراء»، سلاح البروليتاريا الرثة التي سحقتها غطرسة العولمة الغربية! ومنذ جريمة 11 سبتمبر في أميركا ووصولا إلى المذابح المرتكبة على الأراضي الأوروبية الأخيرة قدّم المثقفون اليساريون المقتولين والمجروحين كمجرد ضحايا جانبية للحرب الدائرة بين «النظام العالمي الجائر» والمعذبين في الأرض الذين يطالبون بحقوقهم.



الديمقراطية وحقوق الإنسان والمرأة وحرية امتلاك الجسد وحق الإيمان وعدمه وحق تغير الديانة.. ليست قيما تتناسب مع الإنسان الغربي فقط بل هي كونية ولا يمكن لأيّ ديانة تحقيقها



وتبقى قائمة التائبين عن العالمية العائدين إلى ذهنية الاستشراق طويلة جدا. هم يعيشون اليوم شبه ردة وتقاعس واضح أمام صعود الحركات الإسلامية المتطرفة ثم الإرهابية المتفشية في أوروبا ذاتها. ولكن أليس هم الذين شجعوا الانعزاليات الثقافية في الغرب؟ ألم تتغير نظرتهم للمرأة وحقوقها تحت ضغط وتهديدات الأصوليين الإسلاميين ومراوغاتهم إذ كانوا ينادون بعالمية تلك الحقوق لتشمل كل نساء الأرض وأصبحوا اليوم يروجون لنسبية ثقافية تؤبد الظلم وعدم المساواة بين الرجل والمرأة خارج الغرب بل في عزّ الغرب حينما يتعلق الأمر بنساء ينحدرن من ثقافات غير أوروبية. والأدهى والأمر أن بعض المثقفين اليساريين قد أقنعهم طارق رمضان وغيره من الإخوان أن من ثقافة المسلمين اللامساواة بين المرأة والرجل وكذلك ارتداء الباروكة والانعزال وغيرها. وبتنا نرى بعض زعيمات الحركة النسوية الأوروبية والأميركية يمارسن خطابا لا يختلف كثيرا عن خطابات أعداء تحرر المرأة. لقد انخرطن في ذلك التيار من اليسار الذي وصل إلى القناعة بعدم إمكانية تغيير العالم فبدأ يطالب بضرورة قبوله كما هو والتحاور مع الجميع وغض الطرف عن المصاعب والحقائق المزعجة. تقف عوائق نفسية ومعرفية ومنهجية كثيرة أمام فهم اليسار بصفة عامة للمسألة الأصولية وهي عوائق كثيرا ما أضلت أغلب الغربيين سواء السبيل وجعلتهم يعجزون عن إدراك ما يحدث فيتصرّفون ضد مصالحهم وإن لم يشعروا: لقد تحول التنوع الذي كانوا ينشدون إلى كابوس أصولي يقض مضاجعهم.

كاتب من الجزائر مقيم في باريس





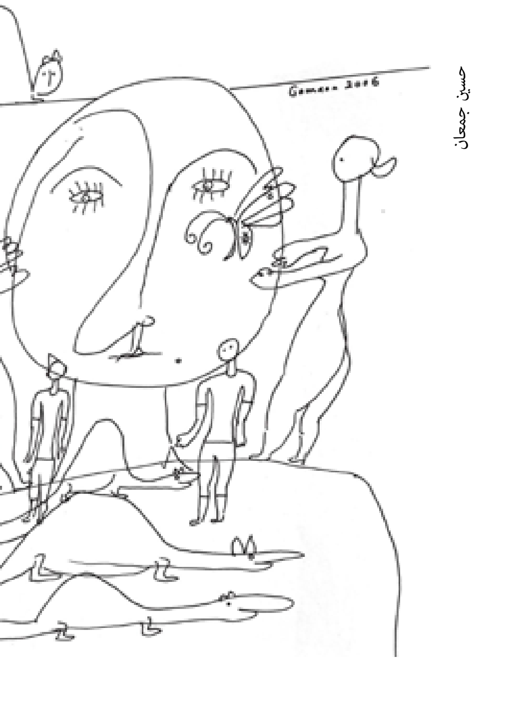
قصيدتان

محمد الأشعري

لوعة الحجر

الحَجر وحده
يعرف عبء الساعات التي تمر
دون أن تجعله يشك
أَو تُنْقذ شيئاً مِنَّ الأبدية.
هُناك في هذا المَشْهد البركاني
شيء يحتاج إلى تعديل بسيط
ليصبح للكلمات
شكل حمم يزحف على الخليقة.
والشيء لا يعرف أحَدٌ
ما إذا كان حجراً
لفظته النيران
أو شظية من كوكب قديم
والساعات تنصب بعقاربها فخاً للحجر
والحجر عصفور حذر لاَ يسقط في الفخ
ويَرَى الجبل يلفظ أحشاءه
ويراه أصغر منه
ربما يجرفُه في زفرة واحدة
ولكنه أصغر منه
وأبطأ كثيراً في فهم العالم
ولا يعرف عِبْءَ الساعات التي تمرّ
وتترك خلفها أحجاراً عَسَلية
كفواكه جافة
خرجت من أحشاء الصيف.
***

هذا هو اللَّيْل
أي
المدينة تشعُل مصابيحها على الإسفلت
والموانئ تشرب وحيدة
وتنام في خوف المبحرين
هذا هو ليل الفرصة الضائعة
والجذل الذي
من شقاء الخاسرين
العربات التي ترش أضواءها
على الموتى
تروحُ وتجئ
بطيئة ليتأكد أصحابها
أنه لا يوجد شخص يعرفونه بين الضحايا
وحتى لو تأكدوا من وجود أحد
فإنهم لن يتوقفوا.
المساء ما يزال طويلاً
والْمَسافَة بين الضوء والخوف
ما تزال شاسعة
والليل ليس ليلاً..
إنه حطب دامس
تلمع فيه عيون الضواري
وتمنح فيه نمور قلقة
حريرها
للعائدين من الحرب.
***



تأسرني الأشياء
عندما أخسر الحرب
أقصد
كل هذا المتاع الذي أقف به
على قارعة الطريق
وفيه كتب متربة
ومدن منسية
وشوارع وأصوات
وأوتار مبحوحة.
أي انتصار سخيف أردت كسبَه
من حرب غير متكافئة.
وأين يكمن العدو؟
أين تمضي الفلول التي تعوزها شهوة القتل؟
وأين نضع السلاح الذي غنمناه دون رغبة
وأصبح يعوق عودتنا من الجبهة؟
تأسرني الأشياء التي اقتسمت مَعِي.
محنة العداوة
أراها مبعثرة حول أَسِرَّتي
كعلب فارغة
أمشي بينها
كما يمشي الناجون من الزلازل

بلا رغبة في اسْتِعادة أي شيء
سِوى تلك السكينة التي سبقت القيامة.
أرَاها في انتمائها العميق إلى وجودي
إنها ملابسي
وأوراقي
وصوري
ومنحوتاتي
التي انتزعتها من ثمن السندويتش
أثناء أسفاري الشحِيحة
كل هذه الأشياء لها اسمي وملامحي
ولي ورطتها أَن تكون لي،
وليس لشخص يَذْهب سَعيداً إلى المقصلة.
هي الآن تعرف، من مشيتي
أنني مقبل عَلَى ارتكاب خِيانة مَّا
أَو موشك على رحيل يبترُها مِنِّي
وتجزع كثيراً
تخاف من عبور مفازة اللاَّإسم
واللاَّملامح..
ومن الذهاب في عربات الأشياء الضائعة
ومن الوقوع في براثن البدء من الصفر
أتأمل هلعها

وأُقدّر أن الاندثار هو طريقتها في البكاء
طريقتها في استئناف المسير بدوني
في حرب غير متكافئة
بين عبوري وبقائها..
هنا
في ضفة القوارب المحروقة.
***
أسمعه قريباً
ذلك السيل
الذي يدنو
كأنه أحصنة مُروَّعة.
منذ زمن بعيد أسمعه
كما لو كنت أسمع البدايات التي أنبتت الجبال
والضفاف والحجارة
كلما امتلأت روحي بخواء المسافات
سمعت الهدير قادماً
فقلت إن الخرائط كلها ستموت حتما
بما فيها خرائط الحيرة التي أذرعها
جيئة وذهابا بانتظار موت المتاهة
وستبزغ ملامح طرية
من الطوفان الجديد.
غير أن الهدير وحده يدنو
وليس الماء
وَلاَ الفورة الهائجة التي تقتلع الأشجار
والأمكنة
يصل الهدير وحدهُ ممتلئاً بأجنحة الموتى
يَدُسّ زرقة السماء في جيوب معطفه
ويغرس خطوه كجسور معلقة
بين السماء والأرض.
أحياناً
أسمع ترجيعاً شبيهاً
بلوعة سوبرانو
تنفصل عن الهدير
وتُحلِّق قريباً من أغصاني الطافية
أسمع الصوت
وامتداده الأعمى
أسمع سقوط الورقة الوحيدة
التي بقيت في شجرة الحياة.
وعند ذلك أقول لنفسي
لاَ أحد يسمع ما أسمعه!
أنا الذي اختارته المجرة
لاستقبال نشيدها الأبدي
إنني مقبل على مملكة الصمت العظيمة
ممتلئاً بقُدّاسَاتٍ عارمة
ومشتبكاً بالسيول
التي تنهض من الحجارة
كلما اقتربتُ من صوت الماء
هبّت للقائي أشجار دفلى
وثعالب مذعورة
وعصافير مَرِحة.
أتوقع عندئذ أن تتبقى
لي من هذا التوتر
قشعريرة أعبر بها
جِسْر الرذاذ
هنا، يتوقف الجَبَلُ
عن أن يكون
جبلاً
يجلس منهكا إلى النبع الذي
يغسل قدميه..
ويتأمل طرقات بَذرتها تحت قدمي
ثم صارت نسيجاً واهياً
من الأسفار المجهضة
أتذكر الشجرة الأولى التي وقفت في طريقي
كانت نحيفة، كثيفة، غامضة
كأنها شجرة القصائد المحرّمة
تلك التي يأكل منها الشعراء الملاعين
لِيَتَحَوَّلُوا إلى عَصَافير بلا أجنحة
أتذكر الأعشاب التي أرضعتني لبن الفتنة
وضفرت شعري بأزهارها الفاقعة.
لا شيء كان سيمنعني من البقاء هناك
لكنّ الخطى لم تكن خطاي
سمعت الصوت يصعد من المشي
أو من الممشى
أو من شذى جَسد يحترق
ثم رأيت الجبل ينفصل عنّي
كأنَّه يبتر من نفسه حجراً
ويحلق خفيفاً نحو الأعالي.
هل كانت القرية في ضاحية منسية
أم في سفح جبل مضاء بأشجاره المغسولة.
هل كان الوقت غروباً
أم غسقاً ملتبساً
وهل كنت أشرب هواءً بارداً
عندما مشيت في حديقة وَضَعْتهَا تحت قدمي
وأنشأتِ فيها ساقية ونشيداً
يمجد انبثاق الشمس
من عودتنا إلى السرير؟
أسأل نفسي
عندما يباغتني نبيذ تلك الليلة البعيدة
هل كان عبوراً
ذلك الشذى المحروق
لأعشاب الفجر
ومن كان يمشي على الجسر
عارياً
وشعره في الريح
أنتِ أم شجر الحور
أم ورقة بيضاء
هربت من كلماتي؟
مَا أخف تلك الورقة!
أراها متحررة من لغة ثقيلة تتربص بها
ترقص بين الأشجار
كأنها تدعوني
للتخلص من كل أبجدية
عندما أراك منحوتة في الإفاقة الأولى
ترفضين الخروج من قطن اللحظات
التي ماتت لتوها
كنت سأكتب عندئذ:
«إنك تشبهين المرأة الزرقاء في لوحة بيكاسو»
ثم انتبهت إلى أثوابك الصغيرة
مبعثرة
وإلى الفراغ الأبيض الذي تركه جسدي
وقلت إنها زرقة بحر يغمرنا
ليس أنت، وَلاَ جذل الإضاءة
إنها مسافة أخرى تولد
في ذهول الإفاقة
مسافة الأبواب التي ستقفل على قصة قديمة
ومسافة الصمت الذي يشرب الطريق
في جرعات صغيرة متوترة
ومسافة الحجر الذي يبني جملاً طائشة
للهروب من البكاء.
عندمَا أتهيأ للعودة من عطشي
ألمح سراباً كثيراً حول مقلتيك
لأنّ الصحراء التي نبتت من بَثْرٍ ساذج
سرعان مَا استعادت سلطتها عَلى
البلاغة
فلا الماء جملة أولى
وَلاَ المرايا منابع بكماء
وَلاَ التيه مجاز للإقامة.
يزحف الرمل كما يزحف نداء مبحوح
ليوقظ الزواحف من بياتها
ويبذرها في الهواجر المصفاة
إلا مِن شظايا سقطت من القصائد
كما تسقط بقايا



كواكب ميتة

***

هذه سبيلي..
أغتاظ أحياناً لكلّ هذا الخطو الذي ضيعته
في رحلة ميتة
ولكنها سبيلي
سأمشي فيها باستماتة قاتل يهرب من المطاردة
سأمشي كما تعلمتُ
بقدمين من طين نيء
تتركان خلفهما
كل تشققات العالم
فإذا وصلت إلى الحائط الكبير
حيث تنمو للحجارة رُموش خضراء
فسأقدم منتشياً على حماقتي الأولى
وحيداً
وجها لوجه
مع الحائط الذي يفهمني.

***

البحر وضعني هنا
حيث أنا
في القناعات الصغيرة
في الخوف من الماء
في نصف ابتسامة
تعبر المحيط
في الشراع الذي أخذته العاصفة
كلّما مشيت معه أحلم أنني
أقود حصاناً مرناً إلى المراعي
أحس لهاثه قريباً
يكاد يلفح كَتِفِي
وأسمع نبضه
يصفف أمواجاً مالحة
كأنه يضعها لآلِئَ دمع على وجنة الأرض.
ثم فجأة يصبح الحصان أبدية بيضاء
تَتْبَعُني
أنا العابر المقيم
في روح عابرة
سنذهب إلى ما تبقّى من مراكب المغامرين
وإلى الأراضي التي لم تَلِدْهَا البراكين بعد
سنذهب إلى معابر الغرباء
حيث تهجع بواخر الإنقاذ
جنباً إلى جنب مع أرواح الغرقى
سنذهب إلى المرافئ التي سقطت
في حروب المواقع
وربما انتظرنا طويلاً في طوابير يفترسها الشك
قبل أن يمرّ أَحَدُنَا
إلى حُلْكَةِ الآخر.
ثم ماذا سيبقى لنا
عندما يحين وقت الفصل
من سَيَتَولى أَمْرَ هذه الشساعة
التي بعضها كلمات
وبعضها ملح أجاج
من سيخرج الحصان مرة أخرى في نزهة عابرة.
ها أنا أجلس إلى الزبد
الذي تخلّف عن مدّ البارحة
هو أيضاً وضعه البحر هنا
حيث يقضي آخر لحظاته
قطرة عدم صافية.

أجنحة الموتى

ماذا أفعل باليوم الذي وضع حقائبه
على ظهري
واتكأ إلى حائط المبنى القديم
ليبدأ البحث في شاشته الثقيلة
عن كائن مَرَّ من هنا؟
ولو وَصَلْتُ إلى أمكنة أليفة



تظللها الأشجار
ومشربيات تلعب بالريح
فماذا سأفعل بيوم قائظ
ليس فيه يوم
وَلاَ ساعة فاسدة
تظلّ ميتةً على سكة الحديد؟
ماذا سأفعل بالطرقات
التي تمسك بيدي
وتقودني كطفل تائه إلى عشّ مهجور.
مَاذا سأفعل
بالعناوين في جيبي
والقصائد المثلومة
والمظلة التي تتوقع مطراً لا يجيء.
مَاذا سأفعل بالمشاعر التي نَسيتها
في ثلاجة مطفأة
وبما تبقّى عالقاً بوجهي وملابسي
من الورد الذي ألقيت به
من نافذة القطار
وبالسَّفر الذي أكلته الأعطاب؟
مَاذا سأفعل بروحي
تَملأُها فجأة صناجات البوليرو
وترجيعات ناياته الشبيهة بأقواس المسجد الكبير
ماذا سأفعل بالقرية
التي يَغْصِبها غزاة يخرجون من قصائدي
فتهرب معي إلى الحانات والمراثي
وتنتهي في سرير لن يتذكّر من أمرنا
سِوى ارتطامي بجسم غريب
ها هي المدينة تحت مطر غزير
ترى ألوان فستانها تسيل على الأرصفة
وتسمعني أردد
ماذا أفعل.. ماذا أفعل
والأشياء التي أتساءل عَمَّا أفعل بها
تتبعني كقطط جائعة
وتسخر من هيأة النبي الذي بلا نبوءة
سوى افتراض معجزة تنهض من الرماد
ودعوة حمقاء
للبقاء طويلاً
في السرير الخاوي
قدر ما يَتَحَمَّل البياض
جسداً مبقوراً
لا يستجيب للحب.
إليك أيتها المدينة
شيئاً تفهمين به هذا الوجع الجديد.
انظري في راحتي حيث يتجمّع السواد
في شكل عين وحيدة تَرَى لحسابها الخاص.
إنها عين الحجر الذي ينزل بي لقاع البحيرة
عين الجدار الذي يصعد من رموشي إلى
سطوح البنايات

ومآذن المساجد
ويبسط تحت سماء زرقاء
غيمة من حجر.
إنها عين الكائن الأسطوري
الذي اصطدته بِهاتفي الذكي
وأرسلته خلف نَوايا تجري أمامي
كطرائد مفزوعة.
مَا أكثر مَا مشيت وحيداً
في هذه الشوارع التي تمنحينها لي
خاوية إلاَّ من أجنحة الموتى
وانتظرت وأنا أعبر الجسور والأنفاق
وأرقص متهوراً على سكة الترامواي
أن يصلني شيء
من المرثيات اللذيذة لعيني الوحيدة
عين الوحش الذي ترفضين أن
تلقميه ثديك
فيحشر جوعه بين أصابعي.
مَا أكثر مَا جمعت من بقاياك
أشلاء
وذرات رمل
وحروفاً مُهَشَّمة
دون أن أنجح في إعادة
تركيب مَا فقدته منك..
***
المساء يمنحني مقعداً جنب النافذة
هكذا أدرك أنني لم أعد في الشارع
لم أعد أمشي خفيفاً على مربعات الممشى
أبحث في الوجوه الكثيرة التي تمرّ بي
عن وجه يشبهني.
أنا الآن في مربّع الفرصة الأخيرة
أحرك الستارة لأرى شجراً يسهر رغم أنفه
تحت مصابيح المدينة
لأرى العصافير تدخل رؤوسها تحت أجنحتها
بحثاً عن ليل مستحيل.
الآن ستبدأ الأشياء تحللها
في تلك الوهاد السحيقة التي تركت عندها
لغتي وملامحي
حيث نساء ساحرات يلبسن الحداد
ويركضن بين خرائب الذاكرة
وذئاب ترتّب عودتها إلى البراري.
لاَ شيء سيبقى في المكان الذي نَحَتُّه بأظافري
ونَقَّيته من كل مَا ليس مكاناً
وَلاَ لوعةً
وَلاَ شذى.
ستموت الأشياء
وتبقى عتمات الغرانيت
مصقولة بالخواء
كما تبقى القرى المهجورة
عندما تستعيد نفسها من ضجيج العابرين.
في جلستي الجانبية
يمر تحت نافذتي
حالمون
وخائفون
وأشخاص مطفَأون
يضعون الوحدة قبعاتٍ مثقوبة
على رؤوسهم..
وعندما تمرّ امرأة وترفع عينيها
نحو ما اعتبرته إضاءَةً فاسدة
أسرع إلى الستارة
وأزيحها بحركة فُرُوسية
كأنني أدعوها لرقصة فالس
هل تسمحين يا سيدتي؟
ولو أنه عزف شحيح بلا أبّهة
ولو أنها الليلة الأخيرة
قبل اندلاع الحرب.
هل تسمحين...؟
وها هي الستارة وحدها تسمح بإكمال الرقصة
في دورة واحدة
ثم في دورتين
في زمنين
حتى عودة الغيم
إلى جلسة المحارب
وها هو يصبح ذئباً متوجساً
يشمّ عن بعد جلد العدو
ثم ها هو يدنو من زجاج النافذة
وينفث فوقه بخاراً كثيفاً
يسمح له أن يكتب مرتبكاً
«أنا
لم أعد في الإطار»
اللَّيل وحده يَعرف
كم كان وحيداً
ذلك الأبكم
يبحث عن جملة يعرفها
بألوان الكلمات.
الأزرق في الأجنحة
والأصفر في النداء
والأخضر في الصوت
وحيداً يرتّب الأبكم ألوان الكلمات
لتصبح هكذا:
الصوت أجنحة النداء
أيّ سماء تخرج من الليل
وتلبس في القطار الموحش
فستاناً بألوان لم يلدها الضوء.
اللَّيل وحده يعرف أن الأبكم
لم يكن مسافراً..
كان قادماً من نافذة مفتوحة
ومتجها إلى شمال عجوز
حيث الثلج يستقْبِلُ آثار أقدام خائفة
وينثر على ضوء النوافذ رموشاً بيضاء.
ليس صعباً أن نعبر الريح بعد كل هذا العناء
كلانا ترك من جلده نصيباً في هذه الأكذوبة
والآن. ليس لنا إلا أن نغمض
العين الوحيدة التي تسافر من أجلنا
وتجوب أصقاعاً طرية لم تجرحها حوافر الخيل
سترى ما تبقّى من المدن التي ابتلعتها
غارات بلا صوت
غارات تمحو، كما تَفعل نقرة الحذف في هاتف ذكي
حيث لاَ يسيل سِوى دم أبيض
سرعان مَا تلفظه الشاشة إلى أنفاق قرصها الصلب.
ومَاذا تبقى أيتها العين الوحيدة..
هل الأحجار المنقوعة في توابل الراحلين
وأثواب أعراس مهربة
وملابس أطفال سقطت من شرفات أوقعها القصف
وملاءات وخُمُر مطرّزة
ومصاحف موشاة
وصناديق مرصعة
وصحون تصخب العصافير في مراياها
هل هذه هي البقايا؟
وإلى أين أمضي بهذه الأحمال الرقيقة
في طرقات يتنافس فرسان الظلام
على إدخالها في ثقب إبرة؟
الليل وحده يعرف كم كنت وحيداً
وها هو يمشي بعيداً عنّي
بخطى الهاربين من الجدال
لا وقت تضيعُه المجرة في مناوشات المعطوبين
والحالمين
ستشرق الشمس مرة
أخرى في وقتها
على نافذة
بقيت مفتوحة
بعد سقوط المُحارب الأبكم.

شاعر وروائي من المغرب

أربعة رسامين من تونس

فاروق يوسف

هناك ثلاثة بلدان عربية تكاد تكون غائبة عن الخريطة التشكيلية العربية. أقلها غيابا تونس ثم تليها الجزائر أما الأكثر غيابا فهي ليبيا. ولكن هل يكفي أن المشرقيين قد تعرفوا على تجربة نجا المهداوي لكي تكون تونس حاضرة؟ المهداوي نفسه هو في حقيقته اختراع مشرقي. ذلك لأن تبنيه نظرية استلهام الحرف العربي جماليا أخرجه من إطار التجربة الفنية التونسية ليكون محاولة منه للتماهي مع تجربة فنانين عرب، كانت بلدانهم تعج بتجارب الخطاطين. من مصر حامد عبدالله ومن سوريا محمود حماد ومن العراق شاكر حسن آل سعيد الذي أطر التجربة نظريا من خلال تجمع البعد الواحد. غير أن تونس التشكيلية التي يعود تأسيس صالونها الفني إلى عام 1894 هي غير ما عرفناه من خلال المهداوي الذي لا يمكن لتجربته أن تختصر جزءًا صغيرا من ذلك التاريخ العريق.

باستثناء الهادي الخياشي وهو رسام البلاط فإن رسامي الجيل الأول كانوا بطريقة أو بأخرى تابعين لمدرسة تونس التي أنشأها الفرنسيون ليختصروا من خلالها طريقتهم في رسم المشهد التونسي، وهي طريقة يغلب عليها الطابع الوصفي التقليدي، بالرغم من أن قيام تلك المدرسة كان متزامنا مع التحولات الفنية لكبرى التي شهدتها باريس وبالأخص ما حدث مع السريالية وقبلها التكعيبية.

رسامو تونس الفرنسيون كانوا منفصلين عمّا يجري في بلدهم الأصلي وهو ما انتقل إلى رسامين تونسيين مثل الهادي التركي وعمار فرحات وحاتم المكي. علي بن سالم هو الفنان التونسي الوحيد الذي نجا من تلك الوصفة الاستشراقية الجاهزة. من المؤكد أن سفره المبكّر إلى السويد قد وضعه على طريق مختلفة.

بعد علي بن سالم صار ممكنا الحديث عن فن حديث في تونس، هو الفن الذي خلقه جيل ظهر في ستينات وسبعينات القرن الماضي. وهو جيل عُرف بقدرته على المواءمة بين محليّته وعالميّته. بين تراثه البصري ومنجزات الحداثة الفنية في العالم. كانت تونس دائما منجما فنيا يزخر بالتنوع الأسلوبي والفكري، من غير أن ينتبه إليه العرب إلا في ما ندر. لقد حقق قويدر التريكي نوعا من الاختراق إلى حد ما، غير أن الفنان المقيم في أعماق الريف التونسي لم تكترث به المؤسسات الفنية العربية بما يبعث في روحه الحماسة على الاستمرار في الظهور فآثر الاختفاء.

كانت تونس مقيمة دائما في قلب الحداثة الفنية في الألم العربي، غير أن فنها كان قليل الحظ من جهة قدرته على الانتشار عربيا. فريادة تونس الفنية يمكن النظر إليها من زاوية أن بدايات الرسم في السنوات الأولى من القرن العشرين لا تعود إلى اهتمامات شعبية أو أسباب دينية، بل إلى شغف فنيّ خالص. بمعنى أن الرسم بدأ فنا بصريا لا هدف له سوى التقاط اللحظات الجمالية التي هي المرئيات. وإذا ما كانت البدايات قد اكتفت بالجانب الوصفي فإن ذلك الجانب سرعان ما طواه النسيان ليتماهى الرسم مع وظائفه التعبيرية والجمالية.

لماذا هؤلاء الأربعة؟

الأربعة هم علي بن سالم وعبدالرزاق الساحلي ورضا بالطيب ونجيب بلخوجة. كل واحد منهم شكّل بأسلوبه الفني نوعا من القطيعة مع الماضي الفني فاتحا الأبواب على كشوفات بصرية جديدة. ما يجمع بينهم أنهم تونسيون بعمق بالرغم من أن أحدا منهم لم ينظر إلى تونسية في سياق النظرة الفنية الواقعية. لقد أمدهم الشعور بالانتماء الوطني بطاقة خلق فني فتحت أمامهم فضاءات متخيلة، بعضها حكائي والآخر بصري، هو نوع من المزج بين كل ما تلتقطه الحواس من وقائع لا يمكن أن تجتمع إلا في الخيال. فإذا ما كان علي بن سالم قد أطلق نساءه ليكون من خلالهن صياد جمال فريد من نوعه فإن نجيب بلخوجة لم يغادر مدينته لكي يكون في حاجة إلى أن يصفها، باعتبارها لقية لا تمت إلى الجغرافيا الأرضية بصلة. لقد عثر الاثنان على ضالتهما في مكان خفيّ هو الفن. وإلى جوار بلخوجة فقد كان رضا بالطيب يسعى إلى استدراج المدينة عينها إلى موقع تكون فيه بمثابة المصيدة وليست الضحية. أما عبدالرزاق الساحلي فإنه لم يخطئ طريقه إلى مدينته الساحلية الحمامات غير أنه لا يوردها إلا باعتبارها لغزا لن يتمكن سوء الفهم من محو لذة الذهاب إليه. بطريقة دعائية يمكن القول إن في إمكان لوحات الرسامين أن تقدم تونس في حقيقتها ولكن تلك الطريقة لا تعنيني في شيء. ألا يكفي أنني أعجبت بأعمالهم سببا لانحيازي إليهم؟ الأربعة هم أبناء تونس غير أنهم في الوقت نفسه أبناء الرسم. فهم إلى جانب عدد آخر من الرسامين حققوا نقلات نوعية لافتة في مفهوم الحداثة الفنية (رفيق الكامل وإبراهيم الضحاك وسامي بن عامر وسهيلي على سبيل المثال). وهم

نجيب بلخوجة

إلى جانب ذلك وهبوا المحترف الفني التونسي شيئا من خصوصيته. فالعين الخبيرة لا يمكن أن تخطئ الطريق إلى ما تنطوي عليه أعمالهم من عناصر الهوية المحلية.

صنع الرسامون الأربعة معجزاتهم الصغيرة (التعبير مقتبس من مارك روثكو) من امتزاج حياتهم الشخصية بالرسم، فكانت رسومهم أشبه باليوميات البصرية التي لا يمكن فصل الواقعي فيها عن المتخيل. فالحياة الواقعية بالنسبة إلى رسام حقيقي حين يرسم نوع من الحلم الذي يمكن إعادة تركيبه على سطح اللوحة. ما يؤكد ذلك أن تلك الحياة، بمشاهدها المتكررة تأخذ صيغا شكلية وتعبيرية مختلفة حين تنتقل إلى الرسم بين رسام وآخر. لكل رسام طريقته لا في النظر الحسي بل وأيضا في تحويل المرئيات إلى ممتلكات شخصية.

علي بن سالم: النساء يا لروعتهن

ما من فنان في العالم العربي رسم النساء بعمق ومتعة ورقي مثلما فعل التونسي علي بن سالم (1910-2001) في أقدم لوحاته ضمن المجموعة (تعود إلى عام 1938) هناك شيء من الترف الشهواني، يجسده اشتباك حرفة اليد بخيال العين. في ما بعد لم تعد المرأة موضوعا حسيا خالصا، بالرغم من أنها غالبا ما كانت تحضر عارية. لن يكون ذلك العري إيروتيكيا. لقد خفَت الشهوة مقابل بذخ التعبير عن حياة، هي بمثابة رشقة خيال مفاجئة. لا يفرّق بن سالم بين امرأة يستعيرها مباشرة من الواقع وبين أخرى لا يزال خيالها يمشي بها مثل شبح بين صفحات الكتب. كل واحدة من نسائه هي حكاية غير مكتملة. رسوم بن سالم هي مناسبة تقف فيها المرأة أمام مرآتها لترى تحوّلاتها وترى في الوقت نفسه العالم وهو يتغير من خلالها. رسم بن سالم المرأة في كل حالاتها كما لو أنه أراد أن يؤلف معجما عاطفيا عن الحياة في أرقى تجلياتها. يتيح بن سالم لنا السفر في خيال نسائه. وهو خيال أسطوري، بالرغم من أن كل أدواته تشير إلى واقعيته. هذا الرسام يملك أصابع ساحر، ما أن تمسك بالشيء حتى تعيده إلى مصدره الشعري. سريالية بن سالم هي انعكاس للغته البصرية التي تخترق الأشياء لتصل إلى جوهرها. بقوة الحلم يستحضر بن سالم بيسر كائناته الأنثوية، لا ليرعى أنوثتها بل ليمكننا من أن نستظل بتلك الأنوثة التي ينظر إليها باعتبارها معجزة. بالنسبة إليه فإن كل واحدة من نسائه هي معجزة. لقد رسم مئات النساء. واقعيات ومتخيلات. غير أن واحدة منهن لم تكن تشبه الأخرى. كل واحدة منهن تملك إيقاعا جماليا فريدا ونادرا من نوعه. يمكنك أن تكتفي برؤية واحدة منهن لتقول "إنه الجمال المطلق" غير أنك ما أن ترى سواها حتى تنفتح أمامك بوابات جمال غير متوقع. يرتجل بن سالم صورة متعددة الإيقاعات لأنثى لا تزال في طور التشكّل. فالحياة التي تؤثثها المرأة بعاطفتها وحنانها ورفعتها لم تكتمل بعد. هناك عالم جنيني تسبح فيه الكائنات. في العلاقات التي يقيمها بن سالم بين نسائه في اللوحة الواحدة ينشئ خريطة مترامية الأطراف لنوع عميق من الشعور الإنساني. الجمال باعتباره نوعا من المستحيل. هذا رسام يهب الحياة المباشرة خيالا هو في حقيقته واحد من هبات المرأة الخالدة. وهو ما كان بن سالم يؤمن به ويقدسه.

عبدالرزاق الساحلي: تفكيك العلامات

عبدالرزاق الساحلي (1941-2009) هو هبة مدينة الحمامات التونسية إلى الفن. فالرسام الذي ولد في تلك المدينة الساحلية حمل إلى الفن آثار طفولته بكل علاماتها التي انتقلت إلى سطوح لوحاته لتشكل مفردات عالمه الجمالي الخالص الذي صار يشير إليه، من غير أن يحتاج المرء إلى قراءة توقيعه. كان ذلك العالم يتكون تلقائيا، بطريقة تكشف عن قدرة الرسام على ابتكار صلة بين مفردة وأخرى، كما لو أنه يروي واحدة من الحكايات التي سمعها من أسلافه. لقد اكتشف الرسام أن في إمكانه أن يتسلّل إلى القوة الجمالية الخفية التي تنطوي عليها العلامات المرسومة من قبل ناس عاديين على جدران مدينته. وهو ما جعل الرسم بمثابة مرآة، يرى من خلالها الرسام وقائع سيرته الشخصية منذ اللحظة التي تحول فيها معنى العيش إلى تجربة بصرية. وإذا ما كان الساحلي يفكّك تلك العلامات فإنه في الوقت نفسه يعيد بناءها بالطريقة التي تدعم شعوره بالاطمئنان. تلك هي الحياة التي عاشها كما يحب. إنه يرسم لكي يكتب يومياته. ومن خلال تلك اليوميات يكشف عن افتتانه بمدينته التي وهبته ألغازها. ولأنه تماهى مع تلك الألغاز فقد اهتدى إلى الطريق التي تقوده إلى التمكن منها روحيا فكان ذلك بمثابة الباب الذي انفتح أمامه ليدخل إلى جناته التجريدية. لقد جرّد الساحلي تلك العلامات التي استعارها من الواقع من دلالتها الواقعية ليهيم بها في عالم سحري، فالجمال الخالص هو عنصر خياله الوحيد. ما نجح فيه الساحلي أنه استعاد مدينته عن طريق خياله. خلقها

علي بن سالم


رضا بالطيب

عبدالرزاق الساحلي

من جديد، غير أنه لم ينكر وجودها. تعيدنا تجريدياته إلى مدينة خيالية، تعلي من شأن العيش فيها، كونه نوعا من البطولة الاستثنائية. عبدالرزاق الساحلي هو رسام الحياة الممكنة في لحظة خيال. لقد حوّل كل ما رآه إلى أحلام، فصار يحلم بحياته كما لو أنه لم يعشها إلا لحظة الرسم.

رضا بالطيب: تجريد الأبنية

يتبع رضا بالطيب (1939-1993) حدسه الجمالي وهو يسعى إلى استحضار إنشاءاته اللونية على سطح اللوحة. فالرسام المولع بالاختزال لا يبقي مما كان قد رآه في أوقات سابقة شيئا حين الرسم. إنه لا يرسم لكي يتذكر. لا يتذكر من أجل أن يرسم. للرسم ذاكرته الخاصة التي قد تكون هي نفسها ذاكرة اليد التي ترسم. لذلك يغلب على رسومه طابع الحلم. كل الأمكنة التي رسمها تبدو مستعارة من عالم الأحلام. خفتها تتقدمها لتلهمها إمكانية الغياب في أيّ لحظة. الرجل الذي كان يفضل أن يتوارى خلف فنه أنتج رسوما تشبهه، من جهة تمنعها على ألاّ تحدث ضجيجا أو أن تكون مادة للجدل. لم يكن يعنيه أن يرسم الشيء ليذكر به. كانت الأشياء التي يرسمها مثله قابلة للاختفاء. لقد تخلّى بالطيب عن الواقع مقابل أن يقبض على سنتميتر مكعب واحد من هواء الرسم. لذلك فإنه يقيم أبنيته في الفضاء الذي يعرف أن مزاجه يتغير في استمرار. وهو ما أضفى على رسومه هالة من المرح المتفائل. تجري تلك الرسوم عمليات تنظيف للعين التي تراها. تعيدها إلى لحظة صفائها، هناك حيث لم يتعرض العالم بعد للتلوث. فن بالطيب يستدرج البيئة إلى مواقع عفّتها ونزاهتها وينصفها، بعيدا عمّا لحق بها من تجريف. رسومه تطلق حواسنا في الفضاء بعد أن تعيد تربيتها وتهذيبها. للرسم هنا منطق أخلاقي مستعار مما ينطوي عليه الجمال من معان نبيلة ورقي. يواجه بالطيب صخب الحياة المعاصرة بثراء الصمت الجمالي الذي ينطوي عليه عالم يقيم قريبا منا، يضربنا هواؤه في كل لحظة، من غير أن نفتح عيوننا عليه. هذا الرسام يعيننا على اكتشاف ذواتنا الحقيقية من خلال تعرية حاجتنا إلى استعادة أوقاتنا المفقودة. ما يرسمه بالطيب هو أشبه بمزاج المسافر العابر الذي يترك أثره في المكان قبل أن يغادر. كان بالطيب نفسه خفيفا فكان على وشك أن يغيب كلما ظهر. أليس من حق رسومه أن تلحق به إلى عالم الغياب؟

نجيب بلخوجة: مدن خياله

حين استعار نجيب بلخوجة (1933-2007) أشكاله من المدينة التونسية فإنه كان يفكّر بخيال المدينة وليس بشكلها المتاح للنظر. لذلك تبدو المشاهد التي يرسمها على سطوح لوحاته كما لو أنها جُلبت من عالم غير مرئي، بالرغم من أن مفرداتها يمكن أن تحيلنا بيسر إلى ما نراه من حولنا. يكمن سر ذلك في أن بلخوجة، وقد أسره الإيقاع العاطفي لمعمار مدينته، قد اهتدى إلى الممرات التي تقود إلى الهندسة الرياضية التي يستند إليها ذلك الإيقاع، فصار يستخرج أشكاله من طبيعة مجاورة. تلك الطبيعة التي يمتزج من خلالها التجريد بالتشخيص في أسلوب فني، هو في حقيقة ما يهدف إليه محاولة للإفصاح عن قدرة الأشياء التي نراها على أن تشفّ عمّا لا نراها منها. مدينة بلخوجة هي مناسبة للحلم. المدينة تحلم أيضا. الحلم وحده يكفي. لا يحتاج المرء إلى أن ينصت إلى حكاية لكي يعرف وقائع ما يجري خلف تلك الأسيجة التي لا تتكرر، بالرغم من هندستها الغامضة التي تتحصّن بالألغاز. وهي ألغاز يمعن الرسام في محو الآثار التي تقود إليها. ذلك لأن كل شيء في لوحات بلخوجة يبدو نظيفا، كما لو أن الرسام كان قد تعمد أن يُحيّد انفعاله الذي ينطوي على الكثير من الشعر. لقد سعى بلخوجة إلى أن تكون مشاهده بصرية خالصة. وهو في ذلك إنما يعدنا بتجربة جمال لا يمكن التعبير عنه بالكلمات. لغة ذلك الجمال تنبعث من داخله ولا تصفه من خارجه. فالمدينة التي يرسمها هي روحه وقد تجسدت على هيأة أشكال، امتزجت من خلالها الأصوات بالصور التي صنعت منه رساما. لقد قضى بلخوجة الشطر الأكبر من حياته وهو يدور بين أزقة مدينته المتخيلة، لا يودّ الخروج منها لئلا تغادره قوة الحلم. فما رسمه لم يكن إلا عالما محلوماً به. ذلك العالم الذي يحنّ إليه وظل مشدودا إلى خصائصه الجمالية إنما يقع في الجانب الخفي من الوجود، هناك حيث تقيم أمه الهولندية التي ترتقي بخفة سلالم الموسيقى. هذا رسام سلّمته الموسيقى إلى عالم رياضي، فتح أمامه أبواباً أفضت به إلى مدينة سحرية، تحرسها أشباح الشعراء.

شاعر وناقد من العراق مقيم في لندن



ما هي الثقافة؟

سيد القمني



حسين جمعان

مصطلح الثقافة غربي المنشأ عرّفه أكثر من عالم مثل شومبير وآرون وكروبير وموسكا وباريتو وهيرسكوفيز وغيرهم، وما كتبوه تعريفاً عن الثقافة قصدوا به تنمية ثقافات مجتمعاتهم لتحقيق التقدم والرقي والتطور لبلدانهم. والمعنى الأصلي لكلمة ثقافة (CULTURE) هو الزراعة أو تربية الزرع واستخدم مجازا للتربية العقلية البشرية.

وأول من استخدم مصطلح الثقافة في العربية هو سلامة موسى في عشرينات القرن الماضي كدال على النشاط الفكري والإبداعي . والكلمة «ثقف» في أصلها العربي هي إعداد أداة من مادة خام كي تكون سلاحا (لا زرعا)، فيقال: ثقّف السيف أيّ حدّه وأقامه، أو ثقّف العود ليكون سهما أو رمحا، فالأصل في المصطلح الغربي هو التربية المعرفية كتربية الزرع وهي عندنا من صناعة السلاح وفن الحرب «إحنا بدعناه يا مجاهد في سبيل الله!» بحكم اختلاف بيئي بين خصب وبداوة.

وفي علوم الاجتماع يدلّ المصطلح بمعناه الواسع على مجموع إنتاج العمل الإنساني المجتمعي المتوارث من جيل إلى جيل، وطرحت الأنثروبولوجيا نظريات حول العلاقة بين التطور البيولوجي لدماغ الإنسان وبين التطور الثقافي كما في نظرية النقطة الحرجة عند الألماني كروبير التي تذهب إلى أن دماغ الإنسان بلغ تطوّرا أوصله إلى نقطة اكتسب عندها قدرة صنع الأدوات والتحكم في أصواته ليبتكر اللغة ويعطي دلالاته الخاصة لأشياء الطبيعة وبدأت الثقافة مع هذه النقطة.

وعرّف الأميركي تايلور الثقافة بأنها المجموع المعقد والمتداخل من معرفة وعقيدة وفن وأخلاق وقانون وعادات وتقاليد كأساليب للعمل واللهو والإنتاج يكتسبها الفرد من عضويته في مجتمعه.

وفي القرن العشرين أضاف كروبير ولنتون وكلايد للتعريف أن الثقافة اهتمام بالقوالب والأشكال التي تتخذها كل ثقافة للتعبير عن نفسها بأساليب علم ونقل وحفظ يستخدمها كل مجتمع وأساليب تطورها عبر الأجيال، وهي أيضا معبرة عن نفسية الشعب صاحب الثقافة.

لكن هذه القوالب والأشكال يمكن أن تصبح قيداً يمنع التطور الثقافي خارج وعائها. ووسائل نقل الثقافة هي عملية التعلّم التي تحدّد مدى العمق نحت واتجهت نحو التجريدي النظري ومدى تأثيرها في الجهاز العصبي للمتعلم، فالتعليم الشفاهي يركّز فقط على الذاكرة وجودة الحفظ بما يؤدي إلى الجمود وكبح التطور الثقافي، بينما الكتابة تؤكد على العامل الفردي وخصوصيته فيطلق كل كاتب العنان لصفاته الفردية، والتعليم عن طريق الصور والرؤية يزيد من ملكة الخيال والقدرة على توظيفها، وبهذا الشأن يقول سول تاكس إن النشاط الثقافي «صنع الأدوات، اللغة، أسلوب التعليم، التأثر، وتنتهي النظرية إلى أنّ نوع الثقافة يتأثّر بالثقافة السّائدة، والجهاز العصبي النشط من جانب آخر ينشط الثقافة ويطورها.

وفي 1948 صاغ الأنثروبولوجي الأميركي هيرسكوفيتز مصطلح «احتواء ثقافي» للدلالة على عملية تعلّم الأفراد ثقافة مجتمعهم، عادات وأخلاق وعقائد وقيم وطقوس وذوق فني. أساليب يعتبرها المجتمع معبرة عن هويته، فيتم إعداد الفرد لتقبّل ثقافة مجتمعه حتى تصبح عضوا في المجتمع وابنا معترفا به من المجتمع. وعملية الاحتواء تلك تتم بشكل تلقائي وضروري بما يضمن للمجتمع تماسك أجياله واستمراره كمجتمع له خصوصيته الثقافية، كما يضمن وجود ثقافة مشتركة بين كل مكونات المجتمع.

ومن حقّنا هنا أن نتقدم بإضافتنا بداية من فهمنا بأن تعريف الشيء بمكوناته ليس تعريفا إنما وصف، كتعريف المطرقة بأنها خشبة وحديدة أو تعريف السيارة بأنها هيكل وموتور وكراس، والتعريف السليم يكون بالوظيفة فتعريف سيد القمني لا يكون بشكله ومنظره بل بوظيفته ككاتب.

وقد ظهرت الثقافة مع فجر المجتمع البشري بنشوء الأسرة وثقافتها مع ثقافات الأسر الأخرى المجاورة، لتكون ثقافة قبيلة ثم ثقافة مجتمع. فالأسرة من فجرها لها تقاليد وعادات يتم توارثها شفاهة وتقليدا لتحميها من الفناء. فإن لم تعلّم الأسرة البدائية أبناءها الأكل السليم وتمييزه عن السام، أو إن لم تعلمه الخوف من الضواري، أو إن لم تعلمه المعاونة في العمل، أو إن لم تعلمه إعمال التفكير في الصراع مع البيئة للانتصار عليها، أو إن لم تعلمه قواعدها القيمية ونظام العلاقات التراثي، فإنه سيهلك وتتعرض القبيلة للفناء، والفارق بين الثقافات يعود إلى عوامل عديدة أهمها الفوارق البيئية التي تسهم في التقدم أو الثبات أو التخلف.

فالثقافة هي دستور للحياة لتمكّن المجتمع من الحياة الآمنة في بيئته ومحيطه، وكل أفراد المجتمع شركاء يصنعون ما يجعلهم ينتصرون على البيئة وتسخيرها لمنفعتهم، وتضمن الوئام بين أفراد المجتمع، لذلك صنعوا اللغة ليتواصلوا بها، وصنعوا الدين لوضع نظام جزائي للجرائم التي تتم بعيدا عن عين المجتمع، ووضعوا أنظمة قانونية جزائية لمن يضبط متلبسا بالإساءة للمجتمع بالسرقة أو القتل أو غيرها، فكل ما هو فكرة تعمل على حفظ النفس والمجتمع وتطورهما هو ثقافة.

ولكل الشعوب لغات وفنون وهندسة معمار وتخصّصات وتوزيع للعمل وقواعد للإدارة ونظما للحكم وعلاقات اجتماعية منضبطة، والاختلاف بين المجتمعات يكون في تفاصيل هذه العناصر و درجة بساطتها أو تعقيدها. فاللغة تختلف لفظا ومعنى، وكذلك تركيب الجمل والقواعد النحوية والصرفية، لكنها لا تغيب عن أيّ مجتمع ولو بلغة الإشارة. فيمكن أن نجد الهندسة مع الإنسان البدائي الذي رتّب أعواد الحطب ليمرّر الهواء من خلالها ليتمكن من إشعال النار أو ترتيب أعواد الخيزران والعصي وأوراق الشجر ترتيبا هندسيا بشكل يجعلها متماسكة لتصلح سكنا آمنا يصمد أمام البيئة، وهو الفن الذي سيختلف عن بيئة الأشجار الخشبية في الغابات وعن بيئة النهر والمعمار بالطين أو بالملح أو بالثلج على حسب بيئته.

والثقافة الحالية تطورت عن سابقاتها وتستبطن في داخلها بقايا الثقافة البدائية، فالفكرة الثقافية ترفض الموت لذلك نجد الثقافة البدائية التي أنشأتها الغرائز كالمطاردة الصيادة والهرب من الأخطار تظل حتى الآن أجمل وأحلى ألعاب الطفولة بالاختفاء والمطاردة والمفاجأة، وظل الصيد ثقافة راقية ولعبة الملوك المفضلة، وتظل أكثر الأكلات بدائية هي الألذ (اللحم المشوي على النار).

وتأثير الثقافة بالاكتساب ذو اتجاهين فهو علاقة تفاعلية ديناميكية بين اثنين كليهما حيّ فاعل تأثيرا وتأثرا، وإن اختلفت قوة ذلك التأثير وفعاليته من جانب تجاه آخر، فكما تؤثر الثقافة في الفرد وتطبعه بطابعها وتضغط عليه ليكتسبها وتشكله بما يناسبها فإن الفرد يؤثر فيها إذا كان متفردا بالقدرات والذكاء بالحذف منها والإضافة إليها.

لذلك تخلق الثقافة شخصية الفرد إما عبدا أو متمردا أو مبدعا، عنيفا أو مسالما، والتطور الثقافي هو ناتج زواج الثقافات والتهجين، وأيّ ثقافة لا تموت إنما يمكن أن تتفكك لتدخل عناصرها في ثقافة أخرى، والثقافة التي لا يمكن فقدها هي التي أنشأتها الغرائز. فأساليب البقاء واستمرار النوع يظهران بدون تثقيف، أما الثقافة التي تتفكك وتدخل في ثقافات أخرى فهي المكتسبة، ولأن الثقافة بنت البيئة فهي لا تنزل من السماء حتى بفرض وجود عالم غيبي فليست هناك ثقافة، لأنه لا توجد بيئة تدفع للصراع طلبا للحياة واستمرارها.

فعدم وجود البيئة يؤدّي إلى غياب الحياة والموت، وبعدمية الموت ينعدم صراع البشر مع البيئة أو مع بعضهم لاقتسام خيرات البيئة، وفي عالم الغيب المفترض لا ثقافة ولا مدارس ولا جامعات ولا مساجد ولا كنائس ولا حلقات وعظ ولا حاجة هناك لعلوم أو فنون أو ابتكار أو اختراع، وحيث لا عمل هناك فلا مناصب ولا أحزاب ولا بيت مال ولا ضرائب فهذه كلها مخترعات صراعية لا وجود لها في عالم الغيب الذي هو والعدم سواء ليس فيه طموح ولا أمل لتغيير أيّ شيء.

وتطورت الثقافة مع تطور المجتمع البشري منذ عصر الصيد والمشاع إلى حرفة الرعي في الوعر والصحارى وحرفة الزرع في المناطق النهرية، ثم إلى المجتمع الصناعي ولكل مرحلة ثقافتها.

فالثقافة مثلها مثل البناء كل دور تعلّيه يقوم على هيكل البناء التحتي ويأخذ ذات الرسم والشكل، وظلت هذه التعليات في كل المجتمعات حتى تمّ اكتشاف المنهج العلمي في التفكير الذي صنع عصر النهضة الذي غيّر الشكل الهندسي للثقافة بالكلية وانتقل إلى وضع أساس جديد وهيكل جديد وكل جديد مخالف تماما للقديم.

كاتب من مصر

هل نقرأ الكتب التي نشتري

هاني حجاج

في حوار من القلب مع الروائي الأميركي فيليب روث عندما عزم، وهو على عتبة الثمانين من عمره، على التوقف عن الكتابة نهائياً عرّف القارئ الحقيقي للروايات بالشاب الذي يقرأ ساعتين أو ثلاث ساعات كل مساء، ويتكرر ذلك ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع. وفى نهاية أسبوعين أو ثلاثة يكون قد أنهى قراءة كتاب كامل.

القارئ الحقيقي ليس هو الذي يقرأ المقال الأخير في مجلة منوعات على طاولة طبيب الأسنان أو عمود الصحفي اللامع في الجريدة اليومية مع قهوة الإفطار وليس هو ذاك النوع من الناس الذي يقرأ من حين إلى آخر، بمعدل نصف ساعة ثم ينحّي الكتاب جانباً ليعود إليه بعد خمسة أيام على شاطئ البحر أو ينسى كل شيء عنه ليعثر عليه عاشق حقيقي للكتب في سلة مهملات الفندق أو يكون مصيره أجولة الكتب القديمة التي تباع على الأرصفة بملاليم، ومصائب قوم عند قوم فوائد!

القارئ الحق يُعطي القراءة حقها وللكتاب واجبه، فعندما يقرأ لا يسمح لشيء بتشتيت انتباهه، لا يقرأ أثناء مكالمة هاتفية طويلة ولا عند متابعة نشرة الأخبار، بل يضع الأولاد في الفراش ويُغلق التلفاز والمذياع والكمبيوتر وينكبّ على القراءة، لا يلهيه مسلسل ولا يتململ كل ربع ساعة ليراجع بريده الإلكتروني أو ينشّط صفحته على الفيسبوك بحثاً عن علامات الإعجاب والتعليقات التي لا تنتهي. الأمر يحتاج إلى إرادة من فولاذ في الواقع، إذ كان الأمر أيسر منه الآن عندما كانت الأشياء المُسلّية تنحصر في مسلسل الثامنة مساء وفيلم الظهيرة وزيارة عائلية كل أسبوع. لم تكن هناك هواتف محمولة قرّبت البعيد وأبعدت القريب وتعزف سيمفونيات كاملة، ولم تكن هناك حواسيب محمولة تقتحم عليك نزهاتك الخلوية وأوقات الراحة، تبحث عن كلمة «أدب يوناني» في غوغل فتدخل في موقع يقودك إلى موقع ثم موقع وينتهي بك الأمر وأنت تحاول تحميل الألبوم الأخير لشاكيرا!

هكذا صار عدد الأشخاص الذين يأخذون القراءة على محمل الجد ينخفض بشكل مفزع مع تعدُّد وسائل الترفيه وثورة الاتصالات ونهضة الإعلام الكبرى في حياتنا المعاصرة. نجحت الشاشات وهزمتنا الألوان وسرقتنا الملاهي المتصلة بالإنترنت على المكتب أو في الفراش أو في الجيب أو في الهاتف كأيّ متعة حسية سريعة، وسيصير أسوأ غداً وأسوأ منه بعد غد حتى يأتي اليوم الذي يصبح فيه قرّاء الأدب بعدد من يقرأون كافكا!

الكتاب لا يختفي ولكن القراء هم الذين يختفون، وتؤدى حالة كساد القراءة إلى ضحالة محتوى الأعمال الأدبية المنشورة، فالكاتب أصبح يكتب لنفسه ولا يخشى هجوم القراء إذا تكاسل وأفلس، وأصبح الكل يكتب لمجرد أن الأمر أصبح أكثر سهولة، الكل ينشر على حسابه عدة كتب ثم يتوقف، يهنئه أصدقاؤه وينشر صور حفل التوقيع هنا وهناك ولا يهتم أحد بأن يخبره أنّ ما كتبه رديء أو تافهة أو مسروق. يجب أن نقرأ أولاً حتى ننقد ونقارن!

أما تقلبات المزاج فمسألة أخرى، فبعضنا يحبّ القراءة ولا ينوي أن يبخسها حقها من الوقت، بل إن منظر الكتب المرصوصة المصفوفة هو بهجة فؤاده فيشتريها بالعشرات ومن كل مكان وفي مجالات عدة ثم يتوقف أمام هذا السؤال المحض الحرج: متى أقرأ كل هذا؟ حتى إذا استبعدنا المجلدات المتخصصة التي تمارس دورها الرصين المرجعي ولا حاجة لقراءتها من الغلاف إلى الغلاف، وحتى مع إقصاء طائفة غير هينة من الكتابات الشابة غير الناضجة والتي تمارس لعبه التكرار والتجريب المُبتسر وهي مسألة سهله بالنسبة للقارئ الحصيف؛ إذ يكفيه تقليب الرواية أو ديوان الشعر بسرعة وقراءة عدة صفحات هنا وبعض الفقرات هناك ليأخذ فكرة سريعة، غالباً ما تكون كافية عما إذا كان هذا الكتاب يستحق القراءة أو ستكون مجرد مضيعة للوقت والجهد والمال، فدعك من أن عناوين الكتب الجيدة شائعة ومعروفة وأسماء الكتاب أصحاب الأعمال الأكثر مبيعاً يسهل الوصول إليها.

على أن بعضنا يباهي بكثرة ما قرأ وهي مسألة لطيفة بالطبع، ويفضل الاهتمام بهضم كمية مفيدة ولو كانت قليلة عن حشر مئات الصفحات، فإذا ظننت أنه سباق، تذكر أن الفوز لمن فهم جيداً وليس من قرأ أكثر!

لعلك تعرف حكاية الفلاح الذي سمع كاهن القرية يقول إنه لا يستطيع أن يقرأ لأنه نسي نظارته في البيت، فقدح زناد فكرة ووصل إلى الفكرة العبقرية التي مؤداها أن معرفة القراءة تتوقف على امتلاك نظارة. فما كان منه إلا أن سافر إلى المدينة وتوجه إلى محل نظارات وطلب «نظارة للقراءة» وجرّب مجموعة من النظارات لم تنجح واحدة فيها في تمكينه من القراءة، وعند ذلك سأله البائع بصبر نافد بعد أن قلب المحل رأسا على عقب: «لكن قل لي، هل تستطيع أن تقرأ؟» ودهش الفلاح لهذا السؤال وأجاب «عجباً! إذا كنت أستطيع القراءة، فلماذا حضرت إليك؟».

وهكذا، فبعضنا يتبنى فكرة خاطئة عن الظروف اللازمة ليقرأ، فإن كان يقرأ فليستزيد من القراءة. هذه الفكرة قد تخص ديكور المكتب أو التخلص من الأسرة والانعزال والاستقالة من العمل، أو ربما السفر إلى منزل مهجور وشراء مقعد مريح ومكتبة فاخرة وغليون، وربما كانت شراء كتب مجلدة غالية أو التركيز على الأمهات والدراسات العميقة.

كل هذا رائع ومفيد لكنه لا يفيدنا بأكثر مما نحتاج نظارة القراءة للقراءة. يجب أولا أن نحب القراءة وتدفعنا رغبة حقيقية لممارستها بشغف وحب. أما ما يلي ذلك فمسألة ذوق ومزاج شخصي، وعدا ذلك فلا حدود معينة هنالك تحيط بمملكة الكتاب، فأنت قادر على قراءة كتيبك في محطة الأتوبيس أو على المقهى أو في المترو أو أثناء الفقرات الإعلانية خلال المسلسل وما أكثرها! وهذا يعنى أن يكون الكتاب بجوارك و الوصول إليه سهل.

وكان الله في عون مُدمن الكتب! إنه يجمعها كجامع الطوابع والعملات والأنتيكات والنوادر، الفارق هنا أن وجودها في حد ذاته مع قيمتها الكامنة والظاهرة لا يكفي.

الكتاب غير المقروء كالطعام الشهي المتروك. هذا العاشق يحشو في مكتبته كل ما يجده من كتب. كتب كثيرة وكبيرة، وأخرى مهضومة وصغيرة، صفحات عريضة ومصقولة وصفراء ومهترئة وطبعات أنيقة، كتب لم يفكر مؤلفوها أنها قد تقع في أيدي الأطفال، كتب تناجي الخالق وكتب للتداوي وتحضير الجان، كتب عن الحساب والأجرام والجرائم، كتب ملونة الأغلفة والمواضيع والمغامرات العاطفية والمخابراتية وفي البيوت المسكونة. وكلها كتب يجب أن تقرأها، وبعد أن تقرأ يجب أن تفهم، وإذا لم تفهم عليك أن تحاول، فإذا حاولت وفشلت عليك أن تتصل وتتواصل وتسأل أو تترك الكتاب يزيّن الرف ويبهر الزوار! هناك من لا يتصور أن هناك كتبا أخرى في أيّ موضوع ليس طبياً، وهناك من لا يعرفون سوى روايات الجيب، حكايات بوليسية مثيرة ممتعة تحبس الأنفاس من فرط الغموض والإثارة.

فن القراءة يسير جنباً إلى جنب مع الإبداع الكتابي الذي يعمل بالضرورة على احترام استجابة القارئ بالرغم من تحديداتها وتنوعاتها وتقييداتها والتخلي من قبل الكاتب عن التصور البسيط للقراءة بوصفها مسحاً آلياً أو فك شفرة، بل هي عملية عاطفية وآنية وذاتية ترسخ بها النصوص وتصبح إشكالية، والشكر يتقاسمه قلم المؤلف وتنازل القارئ عن مسرات أسرع وأمتع!

كاتب من مصر



احتضار العولمة

ترامب والترامبية وصعود اليمين الشعبوي

يحتوي هذا الملف على عدد من المقالات التي تحاول تفكيك ظاهرة ترامب أمام الوعي العربي بوصفها ظاهرة دهمت العالم وفاجأته كما تفاجئ الزلازل والطوفانات وأحدثت رجة طالت كل جزء من المعمورة وهزت معها الوعي والوجدان الإنسانيين.
وقد أدّى ظهور ترامب وانتخابه رئيسا للولايات المتحدة الأميركية إلى ولادة شعور كبير بالخطر على التعدد والتنوع العرقي والديني والثقافي في أميركا والعالم الغربي قاطبة.
بل إن ظهور ترامب ولّد حساً فجائعيا لدى شرائح كبيرة في العالم ممَن يؤمنون بالوجه الإيجابي للعولمة وينظرون إلى التنوع الذي يعاديه ترامب بوصفه خشبة الخلاص للبشر.
على أن هذا الملف إنما يقرأ الظاهرة الترامبية من منظورات عربية. فهل تختلف هذه القراءة لمن أنهكته فكريا سنوات أوباما العجاف وانعكاساتها الكارثية على العالم العربي، عن القراءات الأخرى لها، ولكن هل إن الترامبية ما هي إلا طبعة جديدة من شعبوية لا يمكن التنبؤ إلى أين ستأخذ أميركا والعالم في ظل انهيار مريع لكل ما أنتجه العالم المتحضر من قيم إنسانية■

قلم التحرير



لحظة ترامب أم احتضار العولمة

جادالكريم الجباعي

أحدث فوز دونالد ترامب في الانتخابات الأميركية، على منافسته الديمقراطية هيلاري كلنتون، ثم دخوله إلى البيت الأبيض رئيساً للولايات المتحدة الأميركية عاصفة سياسية، اجتاحت العالم، ولم تهدأ بعد، وقد لا يزول التوجس من سياساته في وقت قريب. فهو أول رئيس أميركي، بعد أربعة وأربعين رئيساً قبله، يقابل فوزه ثم دخوله البيتَ الأبيض بمظاهرات احتجاجية حاشدة في مدن أميركية وغير أميركية، علاوة على الحملات الإعلامية عليه داخل الولايات المتحدة وخارجها.

لا يزال من الصعب تحديد قائمة المؤيدين لترامب والمتحالفين معه وقائمة المناهضين له والمتوجسين من سياساته، بصورة نهائية، سواء داخل الولايات المتحدة أو خارجها. وهذا لا يتعلق بكون ترامب شخصية إشكالية ومثيرة للجدل، وهو كذلك بالفعل، بل يتعلق بأزمة مركبة، اجتماعية اقتصادية وثقافية وسياسية وأخلاقية، تشمل الولايات المتحدة وغيرها، يمكن أن تكون الفوضى أو اللاتعين أحد عناوينها والإرهاب عنواناً آخر. والفوضى والإرهاب علامتان على تراجع الديمقراطية أو انحلالها.

لعل هذه العاصفة السياسية تشير بوضوح إلى أن المسألة تتجاوز نتائج الانتخابات والمثالب التي تنسب إلى ترامب. فليس انقسام المجتمع الأميركي على نتائج الانتخابات سوى إشارة إلى أزمة عميقة، لا في الولايات المتحدة فقط، بل في النظام الرأسمالي العالمي ونسق العلاقات الدولية أو النظام الدولي.

فليست العاصفة السياسية سوى تعبير عن تداعيات الأزمة الاقتصادية، التي انفجرت عام 2008 وارتداداتها، بما هي واحدة من أزمات النظام الرأسمالي العالمي، التي لم يكن ممكنا الخروج منها نحو التعافي إلا بتدخل الدولة، في جميع البلدان التي لفحتها الأزمة، ولا سيما في الولايات المتحدة الأميركية، حيث كوفئت البنوك والشركات، التي تسببت بها، على حساب دافعي الضرائب، علاوة على الآثار المباشرة وغير المباشرة لنمو الاحتكار وطغيان رأس المال المالي المقترن بالفساد في الاقتصادات الرأسمالية وشبه الرأسمالية كافة، واتساع الهوة بين أغلبية فقيرة وتزداد فقراً وأقلية غنية وتزداد غنى.

فإن الحاجة إلى تدخل الدولة للخروج من الأزمة المالية كان ولا يزال يعني الحاجة إلى إصلاح النظام الديمقراطي والارتقاء به نحو ديمقراطية اجتماعية تقوم على المساواة والحرية والعدالة وتكافؤ الفرص و «إنصاف الفئات الأقل حظاً»، حسب تعبير أمارتيا صن، وإعادة الاعتبار للمجتمع المدني، بصورة أساسية، وتجديد العقد الاجتماعي وفقاً للمُحرَز الديمقراطي وحقوق الإنسان. ولكن الأمور لم تجر على هذا النحو، ولم تتجه هذا الاتجاه؛ وقد انقضى مفعول جرعة المورفين المسكّن، التي حقن بها النظام الاقتصادي بإشراف الدولة، فتحولت الأزمة المالية السابقة إلى أزمة سياسية، ولهذا التحول دلالات عميقة. أحد هذه الدلالات أن التناقض بات عميقاً بين الديمقراطية والشعبوية من جهة، وبين الديمقراطية والليبرالية الجديدة وتجلياتها العنصرية، من الجهة المقابلة، ما يعني أن الأزمة أكثر تعقيداً مما تبدو عليه.

يمكن استشفاف بعض هذا التعقيد من إعادة الاعتبار للدولة القومية، بصفتها موطن السيادة ومملكة القوانين، من دون إعادة الاعتبار للمجتمع المدني بصفته فضاء من الحرية، يفصل بين الأسرة والدولة، وكل فصل هو وصل. لذلك غُيّبت المسألة الأساسية الأكثر خطورة على حياة الدول والشعوب والمجتمعات، نعني تآكل الديمقراطية والتراجع عن مبادئها وقيمها الإنسانية. فإن تقييد الحريات الخاصة والعامة صار سياسة مبرزة عالمياً، بالخوف من الإرهاب والتخويف به، منذ أحداث أيلول/سبتمبر 2001، واعتباره الشر المطلق، وهو كذلك بالفعل، الذي حلّ محل الاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي وحلف وارسو، في أثناء الحرب الباردة، وحصر الإرهاب في الإسلام والمسلمين بصورة أساسية.

ربما كان الخلل الرئيس في العولمة، التي انطلقت من الولايات المتحدة الأميركية والمملكة المتحدة، مع ولاية كل من رونالد ريغان ومارغريت تاتشر، مطلع ثمانينات القرن الماضي، إطلاق العنان لحرية السوق، وتقييد الحريات الاجتماعية والسياسية، الفردية والعامة؛ ما أدى إلى «دكتاتورية السوق»، وحلولها محل المجتمع المدني، وتهميش الأخير تهميشاً مضاعفاً، نعني إلغاء فاعليته السياسية من جهة وإفقار أكثريته وإخراجها من عالم السياسة والثقافة العصرية، من جهة أخرى. وهذا متصل أوثق اتصال بتقليص دور الدولة وتحويلها إلى «ربة منزل». يمكن القول إن الحرية تثأر لنفسها من خلال الحركات الاجتماعية، من حركة «احتلوا وول ستريت» إلى «الربيع العربي»، ومظاهرات الاحتجاج على فوز ترامب، ومظاهر الاحتجاج الأخرى، الرسمية منها والشعبية.

في هذا السياق يرى بعضهم أن فوز ترامب انقلاب على العولمة. فقد كتب المفكر الاقتصادي المعروف، الدكتور جميل مطر في جريدة الحياة اللندنية أن «العولمة، كما دشنتها أميركا، وغيرها من دول الغرب، تجاوزت عمرها الافتراضي وأن سلبياتها صارت تتفوق على إيجابياتها إلى حدّ جعل ترامب يرى أميركا ضحية من ضحايا العولمة. سبقه البريطانيون الذين عاد الشك في نوايا القارة الأوروبية يسيطر عليهم. فالعولمة في صيغتها الأوروبية حاولت الانتقاص من سيادة حكومة لندن، حاولت أيضاً إجبار بريطانيا على فتح حدودها لاستقبال الباحثين عن العمل من شرق ووسط أوروبا واللاجئين من خارج أوروبا».في حين يرى الدكتور عصام الخفاجي أن «العولمة التي بات الأميركان يرونها شرّاً لا بد من محاربته، حققت للبشرية، لا لرأس المال فقط، ما لم يحققه أي تطور آخر في التاريخ البشري. فخلال أقل من عشرين سنة انخفضت نسبة من يعيشون في حالة فقر مدقع من 35 بالمئة أي أكثر من ثلث سكان الأرض عام 1993 إلى 14 بالمئة عام 2011». ولكن، وحين تدخّلت الدول لمجابهة الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالغرب بسبب مضاربات البنوك وشركات التأمين عام 2008، قامت بتعويض البنوك لمنع إفلاسها وحملت ذوي الدخول المحدودة عبء دفع تلك المكافأة. حركة الأجور سارت سلحفاتية طوال العقود الأربعة الماضية فيما حققت دخول الفئات العليا قفزات لا سابق لها بحيث عادت فجوة الدخل بين الأكثر فقراً والأكثر غنى إلى ما كانت عليه أيام الكساد العالمي الكبير عام 1929. عام 1980، كان متوسط دخل من ينتمي إلى فئة الواحد بالمئة من أغنى الأميركان يعادل 27 ضعف دخل من ينتمي إلى الخمسين بالمئة الأقل دخلاً. أما الآن فإن دخل هؤلاء المحظوظين يعادل 81 ضعف ما يحصل عليه ابن النصف الأدنى منهم. في منتصف السبعينات من القرن العشرين كان متوسط الدخل السنوي لمن ينتمي إلى الواحد في المئة الأغنى 340 ألف دولار ارتفع الآن إلى مليون دولار، وفي المقابل ارتفع متوسط الدخل الحقيقي للنصف الأدنى من السكان خلال ثلاثة عقود من عشرين ألف دولار إلى خمسة وعشرين ألفا فقط».

وهذا يعني أن العولمة تسببت باختلالات اجتماعية-اقتصادية يمكن إصلاحها، إذ تعود بعض هذه الاختلالات إلى التحول من سيادة قطاع اقتصادي إلى آخر، وإهمال التبعات الاجتماعية لهذا التحول، كتسريح العمال من الشركات التي تحتاج إلى خبرات ومهارات عالية، وتنحيف شركات أخرى حلت فيها الآلات الذكية محل العمال، وزيادة معدلات الفقر في الدول المتقدمة لا معدلات البطالة. «وكان ممكناً وضرورياً أن تتحمل الدولة وأرباب العمل تكاليف عملية إعادة تأهيل من

فقدوا وظائفهم بسبب تراجع القطاعات الصناعية. لكن السياسات النيوليبرالية التي أرساها رونالد ريغان ومارغريت تاتشر في الثمانينات من القرن الماضي ليست، ولم تكن، في هذا الوارد. فثمة سوق حرة تغرف منها القطاعات الصاعدة من دون عناء. محدودو الدخل ليسوا عاطلين من العمل، فالبطالة في أدنى مستوياتها منذ عقدين. لكنهم مضطرون إلى القبول بأيّ وظيفة مهما كان الأجر منخفضاً، ومن دون ضمانات ضد التسريح، الذي لا ترافقه تعويضات ضمان اجتماعي أو صحي. وهذا هو مصدر القلق المستشري في أوساط الأميركان ذوي الدخل المحدود»، حسب الدكتور الخفاجي.

ليس من المؤكد أن سلبيات العولمة غلبت على إيجابياتها، إلا في البلدان ضعيفة النمو، والتي يعود ضعفها إلى نقص التطور الرأسمالي وتفويت الثورة الديمقراطية في كل منها، أكثر مما يعود إلى «الاستغلال الرأسمالي» و«النهب الإمبريالي»؛ إذ للمبالغة في هذين الاستغلال والنهب بعد أيديولوجي، يغطي فساد الأنظمة السياسية وتخلف البنى الاجتماعية والثقافية، ويبرّر الاستبداد السياسي والاستبداد الديني، كما هي الحال في معظم البلدان العربية ومثيلاتها.

لذلك، لا نشاطر مناهضي العولمة اعتقادهم بأن «المارد يعود إلى القمقم» حسب تعبير الدكتور جميل مطر، لأن العولمة من أخص خصائص النظام الرأسمالي أو نمط الإنتاج الرأسمالي، الذي تصعب إمكانية قيامه واستمراره وتطوره في بلد واحد. هل كان يمكن أن تقوم الرأسمالية وتتطور في المملكة المتحدة، أقدم النظم الرأسمالية، دون بقية الدول الأوروبية، مثلاً؟ بل هل كان يمكن أن تبقى الرأسمالية محصورة في القارة الأوروبية دون غيرها؟ العولمة هي عالمية النظام الرأسمالي أو نمط الإنتاج الرأسمالي، وعالمية الثورة الديمقراطية، بجميع منطوياتها أيضاً، فلا يمكن فصل هذه عن تلك إلا من أجل الوصل. والعولمة، من جانب آخر لا يقل أهمية، هي نمو الشعور بالانتماء الجذري إلى الجماعة الإنسانية، وسمو الرابطة الإنسانية على ما عداها من الروابط، بما في ذلك الرابطة الوطنية أو القومية، ولا فرق. هذا السموّ المتحقق بالفعل، على الصعيد الحقوقي، في أولوية القانون الدولي على القوانين الوطنية، وأولوية الشرعة العالمية لحقوق الإنسان على القيم المحلية.

هذا الشعور المتنامي بسمو الرابطة الإنسانية، لا يزال يصطدم بالدولة القومية، أو الوطنية، وهو ليس بعد قاعدة من قواعدها، لذلك لم تتخلص الوطنية أو القومية بعد من الميول العنصرية الثاوية



ليس من المؤكد أن سلبيات العولمة غلبت على إيجابياتها، إلا في البلدان ضعيفة النمو، والتي يعود ضعفها إلى نقص التطور الرأسمالي وتفويت الثورة الديمقراطية في كل منها، أكثر مما يعود إلى «الاستغلال الرأسمالي» و«النهب الإمبريالي»



في أساساتها. وهذا مما يستوجب إعادة بناء العقد الاجتماعي، حتى في الدول المتقدمة.

أجل، إن إعادة الاعتبار للدولة القومية، والعودة إلى الحمائية، وفقاً لمبدأ «أميركا أولاً»، الذي أعلنه ترامب، والموقف من الهجرة والمهاجرين، ومن الإسلام والمسلمين خاصة، ومن الأفارقة ودول الجوار، ومن «القارة العجوز» والاتحاد الأوروبي.. هذا كله وغيره عودة، بل نكوص إلى أسوأ ما في القومية، وأسوأ ما في تاريخ الدولة القومية، نعني العنصرية، وما تنطوي عليه من استعلاء وتفوق ونزعات عدوانية.

أغلب الظن أن العودة عن العولمة، بما لها وما عليها، صارت صعبة من دون تفكك نمط الإنتاج الرأسمالي، الذي لم يتبلور نقيضه التاريخي بعد، على اعتبار النظم الاشتراكية الآفلة أو الشيوعية الآفلة لم تكن، أو لم تستطع أن تكون، ذلك النقيض. وأغلب الظن أيضاً أن لحظة ترامب قد تفتح مسار تصحيح العولمة. العودة عن العولمة أكبر من يديْ ترامب، وأكبر من يديْ ترامب وبوتين مجتمعين، وفقاً لوعود الثورة العلمية التكنولوجية وثورة الاتصالات والمعلومات وثورة التواصل الإنساني، التي لا تزال في بداياتها. فالحدود القومية، التي اختُرِقت مرة، يمكن أن تُخترَق مرة أخرى.

أما أن لحظة ترامب ستخلخل نسق العلاقات الدولية، فهذا محتمل، بل مرجّح. هنا ينبغي التفريق بين النظام العالمي، أي النظام الرأسمالي،أو الرأسمالية، وبين النظام الدولي أو نسق العلاقات الدولية، على ما بينهما من تداخل، وتأثّر وتأثير متبادلين، بل إن التغيّر النوعي في النظام الدولي، أو نسق العلاقات الدولية، لا يكون إلا بتغيُّرٍ ما في النظام الرأسمالي العالمي، أو في نمط الإنتاج الرأسمالي العالمي، الذي يتسارع نموه وتطوره، وهما نموّ وتطور لا يخلوان من تراجعات وانتكاسات، ربما بسبب الأزمات الدورية الملازمة للنظام الرأسمالي، وهي أزمات نموّ على كل حال، «الرأسمالية تجدد نفسها»، حسب مقاربة المرحوم الدكتور فؤاد زكريا، وكذلك الديمقراطية.

استعراض السيرة الذاتية للرئيس الأميركي دونالد ترامب ونشاطه الاقتصادي والتلفزيوني والمجالات التي يستثمر فيها، ولا سيما صناعة الترفيه و«رضاعة التسلية»، بتعبير زبينغيو بريجنسكي، قد يساعد في اكتناه جمهوره، الذي يجمع بين نموذج من نماذج النخبة ونموذج آخر على الطرف النقيض، يشكل اجتماعهما نوعاً من اجتماع العنصرية والشعبوية، وهو النموذج الذي يمكن مصادفته في كثير من الدول الأوروبية، التي تشهد صعود اليمين المتطرف والنازية الجديدة.

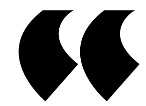
في أوساط مثل هذا الجمهور، وفي ظلّ ما وصفناه بالعودة أو النكوص إلى أسوأ ما في تاريخ الدولة القومية، لا تُستغرب إعادة إنتاج الاستشراق الأميركي، أو «اختراع الشرق»، الذي نهل من مناهل الاستشراق الأوروبي، لكنه يختلف عنه من حيث تركّزه في مجالين أساسيين: العلوم الاجتماعية، والإعلام، وهذا يتناسب مع النموذجين المشار إليهما فوق: النخبة وجمهور الإعلام. ولكن النسخة الأميركية الراهنة من الاستشراق تخص المسلمين والعرب أكثر مما تخص غيرهم من «الشرقيين»، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 والتحضير لغزو والعراق واحتلاله عام 2003. ويبدو لنا أن لأولوية «الحرب على الإرهاب الإسلامي» لدى ترامب وظيفة أساسية هي توكيد هذا النوع المستحدَث من الاستشراق والمتماشي مع حماقة «صراع الحضارات» وأدلوجة الليبرالية الجديدة. ولكن على ترامب أن يفصل بين الاستشراق و«العداء للسامية»، وهما متلازمان في الاستشراق الأوروبي، ومتجذّران في الثقافة الأوروبية المفرطة في مركزيتها وتمركزها على ذاتها، كما بيّن إدوارد سعيد.

يقول إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق» (في الصفحتين 435-436) «بدأ ظهور شخصية العربي المسلم في الثقافة الشعبية الأميركية منذ الحرب العالمية الثانية، وبصورة أوضح بعد كل حرب بين العرب وإسرائيل، وذلك حتى بعد الاهتمام الشديد الذي بدأ العربي يحظى به في الحياة الأكاديمية وفي عالم تخطيط السياسات ودنيا التجارة والأعمال، وهو ما يرمز إلى تغير كبير في التشكيلات الدولية للقوى، إذ لم تعد فرنسا وبريطانيا تشغلان الموقع الرئيسي على مسرح السياسة العالمية، بعد أن حلت السلطة الأميركية المهيمنة محلهما، وظهرت شبكة شاسعة الأطراف من المصالح التي تربط ما بين جميع مناطق العالم التي كانت مستعمرة وبين الولايات المتحدة».

في السينما والتلفزيون الأميركيين ترتبط صورة العربي إما بالفسوق وإما بالخيانة وسفك الدماء أو بتاجر الرقيق وسائق الجمال والصرّاف والوغد الجذاب أو بقائد



أغلب الظن أن العودة عن العولمة، بما لها وما عليها، صارت صعبة من دون تفكك نمط الإنتاج الرأسمالي، الذي لم يتبلور نقيضه التاريخي بعد، على اعتبار النظم الاشتراكية الآفلة أو الشيوعية الآفلة لم تكن، أو لم تستطع أن تكون، ذلك النقيض



لعصابة لصوص أو قراصنة،أو بالبدوي الذي يملك ثروة لا يستحقها. وأكثر ما يظهر في السينما، منذ عام 2001 في صورة الإرهابي، الذي يهدد حياة الأميركيين ويروّع نساءهم وأطفالهم.

ما من شك في أن لحظة ترامب لحظة فارقة، على المدى القصير، ولكنها عابرة في تاريخ الرأسمالية وتاريخ العولمة، وذلك لانطوائها على جملة من المفارقات، أشار إليها الدكتور الخفاجي في مقالته بجريدة الحياة اللندنية، حيث قال «أولى هذه المفارقات أن رئيس الدولة التي تُعتبَر النموذج الأكثر صفاءً للنهوض الاقتصادي وتحقيق الرفاه اعتماداً على قوانين السوق والحرية الاقتصادية وحريّة انتقال رأس المال بحثاً عن تعظيم الأرباح، يعمل على تقييد هذه الحرية. والثانية أن رئيس الدولة التي تملك أكبر نسبة من أسهم صندوق النقد الدولي والمتحكمة فيه فعلياً لا توافق على منح قرض لبلد إن لم ينفتح على حرية انتقال رأس المال، لكنها تقرر معاقبة رأسمالييها إن اتّبعوا قوانين السوق وقرروا الاستثمار في المكسيك أو الهند أو غيرها. والثالثة أن ينقض رئيس هذه الدولة ما تربّى عليه الأميركيون من أن الحرية السياسية والديمقراطية لا تتحقّقان إلا بتحقّق الحرية الاقتصادية المترادفة، وفق هذا الفهم، مع حرية انتقال رأس المال والعمل. والرابعة أن البلد الذي يفتخر بكونه أمّة من المهاجرين يصوّت لمصلحة بناء سور مع جاره لمنع الهجرة إليه، بل يطالب الضحية بدفع تكاليف بنائه، والخامسة أن البلد الذي تزعم العالم الحر وحماية أوروبا من الخطر الشيوعي، يريد أن يظل زعيماً بشرط أن يتقاضى مقابل زعامته».

ولم يخطئ من وصف دبلوماسية ترامب بدبلوماسية الصفقة. وفي ضوء ما تقدم، نفترض افتراضاً أن لحظة ترامب عابرة، في التاريخ، تنجت من ترهل الديمقراطية وفساد المؤسسات، وأن العولمة ستجدّد نفسها، مثلما تجدد الرأسمالية نفسها، وتعتني بالجنين الذي يتشكل في أحشائها، حتى تحين ولادته. وبومة منيرفا لا تطير إلا في الظلام.

كاتب من سوريا



قراءة في صعود ترامب

أحمد برقاوي

يمر العالم بتحولات عميقة وكيفية تؤسس لروح جديد مختلف، حتى ليصعب على العقل أن يقبض عليها ويرصد مآلاتها على نحو مطمئن.

فمنذ زوال الدولة السوفييتية وما رافقها من تغيرات في طبيعة العلاقات الدولية وعلاقات القوة ومنذ احتلال العراق وما ولّده من نتائج على مجمل العالم، وحتى انفجار الربيع العربي وما تمخض عنه من تغير في طبيعة القوى المتناظرة والجديد في عالم النفط وأسعاره وإنتاجه وخطوطه والتحول في سياسة الولايات المتحدة بزعامة الديمقراطيين وعلى رأسهم أوباما يعيش العالم نمطاً من الفوضى التي تحتاج إلى عقل استراتيجي كي يمتلكها على نحو نظري.

وليس بخافٍ على أحد من علماء السياسة ومفكريها وصانعيها بأن فقدان الدول الفاعلة، وبخاصة الولايات المتحدة، للريادة في مواجهة مشكلات العالم قد زاد من حدة الفوضى المعيشة الآن. فانزواء أميركا-أوباما عن مواجهة المشكلات التي ولّدتها مرحلة بوش الأب وبوش الابن وانشغال دول الاتحاد الأوربي بأزماتها الاقتصادية الداخلية واتجاه الصين نحو زيادة معدلات نموها الاقتصادي كل ذلك قد ترك المشكلات العالمية، وبخاصة المشكلات الإقليمية في المنطقة، تجري وفق نمط من الصراعات ليس أقلها الصراعات بين القوى غير المتناظرة.

وجاء انتخاب دونالد ترامب رئيساً للولايات المتحدة ليعلن عن تعين جديد لحال العالم اليوم. فكيف نفسر كل هذا تأسيساً على الظواهر السابقة؟ هذا السؤال يحتاج إلى سؤال فلسفي رئيس:

ما هو العالم اليوم من زاوية فلسفة التاريخ؟ وفي ضوء الإجابة عن هذا السؤال يمكن فهم الظاهرة البوتينية.

يمر العالم اليوم وفي هذه المرحلة بحالة هي أقرب إلى حالة الحرب غير المعلنة التي لا تخلو من الأخطار. إنها أقرب إلى حرب احتلال المواقع لاكتساب الهيمنة في حقبة من التاريخ اصطلح على تسميتها بالعولمة. وحين نتحدث عن العالم فإن علينا أن نحدد الدول من حيث فاعليتها ودرجة حضورها في تشكيل العالم، ومستوى الريادة في دورها في عولمة الحضارة من جهة وتشكيلها.

وفي ضوء ذلك فإن هناك اليوم عدداً من الدول الفاعلة بحكم ما تنطوي عليه من قوى اقتصادية وعسكرية وعلمية وتقنية وثقافية أهمها الولايات المتحدة الأميركية ودول أوروبا الغربية والصين وروسيا واليابان.

فما زالت أميركا منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن تحتل مركز الصدارة في عملية تشكيل العالم وإدارة صراعاته. والصين تصعد في المستويين الاقتصادي والعسكري و باتت معها قوة تتسلل دون ضجيج إلى مركز الصدارة.

في حين أن أوروبا العجوز تسعى لاستعادة شبابها ولكن ارتباطها بالولايات المتحدة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية يجعلها في وضع التفكير في نوع من الاستقلال عن الولايات المتحدة.

أما روسيا فهي مازالت عملاقاً عسكرياً يتكئ على الإرث السوفييتي ويسعى لاستعادة مكانته في عالم جديد في الوقت الذي تحول إلى قزم اقتصادي.

أما اليابان فهي عملاق اقتصادي وعلمي ولكنها قزم عسكري.

وتأتي في الدرجة الثانية الدول الأقل من حيث الفاعلية على مستوى العلم ولكن لم يعد أحد من دول الفاعلية الأولى بقادر على تجاهلها في معركة الهيمنة، وهي الهند وباكستان وتركيا وإيران ودول مجلس التعاون الخليجي. وهي دول تعيش مشكلاتها الإقليمية بفاعلية مرتبطة بالدول الأولى.

هناك عدة عوامل تحدد دول العالم من حيث حاضرها ومستقبلها وموقعها أولها العولمة. فالنزوع نحو الهيمنة في ظل العولمة وحلّ المشكلات الداخلية في ارتباط مع حركة العولمة.

ويبدو أن مصطلح القرية الكونية الذي شاع للدلالة على وحدة العالم التي أنجزتها العولمة لم يعد كافيا لفهم مسار العولمة. إذ يبدو أن هناك نزعة يمينية محافظة بدأت في الظهور في بلدان أوروبا وأميركا. نزعة تتجه نحواعادة التقوقع داخل جدران الدولة القومية ومصالحها. وهذا يعني أن أزمة في مسار العولمة كواقع موضوعي باتت تهدد مسار العولمة وتعلق مبدئيا مفهوم «القرية الكونية».

جون كول

فخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي والخطاب الانعزالي لترامب وعودة السلوك العسكري ممثلا بروسيا إلى الحياة ومشكلات أوكرانيا ودول البلطيق وجورجيا والخلاف الياباني الصيني ومشكلات السلاح النووي الكوري والإيراني ومشكلات اللاجئين، كل ذلك من الأمور التي باتت تنعكس على المزاج السياسي بوصفه مزاج مواجهة وليس مزاج دول تعيش في قرية واحدة.

تبدو العولمة اليوم في أزمة تطور تاريخي وهذه أزمة عالمية أولاً وأزمة دول ما زالت تفكر بعقل الهيمنة.

فما هي هذه الأزمة؟ إن الإمبريالية كتعين خاص للرأسمالية قد كونت العالم عبر حربين عالميتين. فهي عانت من أزمة تطور و قد نشأت الإمبريالية الألمانية النازية بوصفها تعبيراً عن أزمة اقتسام العالم وما رافقها من فاشية في إيطاليا واليابان ودكتاتورية سوفييتية. العولمة هي رأسمالية جديدة تعيش التناقض مع مرحلة الإمبريالية. فالإمبريالية وحدت العالم مع بقاء الدولة الإمبريالية متحكمة بحركة التاريخ. المشكلة في العولمة بأنها توحد اقتصاد العالم دون النظر إلى الدولة القومية ودون زوال الدولة القومية. فالصين هي دولة متعولمة اقتصادياً ولكنها دولة قومية وهكذا.

ولا يمكن فهم صعود ترامب وخروج بريطانيا من الاتحاد الأوربي إلا ثمرة هذا التناقض بين العولمة كمسار يوحّد العالم اقتصادياً وعلمياً وتقنياً ومعرفياً والدولة القومية الإمبريالية.

هنا يظهر التناقض التاريخي الخطير بين العولمة والنزوع نحو الهيمنة الذي يولّد أزمة في في مسار العولمة والذي يتخذ صور صعود قوى اليمين المحافظ وصعود الترامبية.

أما من حيث النزوع نحو الهيمنة فما زالت الولايات المتحدة الأميركية تتصدر دول العالم رغم وجود دول تنازعها على ذلك ولكنها لا تشكل قوح تنافسية كبيرة. فحين أتت البيريسترويكا السوفييتية علىالاتحاد السوفييتي كقوة عالمية فاعلية، انفردت أميركا بعملية تشكيل العالم.

فالريغينية والبوشية -الأب والابن- مروراً بمرحلة كلينتون حالات طبعت العالم بطابعها منذ ما كان يسمى بحرب النجوم مروراًباحتلال العراق وانتهاء باحتلال أفغانستان.

كانت فكرة أميركا القوية القادرة على فعل أي شيء قد سيطرت على عقل السياسة الاميركية ونظر لها بعض المفكرين

السياسيين ممن سموا بالمحافظين الجدد. مع مجيء أوباما بعد بوش الابن، الذي التف حوله المحافظون الجدد، تبنى الاتجاه الاوبامي سياسة مختلفة بل ومتناقضة مع سياسة المحافظين الجدد.

أدت سياسة أوباما خلال السنوات الثماني إلى فقدان العالم لدولة ذات ريادة في الوقت الذي نزعت فيه روسيا نحو استعادة المكانة العالمية عبر الهيمنة على البلدان الممكنة.

وهنا جاءت ظاهرة ترامب لتعيد أيديولوجيا أميركا القوية المهيمنة على العالم، أميركا التي تعيد إنتاج قوتها لتكسر رأس مسار التاريخ الذي حاول أن يجعلها قطباً من بين أقطاب وليس القطب الوحيد.

فعلى المستوى الإقتصادي الترامبية استعادة أميركا لهيمنتها الاقتصادية عبر إعادة إنتاج الدولة الإمبريالية القومية إنتاجاً وسيطرة على السوق ورفاهاً. وعلى المستوى العسكري إعادة إنتاج الجيش النزعة العسكرتارية للدولة القوية. أما على مستوى القيم فإن الترامبية نكوص القيم الليبرالية-الديمقراطية.

قد تفضي الترامبية إذا ما استمرت إلى إعادت العالم إلى مرحلة الصراع الدامي طلباً للهيمنة، لأن فكرة الدولة المهيمنة لا بد من أن تخلق العداوة نحو الهيمنة. وهكذا يعيش العالم اليوم انهيار العلاقات الدولية القديمة ومساراً نحو علاقات دولية لن تستطيع أن تخرج من مأزقها إلا بصراع دامٍ. ولم تأخذ شكلها النهائي حتى الآن والذي يزداد ضبابية لأن جملة الاحتمالات للسياسة الترامبية غير قابلة للتوقع. والحق فإن العولمة قد خلقت، في مسار تطورها، جملة من مشكلات محلية ذات أثر عالمي لا ندري كيف ستتعامل معها الظاهرة الترامبية؟

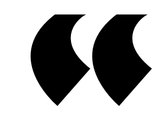
يبدو بأن دول الرفاه الأوروبية والأميركية قد وقعت في عقبة استمرار فازدادت معها نسبة العاطلين عن العمل ونسبة الفقراء وبالتالي نسبة الرعاع وهم حزام الفاشية عموما وجمهور ترامب ولوبين وما شابه ذلك.

وتزداد النزعة العسكراتارية الروسية دون أيّ حل لمشكلات روسيا الاقتصادية واللعب على وتر الشوفينية الروسية المعززة بنزعة مسيحية أرثوذكسية وتظهر هذه النزعة في التعامل مع أوكرانيا ودول البلطيق واحتلال القرم وجورجيا وأخيراً مع سوريا.

وتزداد الصراعات العالمية حول خطوط النفط والغاز ومساراتها بل يمكن القول بأن العالم حرب خطوط النفط. وهناك المسألة الكورية الشمالية وسلاحها النووي والبرنامج النووي الايراني ونزوع إيران نحو الهيمنة على البلدان ذات الأقليات



تبرز الكوميديا التاريخية حين تكون هناك أفكار في الرأس تلعب دور المشنقة لإعناق الإمكانات وللحيلولة دون ولادتها في الواقع، أو حين تكون أفكار رأس خال من جدل الإمكانية والواقع والإرادة



الشيعية وتغذية الصراعات الطائفية.

لقد أظهرت المسألتان السورية والعراقية آثارهما على النظام العالمي ككل وبخاصة بما ولدته السلطتان الحاكمتان بدعم إيراني من حروب وأصوليات تزيد من حال انتقال التوتر إلى عوالم جديدة وبخاصة في أوروبا، فضلاً عن الصراع بين الدول التي سميتها الأقل تأثيراً كالصراع الهندي-الباكستاني والصراع الإيراني-التركي والصراع على دول آسيا الوسطى والصراع العربي الفلسطيني-الإسرائيلي. وإذا أضفنا إلى هذه الصراعات التي تكفي لخلخلة السلم العالمي الصراع الروسي-الأميركي والصراع الأميركي-الصيني الذي يؤسس له ترامب والصراع الأميركي-الإيراني الممكن أدركنا بأن حركة التاريخ قد تنذر بفاجعة عالمية أو كارثة حضارية وبخاصة إذا ما تحولت الترامبية صورة لسلطات العالم.

لا يمكن النظر إلى التاريخ بوصفه حركة عفوية فحسب إنه ثمرة أفكار في الرأس أيضاً، أفكار تطرح ما يجب أن يكون عليه العالم، وتبرز الكوميديا التاريخية حين تكون هناك أفكار في الرأس تلعب دور المشنقة لإعناق الإمكانات وللحيلولة دون ولادتها في الواقع، أو حين تكون أفكار رأس خال من جدل الإمكانية والواقع والإرادة. ولكن هناك فرق بين تراجيديا تاريخية تحقق في الواقع ما كان في رحم التاريخ وهي التراجيديا الحقيقية وكوميديا الحمل الكاذب الذي تكون ضحيته الإرادة.

يضاف إلى هذين النمطين من التراجيديا والكوميديا وهم الإرادة الحمقاء التي تعتقد بأنها قد تكون سداً أبدياً أمام مجرى التاريخ، وبخاصة حين يكون المجرى في حال الطوفان. إن الخراب الذي تولّده الإرادة الحمقاء قد يفضي إلى نمط من الإنحطاط الكلي إذا ما كانت تمتلك فضلات قوة متبقية من إرث عنفها الطويل في قتل أجنة التاريخ.

والإرادة الحمقاء نمط من الاغتراب الجماعي التخريبي، الإغتراب الذي يزيّن لهذه الإرادة تجميد العالم عبر القوة في الوقت الذي لا تكون مهمة القوة هذه سوى تأخير انفجار الحياة.

كاتب من فلسطين مقيم في الإمارات





أن تكون هنا في أميركا

دونالد ترامب والاستبداد المُعَولَم

نجيب جورج عوض

خلال العقود الستة المنصرمة، غادر العديد من السوريين، ومن كافة المشارب والخلفيات والانتماءات والمعتقدات والإثنيات، بلدهم الأم سوريا باتجاه الولايات المتحدة الأميركية لأسباب عديدة ومتشعبة، ليس أقلها جدية وقهرية رغبتهم بالهروب من العيش في ظل نظام استبدادي فاسد طغياني شعبوي وعنصري ومصالحي كنظام الأسد الأب وبعده الابن. وقد كنت أنا أحد هؤلاء السوريين الذين قرروا أن يهاجروا من البلد بحثا عن فضاء عيش آخر يقدم لإنسانيتي الحرية والكرامة والعدالة والحق وفضاء العيش الذي يحترم حقوق الإنسان الأساسية والطبيعية ويحمي حقي الطبيعي بالحصول عليها.

كنت في التاسعة عشرة من عمري حين بدأت رحلتي هذه. وقد بدأتها وشرعت بها مدفوعاً (ومازلت) بعطش جارف للمعرفة والعلم والبحث عن الحقيقة في فضاءات الأكاديميا والثقافة العلمية في أصقاع العالم المتقدم. قادتني خارطة رحلتي من مدينتي الأم اللاذقية إلى بيروت أولاً ومنها إلى لندن، لأعيش وأدرس فيها وأحصل على درجة دكتوراه الفلسفة الأولى، ومنها إلى أميركا كباحث زائر لفترة قصيرة وبعدها إلى ألمانيا، حيث عشت وعملت كمحاضر جامعي وحصلت على درجة دكتوراه فلسفة ثانية، قبل أن أصل أخيراً إلى الولايات المتحدة الأميركية لأستقر فيها حتى هذه الساعة محاولاً أن أجعلها وطناً بديلاً لي وأن أصبح مواطناً من أحد مواطنيها.

هي رحلة بدأت بحلم الهروب من أرض وفضاء الاستبداد والقمع والفساد. اعتقدت أنني في الولايات المتحدة بتُّ أبعد ما يكون ثقافياً وسياقياً وجغرافياً عن عالم سوريا الاستبدادي. ولكن، ولاندهاشي العميق، ها أنا أرى نفسي مع سواي من السوريين الكثر المهاجرين لهذا البلد نقف على عتبة قيادة أميركية سياسية جديدة تحت إدارة دونالد ترامب لا يبدو أنها ستكون مختلفة كثيراً في ذهنيتها وممارساتها ومنطقها الإداري عن منظومة الفساد والاستبداد والكراهية والعنصرية والمصالحية والشعبوية التي اعتقدنا أننا تحررنا منها.

لم يمض على دخول دونالد ترامب وفريقه إلى البيت الأبيض أكثر من ثلاثة أسابيع وإذ بالبلد باتت تغرق في فوضى شعبوية وعنصرية ومجتمعية مخيفة وسوداوية على صعد عدة. لم يتورع دونالد ترامب عن الإفصاح دون مواربة أو دبلوماسية عن قناعاته ومواقفه ورؤاه ورغباته التي ستقرر طبيعة وأهداف إدارته للبلد حين يصل للبيت الأبيض. قال ما سيفعل دون أيّ تلميح. قاله وكأنه رسالة خلاص مسيانية يعلنها مخلص البشرية في ملء الزمان. قالها أمام الشعب الأميركي برمته وأمام العالم بأسره، مستغلاً العصر الإعلامي والإلكتروني والتكنولوجي العالمي الذي نعيش فيه ليعولم مشروعه الاستبدادي العنصري والشعبوي المغطس بالكراهية وليجعله خطاباً ناظماً لماهية المستقبل الذي تقف على أعتابه القرية العالمية التي نعيش فيها. قال بأنه سيكون مستبداً وعنصرياً وتفريقياً ومع هذا وصل إلى الموقع الذي لا يجب أن يصل إليه.

مثير جداً أن نتوقف ونتطلع لبرهة في ماهية التداعيات والإرهاصات المنهجية والحياتية لموجة عولمة الاستبداد التي تضرب الحياة البشرية اليوم على امتداد الكوكب والتي أوصلت دون سواها شخصا مثل دونالد ترامب إلى موقع رئيس أقوى دولة في العالم. مثيرة تلك العولمة المذكورة وقدرتها على تجاوز كافة أنواع الحدود والجغرافيا، وتأثيرها على موازين القيم والأخلاقيات والإنسانيات في السياق البشري، لتصل باستطالاتها وتمظهراتها إلى أركان العالم العربي والأوروبي-البريطاني، الأميركي والآسيوي، الروسي والأفريقي على حد سواء وتؤثر عليها جميعاً بطريقة تبدو واحدة تقريباً. بتنا نسمع اليوم عن العديد من الطغاة والمستبدين حول العالم لا يتورعون عن التعبير عن استعلائهم الطغياني على إرادة شعوبهم ووصايتهم عليه وعن تمسكهم بالسلطة وتغوّلهم فيها وتوظيف أيّ خطاب أو سياسة لتعزيزها مهما كانت تلك الأخيرة شعبوية وعنصرية وتفريقية ومليئة بالكراهية. ليس دونالد ترامب سوى «دعوة نمذجة» حية معولمة وعالمية وجدت من يحتضنها ويتبناها ويعمل على تطبيقها حول القرية المعولمة التي نحاول أن نبقى على قيد الحياة فيها. ما عاد يمكن اليوم الحديث عن «العالم الغربي المتقدم والحر» مقابل وضد «العالم غير الغربي المتأخر وغير الحر». ما عدنا نستطيع أن نتحدث عن «عالم ديمقراطي وتعددي ودولة قانون» ضد «عالم استبدادي أحادي ودولة هيمنة ووصاية». مع سقوط مفهوم «الجغرافيا» وفكرة «الموقع» (locationality and territoriality)، انعدمت الحدود الفاصلة بين تلك التصنيفات وقامت حالة «العالم الافتراضي» (virtual world) اليوم برميها في سلة التاريخ الحداثوية التي أنتجتها، تاركة الساحة للميل النهليستي والتشرذمي والاستنسابي المتطرف الذي جاءت به مابعد الحداثة. ليس غريباً أبداً أن دونالد ترامب يقدم نفسه ويتواصل مع الناس وكأنه يمثل في برنامج تلفزيون الواقع (reality TV) مصراً على جعل هذه الحالة بديلاً عن الواقع المعيش ومقياساً مرجعياً للحقيقة بحديث فريقه عن «الحقائق البديلة» (alternative facts) كبديل عن حقائق الحياة والتاريخ والعقل. وكأنه يريد خلق أميركا بديلة افتراضية لتحل محل أميركا الحقيقية. لدينا هنا تمرد من فضاء العالم الافتراضي ضد العالم التاريخي: ثورة من إنسان الشبكة العنكبوتية على إنسان الزمان والتاريخ. لدينا صورة نرسيس في المرآة تسعى لقتل نرسيس نفسه الواقف أمام المرآة.

كإنسانٍ قضى نصف عمره البلوغي سائحاً على دروب الأرض ومتنقلاً بين قارات العالم على جانبي المحيط الأطلنطي، وكسوري ترك أرضه الأم وهاجر نحو جغرافيا العالم الغربي وعاش في كافة مناخاتها وسياقاتها الفرنكوفونية والجرمانية الموجودة، أجد اليوم أن ما أعيشه في أميركا من نتائج سياسات إدارة ترامب العنصرية والتفريقية والطغيانية والمصالحية الشعبوية لا يختلف كثيراً عن سياسات تفشت في سوريا ووجدت لها تمظهرات في مناطق أخرى من القرية العولمية. ما هربت منه بات اليوم كابوساً يلاحقني في غربتي وشاطئ هروبي. لم تعد الجغرافيا لا عائقاً ولا مصدر وقاية ولا فرصة انعتاق. باتت مرآة متشظية كسرتها الصورة وخرجت منها وراحت تبحث عن صاحب الصورة لتطعنه في الصميم وتغتاله. باتت الجغرافيا نفسها تحتاج لانعتاق ولوقاية من مخيالها الافتراضي. باتت الجغرافيا ضحية العالم الافتراضي التخيلي الذي يجرفنا في دوّامته ويفرض علينا أن نحيا في شبكة عنكبوتية إلكترونية تعمل على تسويق الاستبداد وعلمنته. في هذه العولمة الافتراضية الإلكترونية بالذات تكمن قوة دونالد ترامب وفاعلية وتأثير ما يمثله: ترامب هو صورتنا النرجسية في المرآة تهبّ وتهجم علينا كي تحلَّ محلنا.

أيّ مصير للسوريين في قلب هذه المعمعة؟ لا يبدو مصيرهم واعداً أو مشرقاً أبداً. فهم خسروا بلدهم وأرضهم الأم، وخسروا إنسانيتهم وحيواتهم، وخسروا مستقبلهم وحقوقهم بسبب واقع استبدادي استخدم الجغرافيا لقتلهم بها. وهاهم اليوم يبدون كمن على وشك خسارة حتى شواطئ هجرتهم وترحالهم بسبب موجة استبداد تريد طحنهم في نفس المطحنة التي تفرم فيها الجغرافيا. يبدو فعلاً أن السوري ليس له سوى الترحال، والسؤال هو أيّ نوعٍ من الترحال في ظل موت الجغرافيا وفي ظل موت فكرة «الواقع»؟ ويبدو أن قصة ترحالي لم تصل إلى خواتيمها بعد، ففي ظل عولمة الاستبداد لا أعلم إن كنت سأجد مفراً ممّا قررت التحرر منه يوماً منذ أكثر من 25 عاماً مضت. يبدو أن رحلتي في الأرض اليباب مازالت تخط درباً طويلاً عبر تلك الصحراء في انتظار أن أتابع تيهي عليها. لطالما قلت في السنوات الأخيرة لأصدقائي الغربيين: السوري والسورية لا يخافان أبداً من الأرض اليباب، بل يفتحان أذرعهما ويعانقانها. نحن لا نخاف التيه... نحن غارقون فيه.

كاتب وأكاديمي من سوريا مقيم في أميركا

موفق قات



من المكارثية إلى الترامبية

مخاطر الانقلاب على الجوانب الإيجابية من العولمة

خطار أبودياب

تبوأ دونالد ترامب منصب الرئاسة والولايات المتحدة الأميركية أكثر انقساما وقلقا والعالم أقل أمنا وأكثر اضطرابا. وإذا كانت الحقبة الجديدة من تطور العولمة (نحو التصدع أو التهاوي) بدأت مع الأزمة النقدية العالمية في 2008 إلا أن الترامبية التي تمثل ظاهرة ترتبط بتطور الوقائع الأميركية وهي ظاهرة مستقلة وليست عابرة نظراً لانعكاسها المحتمل على الشمولية الاقتصادية من جهة وعلى التنوع وقبول الآخر في بلد تكون تاريخياً عبر سيول الهجرة والحلم الأميركي الذي داعب مخيلة شباب العالم. زيادة على تداعيات لحظة ترامب لجهة الارتباك في المشهد السياسي الدولي هناك خشية من تغذية التيارات العنصرية والإسلاموفوبيا في أميركا وغيرها.

ترتبط لحظة ترامب بالعداء لحرية الهجرة والعداء للآخر ثقافيا ووجوديا عبر تحبيذ خطاب القطيعة. وبالطبع لا تنفصل الحقبة الحالية عن تاريخ الولايات المتحدة الأميركية بالذات من المكارثية إلى الريغانية والمحافظين الجدد والأوبامية. ومما لا شك فيه أنه من منظور سياسي وثقافي وفكري فينومنولوجي هناك تفاعل بين تطور النظريات السياسية في العالم وبين الظواهر السائدة في واشنطن. والأدهى في مرحلتنا الحالية لا يتأتى فقط من انهيار نظام ما بعد الحرب العالمية الثانية والدور السياسي للغرب فحسب، بل من تراجع القيم الديمقراطية والإنسانية. هكذا سيتركز الاهتمام في الشهور والسنوات المقبلة على مراقبة مسارح النزاعات العسكرية والحرب التجارية في زمن ترامب، لكن دون إهمال الخلفية الثقافية والفكرية والتداعيات المحتملة على الجوانب الايجابية من العولمة خاصة فيما يتصل بالتجمع البشري والتكور الإنساني وفخ انكماش الهويات.

لم يتركز علم السياسة كعلم مستقل إلا ما بعد الحرب العالمية الثانية وكان للمدرسة الأميركية دور في تطوره واستقلاليته، ومما لا شك فيه أنه نتاج التاريخ (الجذور والمرجع) وعلم الاجتماع، مع الإشارة للصلة مع الأنثروبولوجيا (دراسة الأجناس البشرية ودراسة الأقليات والجماعات العرقية والصراعات العرقية وتطورها)، والإثنولوجيا.

وفي جميع الأحوال يتصل علم السياسة بالقانون والتاريخ الدبلوماسي والعلاقات الدولية، وهذا ما نلمسه من مراقبة تطور التاريخ الأميركي المعاصر والخلفية النظرية لكل حقبة.

ظهرت المكارثية (السلوك الذي يقوم بتوجيه الاتهامات بالتآمر دون الاهتمام بالأدلة) في بداية الخمسينات من القرن الماضي أيام الحرب الباردة نسبة إلى السناتور جوزف مكارثي الذي كان الواجهة الأمامية للحزب الجمهوري وجماعة المحافظين الذين ارتبطت أفكارهم برفض التجديد والتخويف من خطر الشيوعية (الخطر الأحمر).

وللوهلة الأولى اقتنع الكثير من الأميركيين أن الشيوعية «دين يريد القضاء على المسيحية». لكن تأثير مكارثي أخذ يتراجع بسبب معارضة شجاعة سياسية وإعلامية فندت الترويج للتآمر وجعلت الرأي العام يميل لعدم التسليم بمقولة الخطر الخارجي على حساب الدستور والحريات.

وعلى مر سنوات الحرب الباردة والقيادة الأميركية للغرب ارتبطت سيطرة اللوبيات المؤثرة (اللوبي النفطي والمجمع الصناعي العسكري خصوصاً) بالحروب والتنظير للتفوق الأميركي. لكن بعد نهاية حرب فيتنام وبدء نيكسون لمرحلة الانفتاح على الصين والتهدئة مع موسكو اتجهت واشنطن نحو الليبرالية الجديدة المتشددة والمنفلتة من كل قيد (الريغانية الملازمة للتاتشرية).

فخلال عهد رونالد ريغان طبقت الإدارة الأميركية سياسة «دعه يفعل» الاقتصادية بحرفيتها. واعتبرت الريغانية أن المبادرة الفردية المتحررة من القيود وحدها المؤهلة لتوفير الازدهار العام. ومنحت فكرة انسحاب الدولة من الحياة الاقتصادية الأولوية المطلقة. وشكّل خفض الضرائب والتخصيص ورفع القيود الركائز التي نهضت عليها الريغانية. وطبقت هذه السياسة في نهاية السبعينات من القرن



كاب بيرفا

العشرين في الولايات المتحدة وبريطانيا وانتشرت بعد ذلك في معظم بلدان العالم. وتميزت سنوات حكم ريغان بتراجع واضح لدور الدولة في الاقتصاد مما أدى إلى خلل اقتصادي-اجتماعي خطير لم يتمكن بوش من معالجته. واكتشفت الولايات المتحدة أن مواقعها التنافسية الدولية تقهقرت بسبب ضعف البنى التحتية وهزالة النظام التعليمي وعدم الالتفاف حول مشاريع تكنولوجية ضخمة خصوصاً إزاء اليابان وألمانيا حيث تلعب الدولة دوراً هاماً في الاقتصاد.

بيد أن الانتصار في الحرب الباردة أيام جورج بوش الأب والزهو بتركيب العالم وفق وجهة النظر الأميركية أجّل طرح الأسئلة الحيوية إبان ولايتي بيل كلينتون اللتين شهدتا زخما في النمو الاقتصادي، لكن ما قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر حصل تحول نظري مهم داخل الحزب الجمهوري الذي أوصل جورج بوش الابن معتمداً على «المحافظين الجدد»، وهم كناية عن تعبير سياسي فلسفي على قاعدة دينية منبثقة من الفكر الأصولي الإنجيلي ومجموعة متشددة في الحزب الجمهوري ولوبي يميني متطرف، تشكلت منذ ربع قرن حتى جاءتها الفرصة الذهبية لتقود انقلابا في التفكير والسياسة الأميركية وتقبض على مفاصل السلطة وتنظر لتزعم العالم والترويج لفكرة الإمبراطورية الكونية الجديدة. ومن دون شك أن الاندفاع الأميركي في حربي أفغانستان والعراق أتى بنتائج عكسية وبدأ سقوط الأحادية الأميركية في إدارة وقيادة العالم. ومهد ذلك لظهور الأوبامية مع وصول أول رئيس ملون، لكن الخطاب الأكاديمي والترويج للسلام مع القيادة من الخلف لم يسفر عن تحسينات في الداخل الأميركي أو على صعيد الاستقرار العالمي.

في كل هذه المراحل من المكارثية إلى نيكسون (وكيسينجر المنظّر والدبلوماسي الكبير) إلى الريغانية والمحافظين الجدد والأوبامية كان العالم عامة والغرب خصوصا يعيش على وقع تداعيات الأفكار والممارسة السياسية الأميركية. ومنذ سقوط الشيوعية كان لما يسمى الحرب على الإرهاب وعلى «الإسلام الجهادي» نصيب كبير في صنع السياسات الأميركية التي كانت دوماً بحاجة لعدو نظري وعملي في صياغة سياساتها وخططها الإستراتيجية. ولذا يمكن القول إن إخفاقات حقبة أوباما وانبثاق ما يسمى اختصارا بتنظيم «داعش» (مع ما رافقه من انتشار للإرهاب والإسلاموفوبيا)، كانت من الأسباب الرئيسية المسهلة لصعود ظاهرة ترامب واختراقها.

قبل الحملة الانتخابية الأميركية في عامي 2015 و2016 بدا التخبط العالمي مهيمناً وهناك القليل من الأسباب التي قد تدعو للتفاؤل مثل تجديد اتفاق السلام في كولومبيا أو الانفتاح على كوبا والاتفاق النووي «الناقص» مع إيران. لكن الحكايات المشجعة مثل هذه قليلة ومتباعدة. فالاتحاد الأوروبي على سبيل المثال كان رمزاً بارزاً لالتزام دوله الأعضاء بالتسامي فوق تاريخهم الحافل بالحروب والصراعات؛ أما اليوم بعد البريكست فنجد أن هذا الاتحاد يسير بحركة بطيئة نحو التفكك.

وإذا ما انتقلنا إلى مناطق أخرى فسوف نجد أنّ الأمل الفلسطيني بدولة يتحول إلى سراب وأنّ سوريا قد تحولت إلى أرض مدمّرة وأنّ دولاً أخرى مثل الصومال

والعراق وجنوب السودان وليبيا.. غارقة في دورات عنف لا تبدو لها نهاية قريبة في الأفق.

وفي قارة آسيا نجد أن المشهد السياسي يتغير بشكل متسارع وليس بالضرورة أن يكون إيجابيا. يضاف إلى ذلك أن الخطوط الحمراء الواضحة التي تساعد الدول على عدم التعدي على المصالح الحيوية لبعضها البعض قد أخذت تتلاشى هي الأخرى. ومع تآكل التقاليد الخاصة بالسيادة تعددت أساليب التدخل في شؤون الدول الأخرى، ناهيك عن مخاطر انحرافات عالم القراصنة الإلكترونيين «الهاكرز»، والأسلحة الإلكترونية والطائرات التي تطير من دون طيار «الدرونز».. وغير ذلك من أدوات القوة الجديدة، نجد أن احتمالات وقوع صراعات بين الدول آخذة في التصاعد ونجد أن المشهد الدولي برمته يشهد صراعات تتزايد باستمرار.

ما قبل لحظة ترامب وإبان الحملة التي مهدت لوصولها لم يعد «العالم الجديد» النموذج الديمقراطي الذي تصوّره توماس جفرسون. لقد تغيرت الولايات المتحدة الأميركية بعمق مع سقوط الكثير من المحرّمات واهتزاز في تركيبتها الاجتماعية والسياسية والطلاق بين شريحة واسعة من الرأي العام مع الإيستابليشمانت (النظام أي المؤسسة).

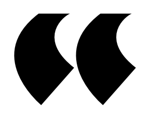
لا تفاجئنا هذه الأميركا في تمثيل رجل الأعمال دونالد ترامب دور المدافع عن المهمش والأميركي الأبيض في آن معا أو في حجم تمويل حملة هيلاري كلينتون وأثر سلطان المال واللوبيات المختلفة. لكنها تبهرنا وتصعقنا أحيانا بكل ما هو جديد وما يتعدى كل الحدود مع خطط استعمار المريخ أو وضع الحامض النووي (ADN) قيد التداول وغيرها من صرعات جنون العظمة والتفوق عند طبقة من كبار أغنياء التكنولوجيا الذين ينشطون لتغيير المستقبل مع الإنسان الآلي (الروبوتات) والطائرات دون طيار والمدن الجديدة النموذجية والطاقة القابلة للتجديد.

بيد أن الواقع الأميركي لا يبدو ورديا إذ أن أميركا المرئية عن بعد بحكم الدعاية الإعلامية الجبارة وهوليوود هي الأكثر تقدما وتطورا وإبداعا ويصح ذلك لناحية السبق العلمي والتكنولوجي وعدد براءات الاختراع.

لكن الوجه الآخر يتمثل في العنف والجشع وشهوة السيطرة وسهولة القتل (من خلال ترخيص حمل السلاح)، وتملك نسبة كبيرة من ثروات الولايات المتحدة واقتصادها العملاق من قبل أقلية أوليغارشية إلى جانب كارتلات الصناعات الحربية والبترولية وغيرها. ويكمن الأدهى في ازدياد الفوارق الاجتماعية وانعدام المساواة.



ما قبل لحظة ترامب وإبان الحملة التي مهدت لوصولها لم يعد «العالم الجديد» النموذج الديمقراطي الذي تصوّره توماس جفرسون. بعمق مع سقوط الكثير من المحرّمات



لم يتحرك في العشرين السنة الماضية المتوسط العام للأجور بينما تضاعفت المداخيل التي يحتكرها 1 بالمئة من كبار الأغنياء. وترافق ذلك مع تداعيات الأزمة النقدية في 2008 وآثار العولمة السلبية على أوضاع العمال والعاطلين عن العمل وغموض الأفق عند شباب لم يجدوا ضالتهم إلا في الديمقراطي بيرني ساندرز ووصفاته الاشتراكية، بينما يهرب الكثير من ضحايا الانقلابات الاجتماعية والرأسمالية نحو الخطاب العنصري والديماغوجي الذي يمثله ترامب.

بالرغم من المحظورات في صميم الإيستابليشمانت يطغى على السطح خلل ثقافي في أغنى وأقوى دول العالم لأن شعبية ترامب لها صلة بانهيارات منظومة القيم وتداعيات الليبرالية الجامحة وتجدر الإشارة إلى أن ترامب يمثل نوعا من الاستمرارية في الحزب الجمهوري لجهة رفض الهجرة والمطالبة بالدولة القوية أو في العودة إلى نزعة الانعزال عن العالم.

لا تشمل نهاية الاستثناء الأميركي الداخل بل سينعكس الأمر على صورة أميركا وحراكها العالمي.

منذ عقدين من الزمن قالت مادلين أولبرايت إن «الولايات المتحدة الأميركية قوة لا غنى عنها في العالم». ووصل التبشير مع المحافظين الجدد لتسويق الأحادية الأميركية مع التركيز على استثنائية المشروع الإمبراطوري الأميركي. في أواخر القرن العشرين بدت واشنطن وكأنها روما وأثينا وإسبارطة ومقدونيا في آن معا. وبالطبع فإن النجاحات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والعلمية والثقافية كانت تؤكد على استثنائية القوة الأميركية في العصر الحديث.

انتهت اللحظة الاستثنائية للقوة الأميركية مع مغالاة واشنطن في الإدارة الأحادية للعالم بعد نهاية الحرب الباردة والتي تلتها عودة روسيا وصعود الصين والأزمة النقدية العالمية منذ 2008 وما تبعها من انتقال مركز الثقل الاقتصادي نحو جنوب الكرة الأرضية. حتى إشعار آخر لن تُسلّم أميركا بفقدان دورها القيادي مع تعمق نزعة التعالي وصعوبة إصلاح السياسات الأميركية.

ويصرّ البعض داخل المؤسسة الأميركية على التسويق لمشروع إمبراطوري يهدف إلى تثبيت التفوق الأميركي وتحويله إلى سلطة عالمية تفرض سطوتها على القرن الحادي والعشرين (على الأقل). بالطبع تحافظ واشنطن على الكثير من عناصر قوتها عسكريا وسياسيا واقتصاديا وعلميا وثقافيا، بيد أن تشكيل العالم وفق التصور الأميركي والرغبة الأميركية ليس ممكنا في ظل التحولات المتسارعة وخلط الأوراق في اللحظة الراهنة من العلاقات الدولية.

الترامبية تمثل بعد أكثر من ستين عاما عودة شكل من المكارثية إلى الواجهة من جديد عبر نفس الحزب الجمهوري، مع الاختلاف في تسمية العدو في الوقت الراهن حيث يبدو الإسلام في هذه الحقبة بمثابة العدو الأبرز لأميركا.

لكن الترامبية تعكس في العمق المأزق في المسار الأميركي بعد نهاية الحرب الباردة لأن «نهاية التاريخ» لم تحصل ولأن عصر الرخاء والسلام لم يحلّ ولأن التبشير بالديمقراطية أو فرضها لا يمرّان من دون مقاومة ولأن العولمة الشمولية غير الإنسانية أصبحت عبئا على الولايات المتحدة التي قادتها. إزاء هكذا تحديات تتركز أجوبة ترامب على مواجهة الآخر وتحبيذ التمييز العنصري من جديد والانعزال.

مع تمركز دونالد ترامب هبّ إعصار سياسي وقانوني وبرز ذلك مع الصخب في المواقف وكمية القرارات التنفيذية الموقعة وبعضها مثير للجدل، ومن أبرزها قرار منع دخول الأراضي الأميركية على رعايا من سبعة بلدان غالبيتها إسلامية تحت عنوان الحماية من خطر الإرهاب. ومن الواضح أن ترامب، الذي يريد أن يثبت بدء عهد جديد في واشنطن والعالم وأنه كان يعني ما يقول خلال حملته الانتخابية أو في المرحلة الانتقالية قبل تسلّمه الحكم والذي تطرق سابقاً لاحتمال فرض حظر على المسلمين، استعجل إصدار قراره حول التأشيرات والإقامة من دون أن يستشير بقية المؤسسات ويفحص قانونية القرارات.

في كتابه «روح القوانين» الصادر في عام 1748 أرسى الفرنسي شارل مونتسكيو نظرية فصل السلطات ومن أهم مبادئها « السلطة تحد السلطة»، واليوم تبرز أهمية هذا المبدأ في الولايات المتحدة الأميركية حيث تنبري السلطة القضائية للوقوف في وجه سيد البيت الأبيض الجديد لكي لا تخالف قراراته التنفيذية الدستور الأميركي ومنظومة قيمه التي تحرم التمييز على أساس الدين والجنسية.

في النظام الرئاسي الأميركي لا يعدّ الرئيس طليق اليدين وهو مقيد باحترام لعبة المؤسسات ابتداء من حزبه إلى الكونغرس المكوّن من مجلسي النواب والشيوخ. وفي هذا النظام الفيدرالي تمثل المحكمة العليا رأس السلطة للحكم في دستورية القوانين وشرعيتها.



في مواجهة المكارثية الجديدة والحملة ضد الإعلام وإشهار سيف التخوين يمكن أن تحصل صراعات مفتوحة خالية من القواعد ومن الموانع في سبيل تحقيق القوة والنفوذ السياسيين



تبعا للارتباك الذي حصل داخل المجتمع الأميركي الذي يعاني من انقسامات تهدد تعدديته وتذكّر بمراحل التمييز العنصري لا تبدو مهمة ترامب سهلة في إدارة نظام ديمقراطي عريق بمراسيم وقرارات تنفيذية غير مدروسة تضرب صورة الولايات المتحدة البلد الذي تكوّن من المهاجرين وقدم نفسه زعيماً للعالم الحر في فترة الحرب الباردة.

بالفعل يهز «الإعصار» دونالد ترامب الغرب ويهدد وحدة موقفه. من ترحيب الرئيس الأميركي بالبريكست وتأييده الضمني لإضعاف أو انفراط عقد الاتحاد الأوروبي يخشى الغرب الأوروبي من التغريد المنفرد للغرب الأميركي إذ لم يتردد ترامب عن التشكيك بحلف شمال الأطلسي دعامة الغرب العسكرية.

كما يتنوع «الشرق» جغرافياً وسياسياً وحضارياً ويختلف من أدناه إلى أقصاه يرتسم في الأفق تنوع مماثل في «الغرب» بمعناه الأوسع مع احتمال تحلل الرابطة الغربية بجناحيها الأميركي والأوروبي. تطالب الكثير من الأوساط الأوروبية بتعويض احتمال انشطار الغرب السياسي «حتى لا يضيع الغرب بالكامل كنموذج وقدوة لحقوق الإنسان والحرية والكرامة ودور الفرد». بيد أن هذا النموذج يواجه ضغوطاً داخل أوروبا من قبل الحركات القومية المتشددة والشعبوية في فرنسا وهولندا وألمانيا التي يمكن أن تحرز نجاحات تدفع للمطالبة بالخروج من الاتحاد الأوروبي. ولذا ترتبط حيوية الغرب الأوروبي وموقعه على الساحة الدولية بقدرته على الدفاع عن نفسه إزاء التوجهات الأميركية الجديدة ولا يمكن ذلك من دون إعادة بلورة المشروع الأوروبي بصيغة أكثر تماسكاً. كما يبدو من المهم رفض الاستشراق العنصري في أوروبا وضرورة اشتراك النخب العربية والمسلمة في السجال الفكري الدائر حول الإسلام وتطويره.

في مواجهة المكارثية الجديدة والحملة ضد الإعلام وإشهار سيف التخوين يمكن أن تحصل صراعات مفتوحة خالية من القواعد ومن الموانع في سبيل تحقيق القوة والنفوذ السياسيين، وهي صراعات ستشكل من دون شك تهديداً خطيراً للنظام الدستوري والاستقرار الداخلي في الولايات المتحدة.

كاتب وأكاديمي من لبنان مقيم في باريس



إحياء خطاب غربي يعادي الإسلام

إبراهيم سعدي

تشهد أوروبا وأميركا منذ عقود صعود التيارات اليمينية المتطرفة واستشراء الشعبوية، وكلتاهما تتولد في العادة عن أزمة اقتصادية أو ثقافية أو ديمغرافية تطول مدّتها ويستعصي حلّها، فتتوسل بأيديولوجيا ما لطرح حلول تعتقد أنها سوف تخرج البلاد من أزمتها، وتعيدها إلى المسار الصحيح، ولا تتورع، إحداهما أو كلتاهما، عن استعمال الديماغوجية لتضخيم مؤشرات الأزمة، واستغلال خوف الناس من جرائر الكساد الاقتصادي، ومن كلّ ما يأتي من وراء الحدود، بشرا وبضائع. والحق أن اليمين المتطرف، وإن اصطبغت أيديولوجيته في الغالب بخطاب شعبوي، يختلف من جهة مفهومه عن الشعبوية، التي قد تصدر عن اليمين واليسار على حدّ سواء، وقد تكون مدعاة لرصّ الصفوف وجمع القوى العاملة، على عكس الصورة التي يروّجها الإعلام عنها.

يعرّف المؤرخ الفرنسي نيكولا لوبور اليمين المتطرف بكونه حقلا سياسيا يجمع عدة تيارات، تلتقي حول رؤية للعالم تقوم على مذهب العضوانية الذي يقول إن المجتمع يشتغل ككائن حي، ومن ثَمّ فهي تروّج لمفهوم عضواني عن المجموعة (استنادا إلى الإثنية أو العرق أو الجنسية) وتؤكد على رغبتها في إعادة تشكيلها بكيفية متجانسة، فتغذّي طوباوية «مجتمع مغلق» قادر على تأمين نهضة المجموعة. وأنصار اليمين المتطرف يرفضون النظام السياسي القائم من جهة مؤسساته وقيمه، ويعتبرون أن المجتمع في انحطاط تُمعن الدولة في تدهوره، وبالتالي فإن مهمتهم تكتسي طابع الإنقاذ، إنقاذ المجتمع وإنقاذ الدولة، فيتشكلون في هيئة مجتمع مضاد، يرفض النظام الجيوسياسي القائم، ويقدمون أنفسهم كنخبة بديلة. هذا التعريف، يقول نيكولا لوبور، يغطي الحقل الواسع لليمين المتطرف، ويشمل أولئك الذين يتوقون إلى إعادة صياغة المؤسسات على نحو استبدادي متسلط، على غرار الذين يتمنون ثورة شاملة تحط من قيم المعطيات الموروثة عن الليبرالية السياسية. هؤلاء هم من أنصار اليمين الراديكالي، الذي ظهر في خضم الحرب العالمية الأولى، والتي كانت الفاشية تياره المهيكِل، دون أن يكون الوحيد. وهو تيار لم يتطور إلا في بعض الحالات كمَجريّي «جوبيك» ويونانيي «الفجر الذهبي».

أما الشعبوية، فهي كالحقيبة تحوي كل شيء، دون أن تكون خاصة بفضاء جغرافي بعينه، ولا ذات فحوى سياسية محددة، فمن فيكتور أوربان في المجر إلى هوغو شافيز في فنزويلا، مرورًا بأردوغان في تركيا وليخ كازينسكي في بولندا وبيبي غريلّو في إيطاليا وكريستوف بلوخر في سويسرا ومارين لوبان في فرنسا ودونالد ترامب في الولايات المتحدة، تتعدد الشعبوية وتتخذ أوجها مختلفة، فنجد فيها دعوة إلى سيطرة الدولة كليا أو جزئيا على وسائل الإنتاج مثلما نجد تمجيدا للمبادرة الفردية، ونجد الاحتفاء بالهوية الدينية إلى جانب الدفاع عن العلمانية. وخلافا لما يشاع عن كونها متولدة من الطبقة الوسطى التي وقع تفقيرها، ليس للشعبوية محتوى سوسيولوجي: فلئن كانت الطبقات الميسورة هي التي صوتت لترامب مثلا، فإن قادة الشعبوية في شرق أوروبا هم من مؤيدي الإصلاح الزراعي وجلهم من الشرائح القروية الفقيرة. أضف إلى ذلك أن لكل حزب سياسي، يمينيا كان أم يساريا، «مكونًا شعبويًا»، يدّعي تمثيل الشعب ضد «المنظومة» والنخبة والأجهزة السياسية، ما يجعل التحديد المفهومي غائما وسط البلاغة والخطابة، ذلك أن «الزعيم الشعبوي يسعى إلى جعل المتغير ثابتا، واستخلاص عبرة أخلاقية حاسمة تسمح باعتبار المعارض غريبا وسيئا في جوهره؛ فالزعيم لا ينزل عند رغبة متواصلة للإرادة العامة، بل يرتكز على شرعية نهائية حاسمة تسمّى «روح الشعب»، كما يقول أستاذ العلوم السياسية الألماني يان فيرنر مولَر في كتابه «ما الشعبوية؟»؛ وفي رأيه أنّ خصائص هذه الظاهرة يمكن تلخيصها في كونها «ضدّ النخبوية، وضد التعددية، وضد البرلمانية، تؤمن بالاتصال المباشر، والتواصل التخاطري تقريبا بين الشعب والناطق باسمه».

إن أغلب منظّري الديمقراطية يتفقون على أن «الإرادة الشعبية» هي مسألة معقدة، ولكن أفضل التوصيفات الذكية للشعبوية، كما يقترحها الأرجنتيني إرنستو لاكلو، تحاول أن تفهم كيف ترتبط زُمر وهويات ومصالح خاصة شتى ببعضها بعضا دون أن تفقد خصوصيتها. وفي نظر لاكلو أن جهد التمفصل في سلسلة ارتباطات بين



محمد عمر خليل

هويات مختلفة هو هدف الشعبوية، أي أنها ليست التقاء فاشيا مع «إرادة فريدة» ولا بروز قائد ذي كاريزما لتوحيد الشعب. فالشعبوية إذن موجودة في اليسار وموجودة في اليمين كما تتجلى في مثال دونالد ترامب.

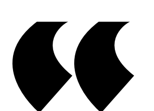
إن لانتخاب هذا الرجل رئيسا لأميركا أسبابا عديدة، أجملها المحللون في أصوات الناخبين البيض الذين يواجهون ظروفا اقتصادية صعبة، ووعوده هو بسدّ الباب أمام المهاجرين لخلق حظوظ أوفر في سوق الشغل، ووقاية الأميركان من الإرهاب الإسلامي. ولكنهم يغفلون عن العنصرية المتجذرة في المجتمع الأميركي منذ أمد بعيد، والتي أذكى جذوتها بخطاب شعبويّ طوال حملة استند فيها إلى أنصاره من العنصريين وأعداء المهاجرين المنتمين إلى «الفطرية» (nativisme) وهي حركة أسسها عام 1830 بورجوازيون بروتستانت من أصول إنكليزية، كانت تقود حملات لإيقاف الهجرة الكاثوليكية،

لكونها تهدد، حسب زعم أعضاء الحركة، الديمقراطية الليبرالية البروتستانتية). فما وصفوه بـ«الغضب الاقتصادي» إنما تضافر مع الحقد العنصري لإيصال رجل يذكرنا جهلُه بالسياسة وقلةُ خبرته بدواليبها بالترويكا التي حكمت تونس أو مرسي العياط وإخوانه في مصر بعد الثورة. لقد استغل هو وجماعته مناخا متوترا منذ أحداث 11 سبتمبر طغى فيه الخوف من الإرهاب والرغبة في تعزيز الأمن ولو على حساب الحريات، كما هو الشأن في بلدان أوروبية كثيرة، ليمرّر خطابا طوباويا هاذيا فتح الباب أمام الأحقاد والضغائن والعنصرية، ليس في أميركا وحدها، بل في كافة أنحاء أوروبا حيث وجدت أحزاب اليمين المتطرف في «الأخ الأكبر» مثالا وقدوة. صحيح ألّا وجود حتى الآن لأمميّة فاشية، ولا لوحدة بين مختلف أحزاب اليمين المتطرف في أوروبا وسواها، بيد أن سمات مشتركة كثيرة بدأت تبرز في الأعوام الأخيرة، وتوحي بأن المجتمعات الأوروبية باتت تتحرك ككيان حيّ، كالدعوة إلى طرد المهاجرين لحلّ أزمة البطالة، والتذكير بجذور أوروبا اليهودية المسيحية حفاظا على الهوية حينا والقومية حينا آخر أمام غزو إسلامي مزعوم، لا سيما عقب أعمال العنف التي ضربت بعض المدن الأوروبية.

ولكن الخطاب الشعبوي شيء، وتطبيقه شيء آخر، لا سيما على رأس قوة عظمى ترى في كل نقطة في الكون جزءا لا يتجزأ من أمنها القومي. وهو ما لم يحسب له ترامب حسابا. فبعد أسبوع واحد، وقرارات لم يستشر فيها أهل الذكر كي يعرف مدى شرعيّتها وجوازها قانونيا ودبلوماسيا، بدا مثل الملك أوبو، بطل مسرحية ألفريد جاري، يصدر أحكامه بانفعال وحقد وتشفٍّ، كيفما اتفق، لفائدة مصلحته الشخصية، وإرضاء لفئة جاءت به إلى السلطة. يخاطب زعماء البلدان الأجنبية وكأنهم موظفون في شركاته وفنادقه، كما حصل مع الرئيس المكسيكي حول الجدار العازل، ورئيس الوزراء الأسترالي حول استقبال المهاجرين. والفرق الوحيد أن أوبو استولى على السلطة بقتل الملك، فيما وصل إليها ترامب عن طريق الاقتراع، وإن كان ما حصل عليه أقل من منافسته هيلاري كلينتون بثلاثة ملايين صوت، أما الطبائع والسلوك فمتماثلة أو تكاد. فأوبو ذاتي المركز لا يفكر إلا في مصلحته الخاصة؛ غير أمين لا يفرق بين الملك العام والشؤون الخاصة؛ عديم الكفاءة لا تنفك حاشيته تتعقب سقطاته وقراراته الخرقاء؛ سوقيّ يشتم كل من حوله لا يستثني حتى زوجته؛ فظّ يهين رعيته ويتخلص من خصومه. كذلك ترامب بل



أغلب منظّري الديمقراطية يتفقون على أن «الإرادة الشعبية» هي مسألة معقدة، ولكن أفضل التوصيفات الذكية للشعبوية، تحاول أن تفهم كيف ترتبط زُمَر وهويات ومصالح خاصة شتى ببعضها بعضا دون أن تفقد خصوصيتها



زاد عليه، إذ يعاني فوق ذلك كله، حسب بعض المتخصصين، من نوع من النرجسية يخالف أشكال النرجسية الأخرى، يميل بصاحبه إلى الشر، لكونه اضطرابا نفسانيا خطيرا، يتميز بغياب الوعي، وتنميق في أساليب الخطاب مشفوع بتعطش كبير إلى النفوذ، ونزوع إلى السادية، مثلما جاء في تقرير الطبيب النفساني أوتو كيرنبرغ عام 1984. كما أن كاتب سيرته يؤكد أن الرئيس الأميركي الجديد يعاني من عجز في الانتباه يمنعه من التركيز أكثر من بضع دقائق في موضوع واحد، ولذلك غالبا ما يعهد لمقربيه وحتى أبنائه بدراسة الملفات التي ينبغي أن يتخذ فيها قراره. ومن ثَمّ فإن «ما يثير القلق فعلا ليس هوية الناخبين الذين أوصلوه إلى السلطة، ولا أعضاء حكومته، بل الرجل نفسه»، كما قال ديديي فاسّان أستاذ العلوم الاجتماعية ببرنستون.

لن يكون لمثل هذه التطورات تأثير لو حدثت في بلد غير ذي وزن على الساحة العالمية، كحال إيطاليا في عهد برلسكوني، ولكن أن يحدث ذلك في أميركا، فهو مؤشر على أن التبعات ستكون كبيرة وخطيرة، لا سيما أن وصول ترامب إلى السلطة ترافق مع المدّ اليميني المتطرف في سائر أنحاء أوروبا، وانتشار العنصرية والإسلاموفوبيا، وعودة نزعة استشراقية عنصرية جديدة، نلمسها في وسائل الإعلام الفرنسية مثلا، وفي عدد المنشورات التي يدّعي فيها أصحابها معرفتهم بالعرب ودينهم. وترافق أيضا مع قراراته المتهافتة التي لا تخضع لمنطق، كضرورة إعادة النظر في حلف الناتو، الحلف الوحيد الذي لا يزال متماسكا؛ وتشجيعه على تفكيك الاتحاد الأوروبي وإضعاف أوروبا أمام الخطر الروسي، حليف واشنطن الأول؛ وخاصة قراره بمنع مواطني عدد من البلدان العربية والإسلامية من دخول أميركا، وهو قرار أثار سخط العالم أجمع، حتى منظمة الأمم المتحدة، إلى جانب توقيعه على مذكّرة انسحاب بلاده من اتفاقية التبادل الحر عبر المحيط الهادئ. حتى ليحار المرء في فهم مقاصد رجل أعمال يستفيد من العولمة ويريد جرّ بلاده إلى العزلة.

لقد المعادية لحرية الهجرة، والمعادية للآخر ثقافيا وإنسانيا. والحق أن موقف ترامب، وإن بدا غريبا، ليس جديدا على أميركا فقد اتخذت في الماضي قرارات مماثلة بداية من القرن التاسع عشر، كحركة الفطرية التي أسلفنا ذكرها أعلاه، ثم القانون الذي صدر عام 1884 ضد الصينيين بحجة التصدي لمطامعهم في ذهب المناجم الأميركية، وشمل اليابانيين من بعدهم، وكذلك قانون «جونسون ريد» الصادر عام 1924 لتحديد نسب الوافدين من أوروبا الشرقية، فضلا عما سمّي بتوقي «الخوف الأحمر» إشارة إلى سياسة المراقبة التي فرضتها السلطات على دخول المهاجرين الأوروبيين بعد الثورة البلشفية عام 1917، مثلما فرضتها على كل الوافدين من أوروبا عند اندلاع الحرب العالمية الثانية عام 1939.

لتبرير تصلّبه أمام بقية دول العالم، يستعمل ترامب عبارة «أميركا أولا»، التي تحيل على لجنة بعثت عام 1940 لمنع دخول الولايات المتحدة الأميركية في حرب ضد ألمانيا النازية، (وضمت شخصيات معروفة أمثال هنري فورد ووالت ديزني والطيار تشارلز ليندبرغ والممثلة ليليان غيش والروائي سنكلار لويس والشاعر إدوارد كامينغز وغيرها من الشخصيات الديمقراطية والاشتراكية)، ثم وقع حلّها عقب الغارة اليابانية على بيرل هاربر.

وبالرغم من أن العبارة صارت مستهجنة في المجتمع الأميركي منذ ذلك التاريخ، لكونها توحي لديهم بمعاداة السامية، من جهة عدم تعاطف الأميركان مع اليهود وكرههم مقاومة هتلر، فإن ترامب أصرّ على استعمالها حتى في خطاب تنصيبه «من الآن، ستكون أميركا أولا. كل قرار في الاقتصاد، والضرائب، والهجرة، والشؤون الخارجية سوف يُتخذ لفائدة العمال الأميركان والعائلات الأميركية.» وبصرف النظر عن كونه عاب على خصمه بات بوكانان استعمالها في انتخابات عام 2000 ونعته بـ«عاشق هتلر»، فإن خطاب تنصيبه نصّ صراحة على «الحماية» حيث قال «علينا أن نحمي حدودنا من الأضرار التي تلحقها بلدان أخرى بمنتجاتنا، وتنهب شركاتنا وتتلف فرص شغلنا. الحماية ستؤدي إلى رخاء كبير وقوة».

والحق أن ترامب ليس استثناء، وما فعله إنما هو إعادة تقليد جمهوري قديم تضاءل بعد الحرب، فمن جورج واشنطن إلى أبراهام لنكولن سعى الجمهوريون إلى إقامة جدار تَعرفيّ يحمي الصناعة الأميركية الناشئة، بل إن بعض المؤرخين يؤكدون على أن الحمائية هي أحد الأعمدة المؤسسة لفكرة أميركا، وأن حرب التحرير تجد جذورها في العجز التجاري مع إنكلترا. ولم تتراجع تلك الحمائية إلا في مطلع ثلاثينات القرن الماضي، حين أدى قانون الترفيع في الضرائب الجمركية على



استغرب الملاحظون رغبة ترامب في عزل بلاده عن العالم دبلوماسيا، وسدّ الباب أمام المهاجرين، وتوخّي سياسة تجارية تقوم على الحمائية، وتساءلوا كيف أمكن لثقافة بلد قام على الهجرة أن تنتج مثل هذه الظاهرة



مئات المنتجات التي فرضها الكونغرس على الرئيس هربرت هوفر إلى إغراق العالم في دوامة حرب تجارية، زادت الأزمة الاقتصادية والمالية العالمية حدة.

بعد الحرب، تبنى الجمهوريون والديمقراطيون التبادل التجاري الحر، شجعهم على ذلك ضعف المنافسة في البلدان الخارجة من حرب كونية مدمرة. وظل الأميركان يساهمون في عدة اتفاقيات دولية متعددة الأطراف حتى تأسيس المنظمة العالمية للتجارة التي سوف تعمل على إزالة الحواجز الجمركية في أنحاء العالم.

غير أن الرأي العام الأميركي تغير منذ مطلع الألفية الثالثة، نتيجة الأزمة المالية والأضرار التي ألحقتها المنافسة الصينية ببعض أحواض الشغل الصناعي في أميركا، وهو ما تنبه له ترامب، فقرر وضع حد لعهد التبادل الحر، والعودة إلى الاتفاقيات الثنائية، لأنه كما يقول خبراء الاقتصاد، مركنتيلي، أي مولع بالربح، أكثر من كونه حمائيا. لأن الحمائية تكتفي بكبح المبادلات عن طريق غلق الحدود، فيما المركنتيلي ليس ضد التجارة العالمية بشرط أن تغنم منها بلاده في المقام الأول.

الثابت أنّ ترامب سوف يجد أمامه ثلاث مشكلات عويصة هي الصين كاقتصاد قويّ سوف يستفيد من الفراغ الذي يتركه الأميركان؛ والاتحاد الأوروبي كسوق متكاملة في معاداتها ضربٌ للصناعيين الأميركان أنفسهم؛ والكونغرس الذي يهيمن عليه نوابٌ يدافعون عن مصالح ناخبيهم من كبار الصناعيين المتمسكين بالتبادل الحر. ورغم ذلك، مخطئ من يظن أن فترة حكمه ستمرّ بسلام، بل هي تفتح على المجهول، وتنذر بأعوام (أربع في أحسن الأحوال وثمانٍ في أسوئها) قد يكون من عواقبها انكسار الحلم الأميركي.

في وصف هذا الظاهرة، ظاهرة بروز زعيم شعبوي ظاهره مثيرٌ للسخرية، وباطنه شرٌّ مقيم، كانت الكاتبة والمحللة السياسة فرنسواز جيرو (1916-2003) قد كتبت منذ سنين «هكذا تبدأ الفاشية. لا تفصح عن اسمها أبدا، هي تزحف، تتموج، وعندما تُبدي أرنبة أنفها، نقول: أهذه هي؟ أنتَ واثق؟ كفاك مبالغة! وفي يوم تصفعنا بعنفها ويكون طردها قد فات أوانه».

كاتب وأكاديمي من الجزائر



سليل مدرسة شيكاغو

الترامبية: الجذور والآفاق

أيمن بكر

«برز اقتصاد جديد واضح المعالم، في خضم تجارة الأسلحة وجنود القطاع الخاص وإعادة الإعمار الهادفة إلى تحقيق الأرباح وصناعة الأمن القومي، كنتيجة لنمط معالجة الصدمة الذي انتهجته إدارة بوش بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001. ضُخم هذا الاقتصاد في عهد بوش، لكنه بات اليوم موجودا بمعزل عن إدارة أيّ رئيس قد يأتي، وهو سيبقى راسخا إلى حين تُرصد الأيديولوجيا السيادية التي تدعمه، وتُعزل وتُقاوم»، (انظر نعومي كلاين،عقيدة الصدمة: صعود رأسمالية الكوارث، ت: نادين خوري، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 2011، ص 16).

لا يمكن فهم ذروة المرحلة الترامبية التي تمكن فيها رجال أعمال من الوصول إلى سدة الحكم في دول صناعية كبرى، وهي المرحلة التي بدأت بمقدمات لا تخفى على عين المراقب المختص، من مثل تولي بيرلسكوني رئاسة وزراء إيطاليا، (وهو رجل الأعمال الذي يقال الكثير عن علاقته بالمافيا الإيطالية)، ولا يمكن فهم هذه المرحلة دون العودة إلى جذرين رئيسين نبتت منهما بصورة مباشرة، الجذر الأول تنظيري معرفي وهو نظرية السوق الحرّ المتخلص بصورة كاملة من أيّ رقابة للدولة عليه، وهو الاتجاه الذي تأسس في جامعة شيكاغو على يد ميلتون فريدمان في خمسينات القرن الماضي، ليعبر عن الطموح الأقصى للنظام الرأسمالي. والجذر الثاني سياسي-تاريخي وهو فترة حكم تاتشر-ريجان التي استطاعت فيها أفكار فريدمان السابقة أن تنتصر بصورة تبدو نهائية حتى الآن.

ظهرت أفكار ميلتون فريدمان التي عبر عنها بوضوح في كتابه «الرأسمالية والحرية»، في الوقت الذي كانت برامج الحماية الاجتماعية قوية في أميركا وغيرها من بلدان أوروبا. من ناحية أخرى أعلنت المسارات الاقتصادية في ستينات القرن العشرين أن بعض دول العالم، الذي كان ناميا بحق في هذه الحقبة، قد أخذت تصنع اتجاها ثالثا تحت مظلات مختلفة مثل حركة دول عدم الانحياز، والاتحادات الإقليمية، والاتفاقات بين دول الجنوب، وهو اتجاه يحاول الجمع بين الرأسمالية والاشتراكية (وإن كان أقرب للأخيرة) لا يجعل من الدولة وحدها مالكا للثروة ومسيطرا على أوجه إنفاقها وتنميتها، وإن كانت صاحبة الصلاحيات الأكبر، لاعبة دور المراقب والموجه للسياسات الاقتصادية بهدف حفظ حق الطبقات الأكثر فقرا في رعاية اجتماعية مناسبة، وكبح جماح الجنون الرأسمالي في مراكمة الثروات بأيّ طريق وعلى جثة أي شيء؛ بدءا من الطبيعة وانتهاء بالإنسان والقيم.

ظهرت بذور هذا الاتجاه بوضوح في بعض دول أميركا اللاتينية والشرق الأوسط وآسيا (تشيلي، الأرجنتين، مصر، إيران، العراق، إندونيسيا على سبيل المثال)، ورغم تبنّي هذه الدول لنموذج أقرب للاشتراكية السوفييتية في هذا الوقت، كانت القيود المفروضة على حركة رأس المال فيها أقل حدة مما كان عليه الأمر في الاتحاد السوفييتي، ما أراه بداية للطريق الثالث الذي لم يقدر له الاستمرار بسبب الحرب الشعواء التي شنتها دول المركز الرأسمالي الغربي عليه.

بعد استقلال إندونيسيا عن هولندا أصبح أحمد سوكارنو أول رئيس للبلاد في العام 1945، مقترحا نظام «الديمقراطية الموجهة» للسيطرة على وحش الرأسمالية الغربية الذي كان يسعى بلا كابح كي يصبح الوريث الشرعي للفترة الاستعمارية بكل طموحاتها في السيطرة على العالم ونهب ثرواته، من خلال بديل اقتصادي أكثر خفاء وشراسة معا وهو اقتصاد السوق الحر. في إيران صعد محمد مصدق إلى الحكم عام 1951، وكان جلّ همه هو تنمية بلاده عبر ترسيخ مبادئ الحماية الاجتماعية واستعادة السيطرة على الثروات النفطية من يد بريطانيا، ما دعاه لتأميم قطاع النفط. بالمثل حاولت فترة حكم جمال عبدالناصر في مصر تحقيق التنمية عن طريق التوجه نحو التصنيع مع تبني برامج واضحة للرعاية الاجتماعية.

غير أن نظام عبدالناصر لم يكن متشددا في التعامل مع رؤوس المال الخاصة، حتى أغلقت دول المركز الرأسمالي السبل أمام تمويل السدّ العالي، ما قاد عبدالناصر إلى تأميم قناة السويس في نهاية المطاف.

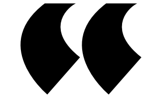
وفي تشيلي صعد سلفادور الليندي للحكم في العام 1970 بأفكاره الماركسية التي حاول من خلالها الموازنة بين حركة رأس المال التي توجهها الدولة وبرامج التعليم والحماية الاجتماعية، محاولا كغيره من قادة التحرر الوطني منذ خمسينات القرن الماضي أن يستعيد مصادر الثروة من يد الشركات والحكومات الغربية.

المدهش في كل ما سبق أن الدول الغربية وعلى رأسها أميركا التي صنعت من الشيوعية في هذا الوقت الشيطان الأكبر والعدو الأوحد، استخدمت أسلوبا واحدا في القضاء على كل محاولات النهوض في هذا الوقت وهو دعم الانقلابات العسكرية بيد رجال موالين لها يتمتعون بقدر غير قليل من الدموية والعنف. ففي إندونيسيا قام سوهارتو بالسيطرة على الحكم في العام 1968 بعد أن تمكن من قمع انقلاب ضد سوكارنو في العام 1965 حاولت مجموعات شيوعية القيام به، ثم إنه استولى على الحكم ووضع سوكارنو رهن الإقامة الجبرية حتى وفاته. وفي إيران انقلب فضل الله زاهدي على مصدق بدعم من المخابرات البريطانية والأميركية في العام 1953، وفي تشيلي قام أحد أكثر شخصيات التاريخ دموية وهو الجنرال بينوشيه بالانقلاب على نظام الليندي ليدخل البلاد في حالة سوق حرّ غير محسوب مقترن بمستوى تاريخي من العنف، ما قضى على كل مكاسب الفترة السابقة من حريات وأنظمة حماية اجتماعية. أما في مصر فلم يتمكن الغرب من تنفيذ انقلاب عسكري على عبدالناصر حتى بعد هزيمة 1967، إلا أن الانقلاب قد تم بمجرد موت عبدالناصر وبصورة درامية على يد خلفه السادات، الذي قام إيمانا منه بأن 99 بالمئة من أوراق اللعبة في يد أميركا كما كان يحلو له أن يردد، بتغيير دفة الحكم بصورة لا تقل عنفا عن أيّ انقلاب، باتجاه رأسمالية متوحشة عمياء غير منظمة، أودت بالاقتصاد المصري إلى غياهب الفوضى الاقتصادية والسياسية بالتبعية، ما أدى لانهيار العملة ومفاقمة نسب الفقر والفقر المدقع، وهو ما نشهده بجلاء حاليا.

بالنسبة إلى الولايات المتحدة شهدت فترة ريجان بداية التمكين الحقيقي لأفكار ميلتون فريدمان عن الاقتصاد الحر واستغلال الصدمات والكوارث الكونية في صنع تحوّل جذري لنمط الاقتصاد باتجاه السوق الحر غير المراقب، وسحق دور الدولة. لم تتغير سياسات الخصخصة الساعية لسوق غير مراقب حكوميا تماما، ويعمل لصالح رجال الأعمال دون سواهم، رغم المحاولات الباهتة لباراك أوباما في مغازلة الطبقات الأكثر فقرا بوعود انتخابية لم يستطع تنفيذ أيّ منها. وعلى سبيل المثال قدم أوباما مشروعا لتوفير مظلة تأمين لعوام الأميركيين تحت مسمى «أوباما كير»، لكنه سار بخطى متعثرة طوال سنوات حكم أوباما، ولم يتم تطبيقه ولو بصورة جزئية، والمدهش، وربما الأكثر منطقية، أن أول قرار وقّع عليه رجل الأعمال المنتخب ترامب، حتى قبل أن ينتقل إلى البيت الأبيض، كان قرارا بإلغاء مشروع «أوباما كير».



إن وجود مثل هذا المشروع في أفق السياسات الاقتصادية الأميركية هو ردة من نوع خطير عن خط مدرسة شيكاغو للاقتصاد الحر غير المقيد، الخط الذي لم يحد عنه أحد سواء أكان من الحزب الديمقراطي أو الجمهوري



إن وجود مثل هذا المشروع في أفق السياسات الاقتصادية الأميركية هو ردة من نوع خطير عن خط مدرسة شيكاغو للاقتصاد الحر غير المقيد، الخط الذي لم يحد عنه أحد سواء أكان من الحزب الديمقراطي أو الجمهوري، فإعادة أيّ صورة من صور الحماية الاجتماعية للأذهان لهو خطر شديد على «السلام الاجتماعي» الذي يتحكم فيه تماما رجال الأعمال الكبار.

والمفارقة أن الخطاب الشعبوي الذي صعد به ترامب لسدة الحكم يبدو مضادا تماما لأفكاره وتوجهاته الرأسمالية المعبرة عن مدرسة شيكاغو في الاقتصاد، فقد تحدث كثيرا وبصوت مرتفع عن إعادة تشغيل المصانع المتعثرة، وضمان حياة أفضل لمئات الآلاف من العمال الصغار، وهو أمر يبدو مضحكا في ظل ولاءات ترامب التي لا تخفى على أحد.

يمكن النظر لصعود ترامب بوصفه النهاية الطبيعية لسيطرة مدرسة ميلتون فريدمان في الفكر الاقتصادي على السياسات الأميركية، فلقد تمكن ميلتون فريدمان شخصيا من الوصول للحكم في شخص ترامب، إنها الذروة الأخطر والأهم لنجاح سياسات فريدمان التي بدأ تبنيها في العالم على يد دكتاتوريات عتيدة منذ ستينات القرن العشرين، والتي تم ترسيخها في الولايات المتحدة نفسها منذ فترة ريجان.

ولعل أخطر ما فيها هو طبيعة شخصية ترامب النزقة الاستعراضية والاعتقادية أيضا، والتي لن يوقفها شيء عن فتح أسواق جديدة لحركة رأس المال بكل أشكاله، سواء ما يتصل بتجارة الأسلحة أو ما يسمونه إعادة الإعمار أو -وهو الأهم- الحرب على الإرهاب. ويغلب على ظني أننا سنشهد توترات غير معتادة في العلاقات الدولية بسبب تلك السياسات ربما تصل بنا إلى حواف حرب عالمية.

كاتب من مصر



ترامب والقوميون الجدد

توجهات الطريق أمام تحولات العولمة

رفعت السيد علي

في حديث له مع فوكس نيوز في 6 فبراير 2017، قال دونالد ترامب «ينتابني شعور سريالي بسبب الرئاسة»، وهو تصريح مشحون بالمعاني.

في تحول بدا غريبا على المزاج الأميركي العام فاز دونالد ترامب بالانتخابات الأميركية فيما بدا أنه يشكل مفاجأة من العيار الثقيل، ففي خضم الحملة الانتخابية أدلى بكثير من التصريحات المثيرة للجدل والاستهجان والتي بدا أنها تفقده كثيرا من الأرض وتحجب عنه أصواتا انتخابية كثيرة وكأنه يقامر بكل مستقبله السياسي:

• بالنسبة إلى المسلمين شنّ عليهم هجوما عنيفا في أغلب خطبه الانتخابية ودعا لحظر دخولهم للولايات المتحدة و «وقف كامل وكلي» لدخولهم واصفا توجهه ذاك بأنه «لا يوجد هناك أيّ خيار آخر»، وأن «الحدود يجب أن تظل مغلقة أمام المسلمين حتى يتوصل نواب الشعب الأميركي إلى فهم واضح لأسباب كراهية المسلمين للولايات المتحدة».

• توعد فور فوزه بالرئاسة بترحيل كل المهاجرين غير الشرعيين من الولايات المتحدة، وأعلن أنه في حال فوزه سيبني سورا عازلا بين الولايات المتحدة والمكسيك لوقف تسلل المهاجرين وتهريب المخدرات، وسيعمل على إبعاد 11 مليون مكسيكي متواجدين على الأراضي الأميركية.

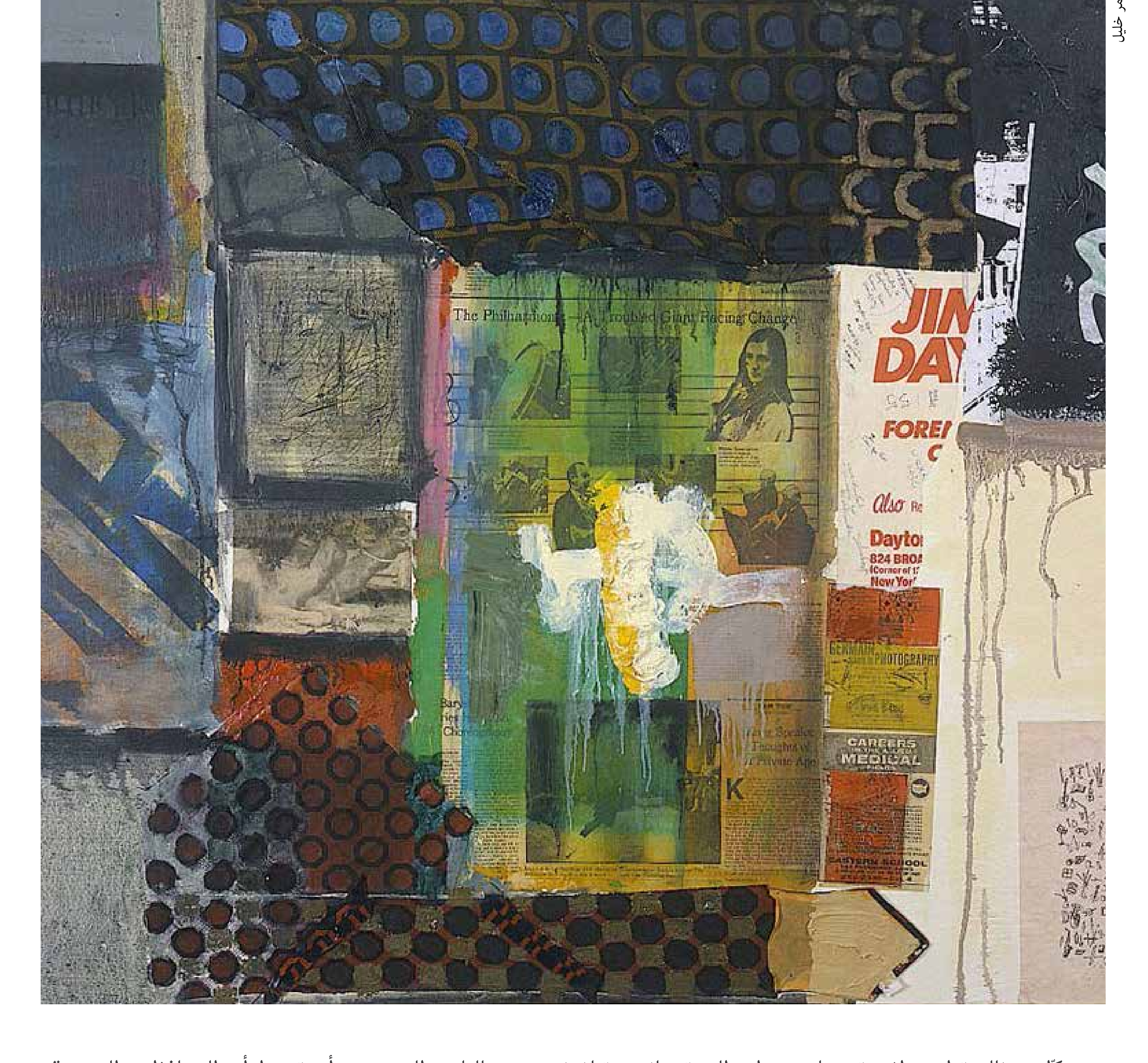
• أطلق تصريحات غريبة حول الأفارقة والدول الأفريقية وهاجمهم بقسوة قائلا إن الأفارقة بحاجة إلى عودة الاستعمار إليهم لمئة سنة أخرى، وقال عن الأفريقيين أنهم «لا يعرفون شيئا عن القيادة والاستقلال»، ووصفهم بالكسل والغباء والشره للطعام والهوس بالجنس والعنف.

ولقيت تصريحات ترامب تنديدا واسعا من قبل السود الأميركيين والأفارقة لمحتواها العنصري، غير أنه حاول التقرب من السود الأميركيين أصحاب الأصوات الانتخابية، فأشاد بدورهم الكبير في بناء الولايات المتحدة على الرغم من عدم إيمانه بذلك.

دينيا ينتمي ترامب للطائفة المشيخية المسيحية (PRESPYTERIAN)، وهي طائفة تعتنق تعاليم العالم اللاهوتي البروتستانتي جون كالفين، ولا يمكن القول إنه متعصب دينيا، فهو لم يطلب الغفران من الله أبدا في أيّ كنيسة من خطيئة أو معصية، وقد صرح ذات مرة قائلا «أعتقد أني لو ارتكبت ذنبا أو خطيئة فأنا أحاول تصويبها بنفسي ولا داعي لأن أشرك الله في مثل تلك الأمور».

تغيرت ميوله السياسية كثيرا على مدى اشتغاله بالسياسة، فحتى العام 1987 لم تكن له أيّ ميول سياسية واضحة على الرغم من دعمه المبكر لحملة رونالد ريجان الجمهوري للرئاسة في نهاية عقد السبعينات من القرن العشرين، وفي العام 1987 بدأ في تحديد موقفه السياسي وأصبح عضوا في الحزب الجمهوري. في العام 1999 ترك الحزب الجمهوري والتحق بحزب الإصلاح (Reform party USA) وبقي به على مدى ثلاث سنوات وأدار حملات الحزب التجريبية والاستكشافية لمرشحي الحزب إلا أن الحزب خبا وهجه بسبب صراعات أعضائه وفضائحهم وتدخلات دافيد ديوك، وبات بوكانان، وليونورا فولاني. ترك ترامب حزب الإصلاح والتحق بالحزب الديمقراطي من 2001 حتى 2008، ولكنه في عام 2008 تبنى ترشيح جون ماكين الجمهوري لرئاسة الولايات المتحدة على عكس انتمائه الحزبي الديمقراطي. وفي عام 2009 غير انتماءه رسميا من الحزب الديمقراطي للحزب الجمهوري مرة أخرى مع تعهده للحزب بالاستمرار به.

ساهم ترامب في الحملات الانتخابية لمرشحي الحزبين الديمقراطي والجمهوري على حدّ سواء، وكانت أهم عشر حملات انتخابية دعمها، ست منها لصالح الحزب الديمقراطي وأربع حملات لصالح الحزب الجمهوري. أما بعد العام 2011، فقد أصبح دعمه السياسي موجها بوضوح لأعضاء الحزب الجمهوري، وفي فبراير 2012 تبنى بقوة حملة ميت رومني الجمهوري للرئاسة أمام إعادة انتخاب باراك أوباما الديمقراطي.



محمد عمر خليل

يشكّل دونالد ترامب إذن توجها جديدا يطل برأسه إلا أنه علامة مبكرة على ملامح العقود السياسية القادمة وهي في طور التكون والتشكل، هناك شكل واضح من ملامح التوجهات القومية الجديدة التي ظهرت بوادرها في إنكلترا مع نتيجة الاستفتاء الذي حبذ خروج إنكلترا من الاتحاد الأوروبي تحت وطأة موجات الإرهاب الدولي والتطرف الديني الذي أدى إلى انتعاش التيارات القومية المتعصبة. القاعدة العريضة من الشعب الأميركي من البيض، التي تعتنق المذهب المسيحي البروتستانتي، تبلغ نسبتهم حاليا حوالي 70 بالمئة من مجمل تعداد شعب الولايات المتحدة، وهم في أغلبهم من أصول أوروبية، ويشعرون بالخطر من زحف السود الأميركيين، وزحف المهاجرين الشرعيين وغير الشرعيين من أصول لاتينية وآسيوية. جاء انتخاب ترامب كتعبير عن «ثورة أولئك البيض» كما كان محتوى خطابه السياسي أثناء الحملة الانتخابية متوافقا مع توجهات تلك القاعدة البيضاء التي وجدت فيه معبرا عن تذمرها وإحساسها بالخطر، خاصة بعد أن تبينوا أن المحافظين الجدد قد خذلوهم ولم يضعوا المصلحة الأميركية على رأس اهتماماتهم وفشلهم في إدارة الأزمة المالية القاسية التي وقعت في عام 2008 وكذلك نقمتهم على العولمة التي أدت لانتقال المؤسسات الصناعية الكبرى من منطقة حزام الصدأ في الشمال الأميركي إلى مناطق حزام الشمس بشمال المكسيك ودول جنوب شرق آسيا بحثا عن مزيد من الأرباح بسبب رخص الأيدي العاملة خارج نطاق الولايات المتحدة مما حرمهم من فرص العمل خاصة أن أغلب

القاعدة العمالية الأميركية من البيض في شمال أميركا، يضاف إلى ذلك كارثتي حربي أفغانستان والعراق وما ترتب عليهما من خسائر بشرية واقتصادية.

يمثل الإيمان بتفوق العرق الأبيض، وكراهية الأجانب الأسس الرئيسة لأيديولوجية تلك الحركة التي ترفع رموز وشعارات النازيين الجدد، وتتخذ مواقف راديكالية صريحة ضد الأقليات والأجانب، خاصة ضد المسلمين في الولايات المتحدة، في دولة تعتمد في جوهرها ونشأتها واستمراريتها على المهاجرين، طبقا للدستور التأسيسي للولايات المتحدة الأميركية. تبلورت تلك المشاعر إلى إحساس بالخطر لدى تلك القاعدة خاصة بعد انتشار العمليات الإرهابية، وتبلور الإحساس بالخطر إلى خطاب يقوم على «تفوق الجنس الأبيض وكراهية الأجانب»، وانتظمت تلك التوجهات في تبلور تيار «اليمين البديل»، (ALT-RIGHT) أو (ALTERNATIVE RIGHT)، وأدى فوز ترامب المعبر عن تلك التوجهات إلى انتعاش تلك الحركة بشكل أكبر. اليمين البديل إذن لم ينشأ من فراغ، وتعبير اليمين الجدد ظهر لأول مرة في العام 2010 في المحتوى الخطابي لليميني المتطرف ريتشارد سبنسر رئيس معهد السياسة الوطنية (معهد غير حكومي) الموجه للرأي العام الأميركي، ويطلق هذا المصطلح على القوميين الأميركيين البيض، الذين يرون أن التيار القومي المحافظ الحالي من المحافظين الجدد غير كاف، ويعتقدون بضرورة تطوير خطاب أكثر قوة.

دفعت ظاهرة انتشار مصطلح «اليمين البديل» قاموس أوكسفورد الشهير إلى اعتباره المصطلح الدولي للعام، كما وضعت مؤسسات صحافية كبرى مثل وكالة «أسوشيتد برس» تعريفا للمصطلح بأنه «مزيج من العنصرية والشعبوية وقومية العرق الأبيض»، واعتبرت أنه يهدد حقوق غير البيض وغير المسيحيين من مسلمين ويهود والنساء والمهاجرين وكثير من الأقليات الأخرى.

أصبح معهد السياسة الوطنية الذي أسسه اليمينيان المتطرفان وليام ريجنري وصامويل غرانسيس في العام 2005 مقصدا للقوميين الأميركيين البيض منذ تأسيسه. وخلال الأعوام من 2010 حتى 2015، حاولت حركة «اليمين البديل» استقطاب قاعدة شعبية عريضة والوصول إلى الرأي العام من خلال طرح شعارات من قبيل «أميركا دولة للبيض»، و«لا مكان للأقليات»، و«البيض الذين يمثلون 70 بالمئة من السكان لا يلقون الاهتمام الكافي».



ساهم ترامب في الحملات الانتخابية لمرشحي الحزبين الديمقراطي والجمهوري على حدّ سواء، وكانت أهم عشر حملات انتخابية دعمها، ست منها لصالح الحزب الديمقراطي وأربع حملات لصالح الحزب الجمهوري



واعتبرت الحركة أنها حصلت على داعم قوي لها منذ أن أعلن ترامب خوضه سباق الترشح الجمهوري للفوز بترشيح الحزب الجمهوري له لخوض انتخابات الرئاسة.

عادت بقوة أفكار «القومية الأميركية البيضاء» لتفرض نفسها على ساحة الجدال في الولايات المتحدة، وأدى سبنسر ومؤيدوه في اجتماع في واشنطن التحية للنازية القومية، ورددوا هتافات «فليحيا ترامب، ليحيا الشعب، ليحيا النصر». كما لو كانت تحية «هايل هتلر» قد عادت للوجود مع تغير الاسم والمكان.

بعد أيام من الاجتماع، قال سبنسر في اجتماع مماثل في تكساس «لقد انتصرنا، علينا الآن أن نعيد تعريف أميركا، في النهاية فإن أميركا للبيض».

ورأى لورانس روزينتال رئيس مركز دراسات اليمين بجامعة كاليفورنيا، ببيركلي، أن «ما ردده ترامب حول اعتزامه طرد 11 مليون مكسيكي من الولايات المتحدة، وما قاله بخصوص المسلمين، جعل حركة اليمين البديل تعتقد أنها وجدت من يتحدث بلغتها، الخطاب الذي يستخدمه ترامب شجع على صعود الحركات العنصرية البيضاء، وشعار ترامب القائل 'أميركا للأميركيين' منح كثيرا من الشجاعة للمجموعات العرقية البيضاء المتطرفة».

وأضفى تعيين ترامب لليميني المتطرف ستيف بانون مدير موقع «برايت بارت» الإخباري في منصب كبير المستشارين الاستراتيجيين في البيت الأبيض، المعروف بتعصبه القومي للأميركيين البيض، ولديه علاقات وثيقة بحركات اليمين المتطرف الأوروبية، -أضفى- «الطابع المؤسسي على حركة اليمين المتطرف».

عاد الخطاب القومي الخاص بالحزب الجمهوري الذي بلغ ذروته في عهد الرئيس الجمهوري رونالد ريجان (حكم من 1981إلى 1989) من خلال تبني الرئيس الحالي دونالد ترامب شعارات مثل «عودة أميركا إلى مجدها»، و«أميركا أولا» ووعوده بتغيير تاريخي غير مسبوق للولايات المتحدة، لكن بينما كان ريجان يدعو إلى دولة تتجه باهتمامها خارجيا لا داخليا وتساهم في بناء عالم آمن، جاء ترامب داعيا إلى تغليب المصلحة الأميركية على كل شيء، حتى أن مجلة «الإيكونومست» وصفت ذلك بأن «الولايات المتحدة كانت متفائلة تحت حكم ريجان وتحولت إلى غاضبة في عهد الرئيس الجديد الذي خلق قومية جديدة تجعل القوى الكبرى -للمرة الأولى- عبيدا لأنواع مختلفة من الشوفونية، أي الوطنية المتعصبة».

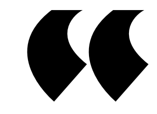
حركة التغير الدولي التي بدأت مع سقوط سور برلين وسقوط الاتحاد السوفييتي منذ ثلاثين عاما وحركة العولمة وثورة الاتصالات التي سيطر عليها فكر التدخل الغربي وفكرة أن الغرب خرج منتصرا بفكره وأيديولوجيته من الحرب الباردة وأفرزت الليبراليين الجدد والمحافظين الجدد أطاح بها تصاعد وتيرة التطرف والإرهاب، وأدت الموجات الإرهابية وعلى رأسها ضربة نيويورك في الحادي عشر من سبتمبر 2001 إلى انتعاش التيارات القومية المتعصبة التي ترى أن الحفاظ على المصالح الداخلية للدولة مقدم على حقوق الأقليات والعلاقات الخارجية وعلى كل اعتبار آخر.

القوميون الجدد إذن يعارضون العولمة، ويعارضون حرية التجارة، ويعارضون ازدياد التدخل العسكري، ونقل المؤسسات الاقتصادية من دولتهم إلى دول أخرى ويعتبرون أن كل بلد مسؤول عن مصيره. سياق التطور الجديد دفع بكثير من القوميين الجدد إلى صدارة السلطة في أكثر من دولة بالعالم، في روسيا، وتركيا، وفي شكل انسحاب بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، وانتعاش حركة اليمين الفرنسي المتطرف بزعامة ماري لوبن. حركة جديدة طارئة تدفع للانسحاب القومي للداخل وتغليب المصلحة الفردية للدولة مما يعني الحد من انتقال رؤوس الأموال وارتفاع نبرة الحمائية الاقتصادية والحد من حرية التجارة وكل مفرزات العولمة، بل والحدّ من انتقال البشر الذي وصل إلى درجة طرح أفكار تشييد أسوار عازلة بين الدول مثل ذلك السور الذي ينوي ترامب إقامته لعزل الولايات المتحدة عن المكسيك، ومنع دخول المسلمين والعرقيات المغايرة. ارتفاع معدلات البطالة في الدول الأوروبية الذي وصل في فرنسا إلى 12 بالمئة ويربو في إيطاليا وإسبانيا على 20 بالمئة يخلق موجة من كره الأجانب الذين يقبلون بأجور متدنية ويحرمونهم من فرص العمل، وكذا العمليات الإرهابية التي وقعت في بروكسل وباريس باسم تيارات إسلامية متطرفة غذت وتيرة انتشار واتساع تيار القوميين الجدد المعادي للمهاجرين في المجمل وشيوع الخوف من المسلمين على الأخص (الإسلاموفوبيا).

ما الذي يمكن إذن أن نتنبأ به للأعوام أو العقود القادمة في ظل صعود ترامب ومن



حركة جديدة طارئة تدفع للانسحاب القومي للداخل وتغليب المصلحة الفردية للدولة مما يعني الحد من انتقال رؤوس الأموال وارتفاع نبرة الحمائية الاقتصادية والحد من حرية التجارة وكل مفرزات العولمة، بل والحدّ من انتقال البشر



يمثلون القوميين الجدد إلى رأس السلطة في أكبر قوة عظمى في العالم ومن المحتمل أن تلحق بها العديد من الدول الأوروبية؟

في ظل تعقيدات الوضع الدولي الراهن ستكون أول النتائج انخفاض مريعا في الاهتمام بالمنظمات الدولية والإحجام عن تمويل العمليات الإنسانية في العالم من رعاية لاجئين وضحايا حروب ومجاعات إلى ضحايا الكوارث الطبيعية، فالانتماء القومي الجديد لا يكترث بالآخر ولا بالقيم الإنسانية العامة بقدر ما يهتم بمصالحه الذاتية، وحيث أن الولايات المتحدة من أكبر ممولي دول العالم للمنظمات الدولية وعلى رأسها منظمات وهيئات الأمم المتحدة، سيحدث انخفاض مريع في مستوى التكافل والتضامن البشري الإنساني الذي تقوم به تلك المنظمات وستتقلص فاعلية المنظمات الدولية، وتتدنى مستويات التعاون الدولي، وسيحدث نوع من الانكفاء على الذات، وضمور دور منظمة الأمم المتحدة، الذي لن تدفع ثمنه سوى الدول الصغرى التي لا تجد ملاذا لها إلا من خلال اللجوء لحماية القانون الدولي الممثل في منظمة الأمم المتحدة ومؤسساتها الفاعلة، فإذا تراجعت المؤسسات والتنظيمات القادرة على تطبيق القانون الدولي ستسود شريعة وقوانين الدول الأقوى على الدول الأضعف، أي أن المتوقع أن تشتعل حروب بدوافع قومية لتكريس النفوذ والمنافع، مع اشتداد وتيرة الصراع الدولي وسباق التسلح (إيران وكوريا الشمالية مثالان) الذي قد يفضي إلى حرب واسعة المدى كما حدث من قبل نتيجة للمد القومي لبعض دول العالم في ثلاثينات القرن الماضي.

قد تكون القومية مفيدة إذا تم استغلالها بمفهومها المدني لجمع الشعوب على أفكار لا يمكن تنفيذها فرديا، مثل تشجيع الفرق الرياضية الوطنية أو الدفاع عن مصالح الوطن، وتبني المبادئ العالمية والإنسانية كالحرية والمساواة، على عكس القومية العرقية الجديدة التي تعتمد على الحنين إلى الماضي والأفكار العدائية، ولا تفيد أي طرف في النهاية إلا الدفع قسرا نحو اندلاع مزيد من الحروب.

كاتب من مصر



الظاهرة الترامبية وسؤال الأمة الأميركية

بشير ربوح

ما معنى أن نجمع بين التفكّر الفلسفي الذي يتأسّس على النقد والتجاوز والدفع بالأسئلة التي تتحرّك في فضاء العقل إلى تخومها القصية، وهي أسئلة التنوير التاريخي، يضعها العقل دون وجل من سلطة أو خشية من قوى لا تاريخية، تريد دوما وأبدا أن تسرق حاضرنا ومستقبلنا وتجرّنا معها إلى حيث لا ندري، وظواهر بدأت في التناسل من صلب مفاعيل تشكّلت بعيدا عنا، وفي أماكن قصية ومظلمة، وخارج الفهوم والرؤى التي ألفناها وتعودنا عليها في غياب أيّ تمحيص لها، فنحن بصورة أو بأخرى أصبحنا نعبد «الفكر» الذي يأتي من الإعلام، فابتعدنا عن النصوص الكبرى التي تمنحنا المعنى الحقيقي أو القريب منها.

بهذا نكون على مقربة كبيرة من حالة التبلّد الكبرى، أو العصر الجليدي الذي بدأ في الزحف نحو عقولنا، لأنّنا هجرنا أوّلاً ما كان يشكّل بالنسبة إلينا مصدرا عظيما للإلهام والتفكير والتمحيص، ونعني به النصوص الكبرى التي أثثت البيت الثقافي البشري، واستسلمنا طواعية لما هو قادم من قنوات الإعلام الهادر، فنحن لا نفكر ولا نخمّن ولا نسأل، ولا ننشغل بما هو خفيّ، لأنّ الإعلام يفكّر ويخمّن ويسأل ويجيب ويجعل من يشاء عزيزا ويذلّ من يريد، فنحن في زمن براديغم التأليه الإعلامي، الذي يبشّر بالجهل المقدّس وفق النمط العولمي المخيف.

وبالرجوع ابتداءً إلى المسار التاريخي الذي شكل بنية الشخصية الأميركية، يمكن أن نرصد ذلك الحدث/المنعطف والمتمثل في وصول المهاجرين الأوائل إلى الأرض/الجنة، على متن الباخرة الإنكليزية الشهيرة «Mayflower»، عام 1620، والذي من خلاله نستطيع أنّ نجعل من الذاكرة أفقا مفتوحا في وجه القوى التي لها علاقة عدائية معها، إذ من بين العائلات التي كانت على متن السفينة، وأنجبت شخصيات غدت فيما بعد مؤثرة في المسار التاريخي لأميركا، وأصبحوا فيما بعد رؤساء للولايات المتحدة الأميركية: جون أدامز (1735-1826)، وجوج هاربرت وولكر بوش (1924)، وجورج وولكر بوش (1946)، ومن المعروف أن الرئيس جون أدامس مشهود له بالخطابات الممجدة للأمة الأميركية، ولا يمكن أنّ نتغافل أو ننسى دور عائلة بوش القبيح والمأساوي في محو بلد تاريخي وعظيم مثل العراق من خارطة الموجودات الحضارية الإنسانية، وهي ممارسات جرت بعيدا عن الصخب الإعلامي، وفي صمت قاتل، وعليه تكون «الظاهرة الترامبية» وليدة طبيعية لهذا المسار المرعب.

فهذه الأرض/الجنة، لا تشكل بالنسبة إليه أرضا يعيش عليها فحسب، بل هي من منظوره التفاؤلي، ووفق المأثور الأميركي، «الجنة الموعودة»، ولن يتخلى عنها، ولن يعيد خطأ آدم الذي ارتكب الخطيئة الكبرى وخرج من الجنة، بمعنى أن التاريخ الأميركي سيكون مبنياً على النمط البشري المؤسس على فكرة القوة، ونمط الاقتدار الذي يأخذ كلّ ما هو متاح له في أفق القادم بحزم وشدة، وسينحت مساره بذاته، مطلقاً تلك القراءات اللاهوتية التي تشيد بالقضاء والقدر، مما وطّأ الأرضية لاستقبال الفكر البراغماتي، حيث العبرة بنتائج الفعل، دون الاكتراث بظروف الفعل ومضامينه، ونوايا الفاعل، وقد كانت الذهنية النفعية قريبة جدا من العقل الأداتي الذي يشتغل فقط على الوسيلة، ويقطع نهائياً مع الغايات.

وعلى أساس هذا المنطق، وانسجاما معه، نزل علينا فوز المرشح عن الحزب الجمهوري دونالد ترامب المولود عام 1946، بمدينة نيويورك، لأبوين من أصول ألمانية وأسكتلندية، كالصاعقة التاريخية، ومن صُلب هذا الحدث طفقت التحليلات الإعلامية تطرح نفسها، بحسبانها الرؤية الصائبة، فوصفت الفوز على أنّه كارثة، وهزيمة لأميركا التنوير والتسامح والتنوع الثقافي والتعدّد الإثني، أو هي بصورة أدقّ ارتداد إلى الوراء، فهذا الرئيس سيعود بنا حتما إلى زمن التعالي الأشقر على الآخر، والهيمنة الغربية على «باقي العالم»، وبالفعل نحن نستحقّ هذا الوصف «الباقي»، وإلى تفوّق الرجل الأبيض على

باقي الألوان التي تشكّل نادي الإنسانية، وغيرها من الوصفات الجاهزة التي يحركها المخيال الإعلامي، وينشطها الحدث، فنحن لا نفكر وإنّما نواجه ما يجري بعبارات وتيمات معلّبة إعلاميا تنطلق من عقالها بمجرّد إشارات خارجية واخزة، ولقد تناست أنّ الفكر الأميركي، كان على الدوام ممجدا لأميركا ويرى فيها مكسباً تاريخيا يجب أن يصان وأن يطوّر من أجل مصلحة الأميركي، وعلى باقي دول العالم أن تدور في فلكه المثالي، لأنّه النموذج الأسمى الذي صنعه الإنسان، ولم يكن وليد الرؤى الغيبية، بالرغم من انتشار المسحة البروتستانتية في رؤاه.

وبالتالي كيف نستطيع ممارسة التمرد على هذا السقف الإعلامي والعمل قدر الإمكان على اختراقه؟ وهل بالإمكان أنّ نفكّر ونسأل خارج هذا المدار؟.. ربما هي أسئلة لا يمكن لهذا المقال المتواضع أن يستوعبها في بعض فقرات، وإنّما هي مجرد أسئلة نريد لها أن تكون فاتحة لعهد جديد وطريف من التفكّر الذي نبتغي منه وله أن ينفتح على النصوص الكبرى، وأن يعبّد درباً تماسياً مع كلّ ما هو جاهز، ففي عمق الجاهز تسكن وترقد بصورة ذئبية الأيديولوجيات المزيفة، وتتحيّن بكلّ خبث مستتر، الفرصة الملائمة للانقضاض على الفهوم أو تصنعها وتروّجها في ظلّ أجواء تعشق اللافكر وتشد الرحال جهة العفن.

إن التّعاطي مع فوز دونالد ترامب كظاهرة، يقتضي منّا الاستئناس ببعض النصوص الكبرى، وعليه ستسعفنا رؤية الفيلسوف

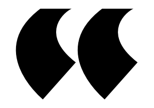
وعالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر، في تفعيل فهمنا لما حدث في هذا الغرب التاريخي، إذ أنّ مرحلة الحداثة كانت ثمرة طبيعية لمتتالية الترشيد الأداتي التي انخرط فيها الغرب، بعد أن تخلّى تدريجيا عن العقل النقدي، ونزع عن الكون طابعه السحري، وأصبحت الطبيعة والإنسان والوجود كائنا مصمَتا يُفهم ويُدرك اعتمادا على آلية رياضية خالصة، ومنه يكون العقل الأداتي الترشيدي، في خدمة الحضارة الغربية، التي انفصلت وما زالت تسير في مسار حتمي غايته القطع عن القيمة، وليس من الغريب أن تهيمن مفردات النجاعة والمردودية على باقي الخطابات التي ما زالت غارقة في معجمية القيم، من هنا كان الخطاب الترامبي واضحا وموجّها لنوع مخصوص من الذهنيات التي تعشق الفعل المباشر، والنجاح الفوري، وتحبّ القصص الصغرى الناجحة، والتي تنطلق من المرحلة الصفرية، فقد كان ترامب قاطعا في أحكامه، فهو ضدّ الهجرة، ومع الإعلاء من شأن الاقتصاد الأميركي، وهو كذلك نموذج حي على النجاح الفردي، والقدرة على التغلّب على العقبات التي يهواها الفرد الأميركي، صاحب المرجعية البروتستانتية بمنزعها التقشفي.

أي أنّ الخطاب الترامبي هو سليل الذهنية الغربية التي تتماهى مع فكرة وآلية الترشيد المادي، وتفكّر في النجاح بعيدا عن القيم التي يتمسك به الضعفاء والعبيد، بالمعنى النيتشوي، وكأنه يمثّل «الدابة الشقراء» التي بشّر بها نيتشه، وتحدّث عنها بصورة تنبؤية زرادشت، فالنزعة البراغماتية واضحة وجلية في سلوكه وفي رؤيته، فهو بالتالي ابن هذا المنجز الغربي، ولم ينزل من السماء فجأة.

إنّ العولمة هي الصورة الأكثر بروزا لحركية المجتمع الأميركي الحيوي باستمرار، وبذلك فقط كان دوما المؤهل تاريخيا لقيادة الغرب، وتوجيهه اقتصاديا وسياسيا وإعلاميا وثقافيا، والتحكم في مساره وفي مصير «الباقي»، وعليه تكون «الظاهرة الترامبية» إحدى الثمار الطبيعية لعولمة أميركية جارفة، فهو رجل أعمال ناجح، ومنشغل بالإعلام، وبصناعته وبمشتقاته الأخرى، مثل مسلسل زيجاته، ومشاريعه المتعلقة باختيار ملكة الجمال، وحصصه التي تتعلق بتلفزيون الواقع، مما يعزّز لدينا ذلك الحكم الذي يقول إنه استوعب جيدا وبكفاءة عالية الدرس الأميركي المعولم، فنجد في هذه الظاهرة، قراءة توحي بأنّ العولمة المؤمركة -تطرح سؤال الأمة- خرجت إلى العلن على يد ترامب، حيث يعد من هذا المنظور الكاشف عنها عن طريق رفع النقاب عن وجهها، حتى وإن بدت للكثير غير جميلة وفي غاية القبح.



«الظاهرة الترامبية» إحدى الثمار الطبيعية لعولمة أميركية جارفة، فهو رجل أعمال ناجح، ومنشغل بالإعلام، وبصناعته وبمشتقاته الأخرى، مثل مسلسل زيجاته، ومشاريعه المتعلقة باختيار ملكة الجمال، وحصصه التي تتعلق بتلفزيون الواقع



وقد تعلّمنا من النص الفلسفي لمفكر الغابة السوداء مارتن هيدغر أنّ الحقيقة تنبني على الحرية، أو هي بالتحديد مسكنها، ولها علاقة غليظة مع اللغة التي نفكر بها أو تفكر هي من خلالنا، ومن هنا كانت لغة الخطاب الترامبي هي الأقرب إلى الوضوح البراغماتي، لأنّ المجتمع الأميركي انخرط في مسعى فكري جديد استعمل فيه مفردات طريفة وعلى درجة عالية من الوضوح والدقة، وانطلاقاً من هذا التوجه، بدأ في طرح أسئلة جديدة/تليدة، بعد أن قطع مع سؤال الدولة نهائياً، لأنه تجاوز تلك المحن التي عانت منها كل الدول، مثل بناء المؤسسات المتعددة، والانفتاح القوي، وتأسيس نظام تعليمي متطور وصناعة فضاء إعلامي متميز، ولكن هذه الدولة تريد الآن وبإلحاح تاريخي، أن تطرح سؤالها المؤجل دوماً وهو سؤال الأمة الحارق، بحيث دخلت معه مرحلة نوعية من التطور الاجتماعي، بحيث بدأت في التكون كأمّة أي أنها انتقلت من مرحلة المجتمع الهجين إلى أفق المجتمع الذي شرع في القبض على مرجعياته المختلفة والعمل على صهرها في بوتقة الهوية الأميركية، فالتنوع الذي يعيشه لا يلغي بالضرورة فكرة الأمل في الوحدة، والأشياء الذي ضاعفت من منسوب الشعور القومي، هي تلك الفوبيا من الآخر، والتي كانت منتشرة همسا وغدت مع كثرة الانتشار الأفقي حديثا بائنا وصادعا، فلفظة «أميركا» لم تعد مكانا لتلاقي الأجناس، بل تحوّلت إلى فضاء ثقافي غربي تماماً.

فالأمر مثلا عند صمويل هنتنغتون (1927-2008)، وبخاصة في مؤلفه «من نحن.. المناظرة الكبرى حول أميركا»، تظهر بصورة واضحة رغبة الأميركي في طرح سؤاله الحارق حول الهوية/الأمة، والعبارة الموجودة في العنوان موحية، بحيث بدأ في مساءلة ذاته، نظر لتواجده وانغماسه في نهر من المتغيرات الداخلية التي تتعلق رأساً بالهجرة وتعدد الإثنيات، وقد تلازم ذلك مع ضمور العدو الشيوعي، وبروز أعداء جدد، لكن وفق مقتضيات ثقافية ودينية فانتصب أمامه العدو الديني الجديد وهو التطرف في صورته الإسلامية.



ريك مكيي

نحن هنا في هدا المقام التساؤلي، لا نريد أن ندافع عن الظاهرة الترامبية، بالبحث عن مسبّباتها التاريخية والفكرية، بل نبتغي فقط التفكر فلسفيا في هذا التحوّل السياسي بطابعه الاجتماعي، لأنّنا نعتقد أنّ المجتمع الأميركي في مستهل الطريق نحو الدخول في مرحلة جديدة من الحركية الاجتماعية تتمثل في انتقاله من سؤال الدولة إلى طور سؤال الأمة، وما يستلزم ذلك من مفردات تتناغم مع مقتضيات الأفق، وربما تكون هذه الظاهرة الترامبية عابرة في مسار السياسة الأميركية، بالنظر إلى الأصوات الثائرة على الوضع، إلاّ أنّ ما يجري في العمق يشي بانتشار نزعة مؤمركة، تريد أن تقدّم نفسها على أنها متميزة عن غيرها، وأنّ زمن الهجرة الفوضوية إليها يجب أن ينتهي، وأنّها ليست قدرا مفتوحا على المستقبل، فمن خلال المسار التاريخي لأميركا انتقلت من أقدم دولة في القرن العشرين إلى أحدث أمّة هي في طور التكوّن والنشوء.

إنّ العقلية الغربية وفق المنظور الهيغلي الذي يمجّد انتهاء التاريخ في الدولة البروسية، هي علامة على انتهاء الغرب في الدولة/الأمة الأميركية، وأنّ فكرة الأصل التي تتغنّى بها القوى الهامشية قد غدت أغنية ممجوجة ومهجورة تاريخيا، وعلى هدي هذا التمشّي يمكن أن نتحدث عن نزعة أميركية منكفئة على ذاتها من أجل ترتيب البيت الأميركي وفق معيارية خاصة، ولا يمكن أن نفكّر في هذه الظاهرة بعيدا عن حاجة الغرب إلى زعامات تاريخية تحوز على إمكانية القرار الجريء، وحاجتهم إلى شخصية رعناء مثل ترامب لتنقل هذا السؤال من الهامش المسكوت عنه والمفكر فيه، إلى العلن، فالتاريخ يحتاج في بعض الفترات إلى نسبة عالية من الجنون، لكي يحدث خلخلة بطابع زلزالي في النظام السائد، ويمرّر الخطابات التي طُبخت في بيوت الفكر القادم، الذي يأتي هادئا دوماً، قبل أن يتحول إلى عاصفة، وبعيدا عن الثرثرة الإعلامية المزعجة.

كاتب من الجزائر

التوصيف العقلاني للفاشية الجديدة

محمد حيّاوي

لعل السؤال الأكثر جاذبية الآن هو هل يستطيع سياسي واحد تبديد عقود من التوجهات والأطر العالمية والتأثير على مستقبل العولمة والنظام الاقتصادي الجديد؟ وهل وصلت العولمة إلى مستويات لا يمكن تحملها؟
إن المراقب لحركة الأسواق العالمية والمشكلات التي تحيط بها لا بد أن يلحظ تراجعاً ملحوظاً في منسوب التفاؤل، فثمّة شكوك وتكهنات بشأن السنوات المقبلة التي ستشهد تراجعاً على صعيد حرية التجارة وضعف التنسيق بين ضفتي الأطلسي، حتّى قبل صعود ظاهرة ترامب في الولايات المتحدة. وبعبارة أخرى فإن الأرضية كانت ممهدة منذ سنوات لطروحات الرجل الخاصّة بإلغاء اتفاقية التجارة العالمية وفرض ضرائب على الشركات الأميركية التي تستثمر في الخارج والتعهد ببناء الجدار العازل مع المكسيك لمنع الهجرة غير الشرعية، وصولاً إلى التهديد بالانسحاب من اتفاقية النافتا «اتفاقية التجارة الحرة بين الأميركيتين» والتخلي عن دعم الشراكة عبر المحيط، وطرد أكثر من مليوني مهاجر. ولعل السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو ماذا لو نجح ترامب في مساعيه المعلنة تلك؟ وما الذي يتبقى من آثار العولمة؟

تعتقد الباحثة الاقتصادية الأميركية في مؤسسة بروكينغز برينا زايدل، إنّ التأثير المباشر سيكون على الولايات المتحدة نفسها التي ستشهد انغلاقاً على الذات، ذلك لأن الولايات المتحدة هي الأكثر عولمة نسبة إلى بلدان العالم الأخرى، لجهة انفتاحها على المهاجرين، فهي تشكل ما نسبته 19 بالمئة من حجم المهاجرين في العالم، أي ما يعادل 4 بالمئة من سكان العالم، وفي الواقع فإن الولايات المتحدة هي الوجهة الأولى للمهاجرين على مدى العقود الأخيرة.

الوضوح وليس الأمل

في محاولة لفهم المصطلح أجد من المفيد العودة إلى رأي الكاتب والمفكر الإيطالي المعروف أمبرتو إيكو الذي يقول فيه، «إن -الوضوح- وليس -الأمل- هو المفردة المناسبة المضادة لمفردة -اليأس-. ولكي تكون مستيقظا للمفاجآت غير السارة، في مواجهة أدلة متزايدة على أن الجنس البشري يواجه لحظة حاسمة من السياسة الحيوية المهددة للتأسيس الحضاري وانهياره أكثر من أي وقت مضى». إنّ اليقظة يمكن أن تؤدي إلى تنشيط الذهن. هذا التوصيف ربما أكثر من يحتاجه هم هؤلاء الذين يعيشون داخل الولايات المتحدة الآن بعد صعود ظاهرة ترامب المثيرة للجدل، فبالنسبة إلى هؤلاء يتبدى الخوف مما سوف يقوم به ترامب لجعل «أميركا بلداً عظيما مرة أخرى»، إنَّه مزيج من الشعور بالخوف الساحق والإحباط الثقيل للغاية، من دون أدنى اكتراث للأزمة السياسية الحيوية التي تهدد مستقبل الموئل البشري، وانقراض العديد من الأنواع.

الأمل والغضب أم السخط؟

يعتقد جان برايسموث، أستاذ الفيزياء النظرية في جامعة لوفان، ومؤلف كتاب «التدخل الإنساني: استخدام حقوق الإنسان لبيع الحرب» (2006) وغيرها من الكتب، بأن العمل السياسي يستند بالدرجة الأساس إلى ثنائية «الأمل والغضب»، الأمل باعتباره مسألة إرادة مستنيرة وهو مناقض للتفاؤل، الذي غالبا ما يكون هروباً من الواقع وعدم الاعتراف بالمخاطر المحيطة بنا والأضرار الناجمة عنها. المتفائلون في كثير من الأحيان يلوّحون للمستقبل بابتسامة حميدة، كما لو أنه ليس هناك ما يدعو للقلق، طالما المرء قادر على التأمل مرتين في اليوم. واستناداً إلى برايسموث نفسه فإنَّه عندما يكون الرئيس الجديد نتاج الظروف الراهنة، يمثل تحدياً روحياً ويعتمد على نوع من الإيمان المبهم، وبالنظر لعمق الأزمات المتعددة التي تهدد البشرية في عصرنا الراهن، فإنَّ «السخط» هو الرد المناسب على الأخطاء المعقدة التي ترتبط بالفساد واستغلال النظام الأبوي والتمييز غير المبرر، السخط هو بمثابة الأساس اللازم لرفع الوعي السياسي، مما يجعل التعبئة مجدية والتحول ممكنا.

انتهى كلام برايسموث، لكن في المقابل ثمّة آخرون كثيرون قرعوا أجهزة الإنذار المختلفة في الكثير من البلدان للتحذير من صعود الشعبوية اليمينية في العالم. محذرين من أن جرثومة الفاشية الجديدة بدأت تهاجم القلوب والهيئات والعقول بشراسة، وفي كثير من الأحيان بتفويض ديمقراطي، بما يسمح بصعود جيل جديد من الحكام المستبدّين ومنحهم الشعبية، ومثل هذه الجرثومة معدية وخطيرة وتصيب الجسم السياسي مباشرة في العديد من المجتمعات في الواقع، لا سيما وأنّها تدفع، ومن دون وعي مباشر، الناس للهروب من الاستياء أو الاغتراب الناجم عن الآثار المفترسة للعولمة النيوليبرالية في أوروبا وأميركا الشمالية إلى التطرف.

لقد تفاقم هذا الاستياء بشكل خطير لدى الأوساط المناهضة للهجرة بطريقة هستيرية وديماغوجية، مسلّحة ببنادق التحرر والسياسة النقديّة، فما زال البعض ينظر لقضية تحرير الاقتصاد كنظرية مقدّسة من وجهة نظرهم، حتّى لو تطلب الأمر التضحية بالأقليات ومحق المكاسب النسوية وتشجيع نزعة الاستهلاك التي تتحدى العلم، وتحويل الانتباه عن الأخطار التي يشكلها امتلاك وتطوير ونشر أسلحة الدمار الشامل، فضلاً عن ارتفاع درجة حرارة الكوكب التي وصلت إلى نقطة اللاعودة.

إنَّ الأمر الذي يدعو للاستغراب هو انتشار الرغبة بضرورة الانخراط إلى الحد الأقصى في الشعور الجمعي الخاص بالخوف من الآخر في الولايات المتحدة، والمطلوب من الجميع البقاء في حالة تأهب قصوى فيما يتعلق بالمخاطر التي تشكلها عملية تحكم يهيمن عليها غوغائيو وسائل الإعلام الموجهة التي حشدت الشعبوية اليمينية كما لم يحدث من قبل، بعد أن أحاطت نفسها بمجموعة من العقائديين الرجعيين. المشكلة المتفاقمة الآن هي أنَّ الولايات المتحدة ما فتأت تقدم نفسها كدولة عالمية، الأمر الذي يجعل من الأخطاء الشنيعة التي تُرتكب هناك ذات تأثيرات وأصداء تتردّد في جميع أنحاء العالم، وهذا الأمر واضح جداً فيما يتعلق بالسياسات الاقتصادية والبيئية والأمنية وغيرها، أيضاً هناك الشعور بتفاقم احتمال نشوب الحرب الدولية نتيجة لهذه السلوكيات الجيوسياسية المشينة.

محمد عمر خليل

التوصيف العقلاني للفاشية

في التوصيف العقلاني لمفهوم الفاشية كتب جورج أورويل قبل عقود من الزمان أن الاستخدام المبكر لهذا المصطلح يعود للعام 1922 في أعقاب حكم موسوليني في إيطاليا، الذي عاش وترعرع في أحضان الفاشية الإيطالية الأصلية، التي اشتقت تكتيكاً غامضاً يمزج بين ما أسماه أورويل أسلوب «المكر والقوة»، وفق خطة قد تبدو من الخارج عقلانية إلى حد ما، لكنها عنيفة في سعيها لطمس الديمقراطية. هذا الأسلوب أو التكتيك نجده بوضوح في «كفاحي» لهتلر وخطب موسوليني على شرفة قصر فينيسيا التي كان يدعو من

خلالها إلى «خلق الإمبراطورية الرومانية الجديدة» ويشيد بمساندة البرلمان الإيطالي آنذاك، أو الكتيبة الفاشية حسب أورويل. مثل هذه الإحالات لا بد أن تتمحور حول السؤال المعاصر والجدل الدائر حالياً في الولايات المتحدة فيما إذا كان دونالد ترامب فاشياً أم لا؟

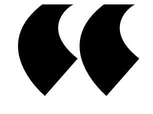
وبالعودة إلى أمبرتو إيكو، الذي ولد في ظل نظام موسوليني في العام 1932، والذي كتب في العام 1995 مقالاً ناقش فيه دعوات أورويل هذه بشأن استخدام مصطلح الفاشية، قال فيه «إن نعت موسوليني بالفاشية ينبغي أن يخضع للتحليل الدقيق، كي لا يهبط إلى مستوى الشتيمة»، إيكو هنا يأخذ الأمر على محمل الجد حين يقول، ينبغي علينا تفحص الأمر جيداً، فالأساليب تغيرت كلياً، ولم يعد الأمر مباشراً كما السابق، إذ ليس بالضرورة أن يرتدي الفاشي قميصاً أسود ويستعرض في الساحات، الفاشية المعاصرة يمكن أن تعود بأشكال أشدّ تنكراً بلباس البراءة، ويعتقد إيكو «إن من واجبنا كشف تلك التنكرات والإشارة إليها بوضوح وفضحها باستمرار أينما وجدت وفي أيّ جزء من العالم». وحسب إيكو دائماً فإن مصطلح الفاشية الجديدة، وإن استند إلى توصيفات المصطلح الإيطالي القديم، لكنه لا يشترك معه بالضرورة في السمات العامّة، لأن الفاشية الجديدة تستند إلى ما أسماه «شعبوية انتقائية أو نوعية». الأمر من وجهة نظري يشبه إلى حد ما وصول ترامب إلى السلطة على محفة الـ»الإستثنائية الأميركية» مدفوعاً بما نسبته 46 بالمئة من أصوات الأميركيين، الذين وإن بدوا أقلية من نوع ما لكنّهم أعداد هائلة من الخائفين أو القلقين على مستقبلهم، أو المصدقين بالخطاب أو النمط الشعبوي اليميني القائم على استراتيجية إعادة الروح القبلية التي بدأت في أوروبا الشرقية والآن صارت تجتاح الغرب كله، تلك الاستراتيجية التي تعتمد على إحلال الشعور القومي الشعبوي بدل الدين المتطرف في عالم باتت تتصارع فيه مفاهيم العولمة بأسلحتها الاقتصادية الفتاكة مع الحداثة وحرية الحركة والتنقل والتفكير. فتحول ادعاء جنون العظمة كمعادل موضوعي لمشاعر الخوف من الآخر، وهو ما تستغله اليوم عناصر يمينية متطرفة في جميع أنحاء العالم.

بثور اليمين في أوروبا الشرقية

إن ظهور بثور اليمين الأوروبي المتطرف تبلورت أكثر ما بعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفييتي، عندما طغى شعور كاسح بالشعبوية لدى الكثير من أفراد الطبقات الوسطى والسياسيين الجدد في دول أوروبا الشرقية، كردة فعل متطرفة على ما أهدر من طاقة وطنية وإمكانيات



إن ظهور بثور اليمين الأوروبي المتطرف تبلورت أكثر ما بعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفييتي، عندما طغى شعور كاسح بالشعبوية لدى الكثير من أفراد الطبقات الوسطى والسياسيين الجدد في دول أوروبا الشرقية



لعقود من الاشتراكية الشوهاء التي عطلت، من وجهة نظرهم، بناء مستقبل زاهر للأجيال اللاحقة، وبدأت تلك الظاهرة بصعود اليميني المتطرف فيكتور أوربان في المجر أواخر العام 1990 بالتزامن مع صعود سلوبودان ميلوسيفيتش في صربيا وفلاديمير بوتين في روسيا.

لقد أدى ظهور القوميين المتطرفين في أوروبا الشرقية إلى ارتفاع الميول العنصرية كردة فعل لما يعده البعض شعوراً بالحيف من الاشتراكية، وارتفعت مظاهر الإعجاب بالديمقراطيات الغربية، وازدادت هجرة الكثير من الناقمين على الماضي كلاجئين إلى أوروبا الغربية، الأمر الذي وفر فرصة ذهبية لاصطياد هؤلاء من قبل الأحزاب اليمينة المتطرفة في فرنسا وألمانيا وبريطانيا وغيرها من بلدان أوروبا الغربية، وبات سياسيون يمينيون متطرفون من أمثال مارين لوبان، التي ورثت زعامة حركة متطرفة هامشية من والدها، تحظى بشعبية متصاعدة في أوساط الناخبين الفرنسيين، وهي التي كانت لا تحظى بأكثر من 15 بالمئة من الأصوات، وكذلك الأمر مع السياسي البريطاني الهامشي نايجل فيرج الذي كان محط سخرية السياسيين والصحافة البريطانية من اليمين واليسار، ومع ذلك حقق فوزاً ملحوظاً في الانتخابات الأخيرة بعد أن رفع شعاراً مفاده أن الدعوات للتكامل الأوروبي لا تتطابق مع مبدأ الاستقلال، واليوم نرى أن المملكة المتحدة في طريقها للخروج فعلياً من الاتحاد الأوروبي لتدخل مستقبلاً مجهولاً.

ديناميات ترامب.. الرئيس الأسود

وبالعودة لظاهرة ما بات يعرف في الإعلام الأميركي بالـ»ترامبية»، أو صعود دونالد ترامب إلى سدة الرئاسة في الولايات المتحدة الأميركية، على الرغم من تصريحاته المثيرة للجدل حول المهاجرين المكسيكيين والمسلمين واللاجئين والنساء والأقليات الأخرى. فما هي يا ترى الديناميات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي مهدت الطريق لصعوده؟ وقبل ذلك تفوقه على 16 من منافسيه داخل الحزب الجمهوري؟

لقد كان الخطاب التنافسي بين المرشحين النهائيين للرئاسة في العام 2016 مثيراً للغاية نتيجة للتناقضات الأيديولوجية الكبيرة المطروحة للنقاش أو تلك المرفوعة كشعارات، الأمر الذي أفصح عن تباين غير مسبوق في الفلسفات السياسية، وفي الوقت الذي دعت فيه هيلاري كلينتون وبيرني ساندرز إلى ما أسموه «ثورة سياسية»، تمسك ترامب بشعار استعادة أميركا البيضاء لعظمتها، وهو ما دفع الخطاب السياسي في اتجاهين متعاكسين تماماً، يمين متطرف ويسار لا يقل عنه تطرفاً، على الرغم من أن مواقف هيلاري كلينتون قد تحولت في وقت لاحق إلى الوسطية الواقعية، أو الليبرالية التقدمية تحت تأثير شعبية ساندرز في أوساط الشباب وجاذبيته في المناقشات التلفزيونية والحملات الانتخابية.

ويعتقد الكثير من المحلّلين السياسيين في الولايات المتحدة بأن تمكّن ترامب من تحفيز أتباعه من اليمين المتطرف جاء بسبب استخدامه لمشاعر الاستياء العام لدى هؤلاء من التدهور الاجتماعي والاقتصادي، والعوامل التي أدت إلى تمكين الأقليات من توصيل أول رئيس أسود إلى الرئاسة في العام 2008. إن مثل هذه الطروحات يمكن لمسها بوضوح من خلال تفكيك الخطاب الترامبي، إن جاز التعبير، تفكيكاً نقدياً، وبالعودة إلى النصوص والشعارات يمكن استخلاص نتيجة مفادها أن عنصرية ترامب وشوفينيته تستند بالدرجة الأساس إلى تحيزات أيديولوجية كامنة في الخطاب السياسي نفسه الذي يدعو للدفاع عن أميركا البيضاء ويتعهد باستعادة القوة الاقتصادية والاجتماعية للغالبية البيضاء على خلفية «الاستثنائية الأميركية»، كما يدعو بريباء لما أسماه نصرة الطبقة الوسطى التي بنت البلاد ولاقت التهميش على أيدي مرشحي الحزب الجمهوري من الأكاديميين والرأسماليين.

تحولات الحزب الجمهوري

لقد شهدت الدعوات العنصرية في أوساط الحزب الجمهوري تصاعداً مطرداً كردة فعل عنصرية على تصاعد الداعين للحقوق المدنية منتصف الستينات من القرن العشرين، وتململ الحركات العنصرية البيضاء بإزاء المساواة العرقية، وصولاً لصعود ريتشارد نيكسون إلى سدة الحكم في العام 1968 وتحول الحزب، الذي غرف تاريخياً بالنهج الليبرالي، إلى ائتلاف للمحافظين العنصريين، ومع مرور الوقت أصبحت الهوية العرقية المحافظة للبيض أكثر وضوحا. لاحظ مثلاً أن أكثر الذين صوتوا لرومني (90 بالمئة) في العام 2012 كانوا من البيض بالمقارنة مع (60 بالمئة) لأوباما. كرد فعل مستهجن لآراء السود واللاتينيين والمهاجرين من الجمهوريين ككل، الأمر الذي دفع بترامب في الانتخابات الأخيرة لبناء استراتيجيته الشاملة على



تمكّن ترامب من تحفيز اليمين المتطرف جاء بسبب استخدامه لمشاعر الاستياء العام لدى هؤلاء من التدهور الاجتماعي والاقتصادي، والعوامل التي أدت إلى تمكين الأقليات من توصيل أول رئيس أسود إلى الرئاسة العام 2008

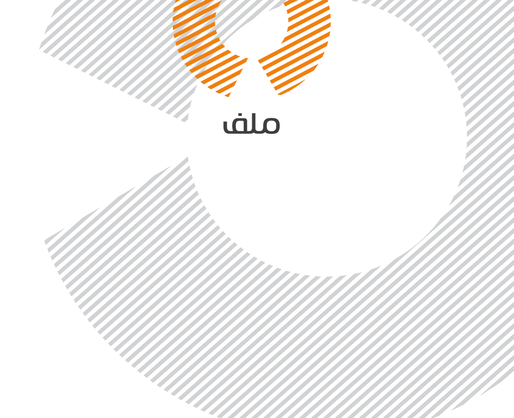


هذا الاستهجان عندما سمّى المهاجرين المكسيكيين بـ»المغتصبين» ودعا لمنع المسلمين من دخول البلاد، وهي دعوات مفتوحة وملتهبة في المواقف العنصرية على نطاق واسع في قاعدة ناخبي الحزب الجمهوري، الذي باتت سياساته في العقود الأخيرة تتميز بالترويج لسياسة الاستقطاب. وهو الأمر الذي يثير الكثير من التساؤلات بشأن تحول حزب لينكولن من الخطاب المعتدل والليبرالي المساند للحقوق المدنية في الخمسينات والستينات من القرن العشرين، إلى الخطاب المتطرف الذي يتبناه دونالد ترامب وغيره الكثير من الجمهوريين المعاصرين.

لقد مرّت اليوم 100 سنة بالضبط على انتخاب أبراهام لنكولن للرئاسة في العام 1860، وكانت معطيات السياسة الأميركية مستقرة بشكل ملحوظ. على الرغم من القيود التي كانت مفروضة على تصويت السود، وكراهية الجنوب الأبيض الثابتة لحزب لينكولن، في وقت ظل فيه زعماء الحزب الديمقراطي مواظبين على استيعاب «الحساسيات» العرقية في الجنوب. ومزايا التأمين الاجتماعي للسود في الولايات الجنوبية بعد أن بدأ التحول الكبير في توجهات الحزب الديمقراطي في الستينات من القرن الماضي، عندما تبنى مواقف الحركات الاجتماعية التي دفعت بإدارة الرئيس جون كينيدي ومن بعده ليندون جونسون، لتفتيت المسألة العرقية في أميركا، وشيئا فشيئا بدأ التحول في مواقف الحزب الديمقراطي الحاد نحو اليسار بالاستناد إلى قضايا نبذ مفهوم العرقية، فضلا عن مجموعة متنوعة أخرى من القضايا والمسائل المتعلقة بمسؤولية الحكومة في الاقتصاد وحقوق الأقليات.

لقد أغضب احتضان ليندون جونسون للإصلاح في مجال الحقوق المدنية، على سبيل المثال، الناخبين البيض في «الجنوب الصلب»، الأمر الذي دفعهم للتخلي عن الحزب الديمقراطي لأوّل مرّة في العام 1964، مستندين إلى ما أسماه المحللون التاريخيون «مقاومة حركة الحقوق المدنية كظاهرة الجنوبية»، وقد أدى رد فعل البيض الجنوبيين هذا إلى مزيد من التوجهات العنصرية الجديدة لدى الحزب الجمهوري.

كاتب من العراق



تقليص العولمة

آراء عابد الجرماني

أثيرت زوابع من جدالات تناولت صعود دونالد ترامب لرئاسة أميركا وخطاباته التي طغى عليها الموقف الشخصي بدلا من مراعاة السياسات الداخلية والمعايير الدولية، مع شيوع حال من الدهشة لتمكن ترامب من شغل منصب رئيس أميركا في عصر العولمة الذي وسم بأنه لم يعد يسمح بظهور حالات راديكالية من مثل ترامب لتحكم العالم.

وما تلك الدهشة إلا دليل على أن شعوب العالم ما زالت تخلط بين مظاهر انتشار العولمة وشيوع التواصل عبر الشبكة العنكبوتية. فالعولمة التي تعدد تلقيها معرفيا وتعريفيا لم تحقق معناها الأبسط (مع الكثير من حسن النية) فعليا بكونها اتجاها توافقيا يهدف لتوحيد الشعوب على مستوى العالم من خلال نظام واحد كمثلث بثلاث أضلاع من الاقتصاد، والمعرفة، والتطور العلمي والتكنولوجي. فنحن مازلنا نعيش حالات المعاداة وموازين القوى المتصارعة وليس حالة توافقية تكفل توازن مثلث نظام العالم.

من خلال هذه المعرفة البسيطة للعولمة وإدراك حجم حضورها يمكننا الانطلاق لقراءة ظاهرة ترامب دون إغفال لحظة ظهوره على درج طائرته الخاصة في واشنطن، يلوح بيده معلنا هيئته الرئاسية ولما يتسلم بعد مراسم الرئاسة من البيت البيض، اللحظة التي رآها الإعلام الأميركي اقتحاما للمشهد الرئاسي والتي أخذت لاحقا بالإعلان عن موعد هزة معرفية وثقافية تعيد تحديد إرادات الشعوب والمفكرين في كل أنحاء العالم.

تقليص العولمة

لا يمكن القول فيما ينثره ترامب في خطابه يمنةً وشمالاً بأنه (فكر ترامب) فهو ظاهرة لا تساير الحراك الزمني والواقعي للعالم، حيث لا يأل جهدا في التأكيد على أفكار تعاكس مجرى سير العولمة من مثل تقوقع أميركا نحو حماية الداخل من الأجانب وإغلاق الحدود، والاعتزاز بأميركا لتكون الأولى في العالم، ومن ثم الحديث عن تشييد سور يفصل بين المكسيك وأميركا، ولفظ المقيمين غير الشرعيين منها، ونبذ المسلمين ومراقبة المصلين في جوامعهم بل وفكرة هدم الجوامع ذاتها. طروحات تخالف ما انشغل العالم بالتنظير له وتفعيله على الأرض، من سرعة وسهولة نشر المعلومات وتقليص معنى الحدود وزيادة معدلات التشابه بين المؤسسات الاقتصادية والمجتمعات المدنية في العالم.

فالعولمة التي أخذت بالتشكل بصفتها معطى حتمياً علميا تكنولوجيا واجتماعيا، معطى كرّسته ثورة المواصلات والاتصالات وما أنتجته من مفاهيم وقيم سلوكية ذات تأثير فعال في مختلف جوانب الحياة الخاصة والعامة، تواجَهُ الآن بحجر عثرة ترامبي قبلي، لا يراعي القفزات في الزمن والحدث التي يشهدها العالم.

لكن السؤال هو: هل هناك إمكانيات لتحقق خطاب ترامب والخطف خلفا؟ إمعان النظر عموديا في تاريخية الثورة التقنية الحالية حيث لا مجال لعزل الحدود وعزل الشعوب، ينبئ أن الأمر بالنسبة إلى ترامب ومناصريه لا يعدو مجرّد حرب مع طواحين الهواء تستنزف طاقات البشرية وتهدر وقتها، حيث إن أحد أوجه تعزيز الجانب السياسي للعولمة اعترافها بالحريات من حرية العقيدة والفكر والتعبير وحرية الانضمام إلى التنظيمات السياسية وتشكّل الأحزاب والانتخاب والتي من مظاهرها سقوط النظم الدكتاتورية والشمولية والاتجاه إلى الديمقراطية والتعددية والنزوع إلى تأكيد احترام وصيانة حقوق الإنسان وهو ما يجعل من حراك العولمة في العالم حراكا على شكل عجلة ديناميكية ربما تعطلها مؤقتا حروب كبيرة ولكنها لا تتوقف، بل تستأنف نشاطها بمجرد انتهاء الحروب.

لحظة توافق

بالنظر إلى موقعنا من الخطاب الترامبي المنقلب على العولمة لا يمكن تجاهل موقف الكثير من كتاب ومفكري العالم الثالث المعادي لمفهوم العولمة باعتباره يعبّر عن ظاهرة تعمل على (أمركة العالم) وتهميش الشعوب وإذلالها وجعل العالم يعيش داخل قوالب جامدة فرضتها عليه قوى الإنتاج والإعلام الأميركية والتي برأيهم تحاول أن تجعل من العالم نسخة منسوخة من سلوك أميركي محض وتنميط العالم



كريستيان بلوم

وتشويهه وسلخه عن ذاته وعن واقعه المرتبط بماضيه. لذا قد عمد أصحاب هذا الموقف إلى مقاومة ظاهرة العولمة وإثارة جدل واسع حول آثارها السلبية المتمثلة بسحق الهوية والشخصية الوطنية وإعادة صهرها وتشكيلها بما يتوافق مع نموذج مؤطر لهوية شخصية عالمية نتجت عن مظاهر من مثل سحق الثقافة والحضارة المحلية الوطنية وإيجاد حالة اغتراب ما بين الفرد و تاريخه الوطني إضافة لتحييد المصالح والمنافع الوطنية الخاصة في حال تعارضها مع مصالح القوى العظمى كالسيطرة على الأسواق المحلية وتحويلها إلى مؤسسات تابعة لها والتي سيكون سبيلها في ذلك بممارسة القهر والاستلاب.

اللافت في الأمر هو أن هؤلاء ذاتهم قد توافقوا مع أصحاب الموقف المرحب بالعولمة وذلك من حيث رفض ظاهرة ترامب واعتبار أنه ومنذ الخطاب الأول (خطاب القسم) إنما قد جاء بالنذر الأولى لما يخالف حريات الشعوب، وذلك عندما جلد ترامب الإدارات الأميركية السابقة، وكأنه يقوم بـ»حركته التصحيحية»، وأطلق شعاراً يجده لائقا وممثلا للدولة العظمى التي سيرأسها في السنوات الأربع القادمة: «أميركا أولاً!»، كما لو أن أميركا إحدى الدول النامية المحكومة بدكتاتوريةٍ فاسدةٍ تسعى إلى الاختباء وراء ديماغوجيا وطنيةٍ جوفاء.

إن توافق أصحاب الموقفين المعارض والموالي للعولمة في هذا الموضع يحث الخطى نحو التساؤل فيما إذا كان من عادى العولمة أساساً قد اتكأ إلى دراسة ورؤية عميقة وشاملة تراعي الحراك العالمي ومتطلبات هذا الحراك أم أنه اتخذ رد فعل ارتدادي ارتكاسي سببه عدم

توفر المقدرة على التكيف مع معطيات الجديد والطارئ؟ فمعاداة المعارضين للعولمة لخطاب ترامب هذا إنما يجنح من منطلق مراعاة خصوصية الفرد والمصالح الوطنية نحو منطق تمكين الفرد من حرية الانتشار وتخطي الحدود الأميركية والقفز فوق جدران الحدود (الوطنية). ومن هنا فإن ظاهرة ترامب تستدعي إعادة النظر في الذوات ومرادها والحراك الحاصل بالضرورة وتمكين نظريات فكرية تتطرق للعولمة بما يمكن أن يتوافق عليه مفكرو العالم جميعاً المناهضون للعولمة والمريدون لها معاً وما ينتهز مواضعات الراهن وقراءة هويته الحالية قراءة جينيالوجية واعتبارها فرصة لوضع محددات طريق يتجاوز العولمة إلى مفهوم جديد ربما تكون العالمية أحد نسيباتها.

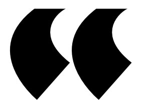
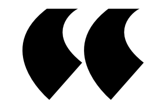
مركنتيلية ترامب

بالاطلاع على المعطيات القبلية نفتح باب الاستقراء للراهن. فقد أصرّ ترامب في برنامجه الانتخابي سابقا والإداري حاليا على وضع مصلحة أميركا الاقتصادية في المقام الأول وبذلك ربط وجوده على كرسي الرئاسة بأولوية الاقتصاد وهو أمر يأتي منسجما مع كونه (مستثمر). وبالرغم من أن تحسين اقتصاد أميركا كان أحد أدوات البرامج الانتخابية لرؤساء أميركا سابقاً إلا أن الأمر يبدو مختلفاً مع ترامب.
من المعروف أن الكتلتين العظميين في العالم أميركا وأوروبا لا تتفقان بالشكل الخارجي لبناء أنظمتهما، وإن كانت هناك الكثير من الاتفاقات التي تخص الحقوق الإنسانية والقوانين. فأميركا اختارت ربط حضورها في العالم بعاملين أساسيين هما السياسي والعسكري، وذلك من خلال حماية وإدارة عجلات القيادة وتحويل مسارات القوى السياسية في العالم بما يخدمها اقتصاديا ودون اللجوء إلى الاحتلالات الكولونيالية التي لجأت لها الدول الأوروبية ولاسيما الأسكندنافية لاختيارها الارتباط بعاملين أساسيين بالنسبة إليها هما الاقتصادي والسياسي. الأمر الذي شكل فرقا بين أميركا وأوروبا في المنظومة الاقتصادية والسياسية لاحقاً.

خيار أميركا ذاك جعلها تعتلي مكانة الدولة الحكيمة التي لا تقتنص أزمات الشعوب وتحتلها لتستخدم مواردها الاقتصادية وتبادلها بالمعادن الثمينة لرفع اقتصاد أميركا كما هو حال هولندا وإنكلترا وفرنسا وغيرها من الدول الكولونيالية. وكانت حكمة أميركا من تبنيها هذا أن أميركا لن تكتسب توحدها من خلال تشتت حدودها في كانتونات ووحدات اقتصادية في بقاع مختلفة من العالم، لذا عمدت إلى نظام بديل بنشر وتثبيت القواعد العسكرية في دول مختلفة.




ظاهرة ترامب تستدعي النظر في الذوات ومرادها والحراك الحاصل بالضرورة وتمكين نظريات فكرية تتطرق للعولمة بما يمكن أن يتوافق عليه مفكرو العالم المناهضون للعولمة والمريدون لها معاً وما ينتهز مواضعات الراهن وقراءة هويته الحالية

في أثناء حكم بوش الابن وأوباما تعرضت أميركا إلى صفعات اقتصادية مؤلمة شلّت بعض أوجه الاقتصاد وظهرت أشكال الفقر ووجوهه في الشوارع الأميركية من انهيار في خدمة العقارات والفوائد البنكية وارتفاع الضرائب الحكومية وتحول المعيشة إلى كابوس يرافق الأميركان لا سيما بعد تكتل المستويات الاجتماعية في تباين واضح وصل لستة فروقات طبقية باتت تهدد المجتمع والدولة. مما فتح أعين الشعب الأميركي إلى ما مفاده أن الحروب الأميركية في العالم كما في العراق وغيرها والتي كانت تكلف أميركا ما يقارب الـ450 مليون دولار في اليوم الواحد هي السبب في وصول الشعب الأميركي إلى ما وصل إليه، وبالطبع لعبت وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي دورا مهما ببث هذه الأفكار وإثارة نقمة الشعب على سياسة أميركا الخارجية وذلك بتصوير حروب أميركا في الخارج على أنها امتصاص لمقدرات وثروات أميركا، هذا ولا يمكن إنكار أن هناك مخاوف شعبية بنيت على واقع يواجهه العالم يوميا بصعود الكثير من الدول اقتصاديا لا سيما الصين وما شاع من أحاديث حول منافستها لأميركا. كل ما سبق بات يشكل مخاوف يتوجسها الشعب الأميركي قبل الانتخابات ويعتقد بضرورة إيجاد بديلٍ لكل السياسيين الذين حكموا أميركا، بديل اقتصادي يعرف كيف ينقذ أميركا. وهذا ما تبنته الكثير من قنوات الإعلام العربي أيضا، فإذا بنا نفتح أعيننا على انتخابات ترامب وقد ازدادت شعبيته، ليكون ترامب (المستثمر) الحل البديل الذي كان يطهى على مهل ليملأ الثغر الذي تتوق لملئه شعوب أميركا ويحقق الطموح بأميركا الغنية.

لذا فقد جاء الحل الترامبي لأميركا حلا نابعاً من حاجة أميركا ذاتها ولكنه ينتمي لمفهوم كان قد أثير في نهايات القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر في أوروبا وذلك بتطبيق مفهوم (Mercantilism) (The concise encyclopedia of economics, David R. Henderson, Liberty Fund, 2008) أو ما يدعى بالنزعة الاتجارية أو المركنتيلية. فالمركنتيلية جعلت من أوروبا بلاد المعادن الثقيلة وسببا لشرعنة الكولونيالية بداية والفرانكفونية لاحقا في مرحلة ما بعد الكولونيالية. وهو ما يجعل من طروحات ترامب طروحات غير عشوائية مطلقاً، بل وتبرز الحديث عن تقليل أميركا من الاستيراد والاعتماد على الموارد المحلية وزيادة الضرائب الجمركية على الصادرات وسحبها لشركاتها ومعاملها الناشطة الموزعة في دول كثيرة واحتكارها داخل حدودها.

تفاؤل عربي

تمت معاداة ترامب داخل أميركا وخارجها ورفضت كل مؤشرات المركنتيلية والتي هي بشكل ما أو بآخر نقاط فاصلة من مثل: إغلاق الحدود بوجه اللاجئين، معاداة الآخر عنصريا بحسب الدين أو العرق أو اللون، التركيز على الصناعات العسكرية، مهاجمة الدول الغنية بالموارد الخام واستعمالها كسوق اقتصادي لموارد أميركا وجعلها كانتونات أميركية اقتصادية وبمعنى آخر تحقيق مفهوم الكولونيالية في أميركا بالثراء المطلوب لشعبها.

تظاهرات الشعب الأميركي الرافضة للكثير من قرارات رئيسهم كانت مصدر تفاؤل عربي وحلم مشروع لكنه بحاجة إلى مرجعية الواقع المتحقق كي لا يجد الشارع العربي نفسه خارج العولمة ورؤيتها التصالحية المعرفية!

إن دراسة الظواهر تقتضي الاستناد إلى الحقائق المادية واستقرائها. ومن هنا يمكننا طرح إشكالية تبدأ من التساؤل: هل إن إجراءات أو قرارات ترامب في تقوية اقتصاد أميركا تعد تهديدا لمصالح الشعب الأميركي؟

تجيب على هذا التساؤل أسئلة أخرى من مثل:

هل يمكن أن تتحقق العنصرية قانونيا في بلد هو في الأساس بلد مختلط لا ينتمي لقومية أو لغة أو دين واحد وهو لا يشبه دول أوروبا الأسكندنافية بأيّ من هذه؟ العنصرية في بلد متنوع أساسا لا يمكن أن تأخذ شكلا قانونياً، أما العنصرية بوصفها فعلا فرديا هي فعل يتواطأ عليه المجتمع الأبيض الأميركي بوعي أو بلاوعي وتوظَّف سياسيا فلا تلبث أن تختفي يوما عن المشهد السياسي والاجتماعي العالمي حتى تطل برأسها ثانية فتغيب حالات عنصرية إعلاميا لأنها حصلت في غير وقتها وتضخم حالات أخرى لأجل إتمام أو إنشاء لعبة سياسية أو اقتصادية أو لتكون موجها لنجاح أحزاب أو حركات سياسية ضد أخرى، فالمرشح في هولندا عن حزب «لأجل الحرية» خيرت فيلدرز كانت شعبيته 12 بالمئة في عام 2011 حيث استخدم وجود اللاجئين ولعب بالإعلام السياسي للتحريض العنصري بحجج اقتصادية تعيق عربة هولندا المالية فوصل إلى شعبية متزايدة في 2016 تزيد عن 35 بالمئة، وما زال اللعب بمفاهيم من مثل العنصرية واللاجئين وزيادة كتلة الملونين والمسلمين السكانية في هولندا هو الخطاب الفيلدري لزيادة حاضنته الشعبية بحجة دعمه وحرصه على اقتصاد الدولة ونقاء هولندا مناوراً ما يشاع عن السياسيين المنافسين له بأنهم يؤثرون النظريات الإنسانية ومصالح الشعوب الأخرى على مصالح شعوب بلادهم.



على الرغم من غضب الشارع وعنصرية ترامب اللافتة إلا أن نظام الحكم الديمقراطي في أميركا المستند للقانون المراعي لحقوق وواجبات المواطن يجعل من موقف ترامب لا يتعدّى كونه شخصيا يمارسه في ممتلكاته الشخصية



وعلى الرغم من غضب الشارع وعنصرية ترامب اللافتة إلا أن نظام الحكم الديمقراطي في أميركا المستند للقانون المراعي لحقوق وواجبات المواطن يجعل من موقف ترامب لا يتعدّى كونه شخصيا يمارسه في ممتلكاته الشخصية من مثل منعه للسود بالسكن في عقاراته أو أوتيلاته! لا يصل حد المخاوف من تحوّل هذه العنصرية إلى شكل مقونن وملزم في أميركا. ومع ذلك فقد استغل ترامب لحظة الغضب الجماهيري جيداً ولم يصعد بالعنف محققا مقولته أميركا أولا!

هل يعترض الشعب الأميركي على زيادة إنتاجية بلده للصناعات العسكرية لأنها ستدمر دولا أخرى؟ إن عودة سريعة لتاريخ أميركا القريب وما قامت به من حروب ودمار في العالم يرينا أنه لم تظهر حركات قوية معادية لسياسات أميركا كافية لمنع قتل المدنيين في العراق أو أفغانستان، في حين نجد اكتفاء بتظاهرات متفرقة منددة بالقتل وبإهدار موارد أميركا البشرية والاقتصادية. ومن جانب آخر كانت تعي أميركا أن مجرّد تلويحها باليد الأخرى بشبح الحركات الإسلامية سيكون كافيا لخلق ولاء لها لا يصل حد الرضى التام ولكن لن يطيح أو يخل بتوجهاتها؛ (أحداث 11 سبتمبر نموذجاً) ويمكننا أن نمد أبصارنا للصناعات العسكرية الأميركية وتاريخ أميركا المعتز بها منذ تجريب فاعلية قنبلة هيروشيما إلى بيع الأسلحة في كل دول العالم.

هل إن وجود ترامب في الحكم سيؤثر سلبا على استقبال اللاجئين وإغاثتهم على أرضها؟ تظهر الإحصاءات أن نسبة ضئيلة جداً من اللاجئين الوافدين لأميركا تم

إعادة توطينها وذلك بما لا يزيد عن واحد بالمئة فقط من اللاجئين على الصعيد العالمي وهو ما صرحت به المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، وما أشار له يونك، من قسم إعادة التوطين.

(How US is failing Syrian refugees, Philippa Garson, Irin News, New York, 5 June 2015)

أما فيما يخص الشعب الأميركي وبحسب القراءات فإنه لا يتقبل وجود اللاجئين إلا بما يناسب ويحقق مصالحه كما حصل في دوتيرويت عندما وجد حاكم ولاية ميشيغان الجمهوري أن تناقص عدد سكان المحافظة من 1.5 مليون إلى 750 ألف يستدعي تعبئة هذا الفراغ باللاجئين السوريين لما لا يزيد عن 50 آلاف لاجئ سوري.

(Let Syrians Settle Detroit, The New York Times, David D. Laitin and Marc Ahrj, may 14, 2015)

كما أنه لم يحصل اعتراض جماهيري في عهد أوباما على مجرى التحقيق المهين مع اللاجئين السوريين إلى أميركا، وذلك بعد أن تمكن الجمهوريون ذاتهم من جعل المخاوف من وجود اللاجئين السوريين سننا معتمدا للتحقيق مع اللاجئ السوري وإثباته للمحققين دون أدنى مجال للشك بأنه غير متورط بالتعامل مع الإرهابيين في سوريا ولو ببيع سندويش!

كل ما سبق لا يدلي إلا بحال مفاده أن أميركا لم تكن في وضع جد مغاير لم هي عليه في عهد ترامب.

ترامب أولا

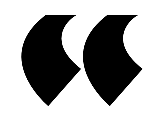
مقاصد ترامب من خطابه تطوير اقتصاد أميركا والنهوض بحياة الأميركيين وتقليص الفروقات الطبقية في المجتمع، مقاصد يقوضها رقم مالي مكون من 916 مليون دولار، وهو عبارة عن الرقم الذي صرح به ترامب عام 1995 على أنه خسائر مالية تكبلت به شركاته وملاهيه وعقاراته مما أدى لإعفائه من الضرائب لمدة 18 عاماً، وهو ما جعله في دائرة الاتهام من قبل مناوئيه أثناء الحملة الانتخابية ومطالبتهم إياه بتقديم تقرير واضح عن ضرائبه ومتعلّقات عمله المالية وهو أمر متعارف عليه بين مرشحي الرئاسة الأميركية، إلا أن ترامب رفض الإدلاء بحقيبته المالية وعندما اتهمته كلينتون بأنه تهرّب ضريبيا في عام 1995 أجابها «هذا يدل على ذكائي».

(Donald Trump Tax Records Show He Could Have Avoided Taxes for Nearly Two Decades, The Times Found, David Barstow, Susanne Craig, Russ Buettner and Megan Twohey 1 Oct 2016, New York Times)

وهو ما يعني أن تهرب ترامب الضريبي




ظاهرة ترامب فرصة لافتتاح قنوات سياسية واجتماعية جديدة داخل المجتمع الأميركي أولا وفرصة لإعادة قراءة عربية لكل المفاهيم السابقة واللاحقة للعولمة وإعادة تشكيل ما يمكن أن يخدم المواضعات السياسية والاقتصادية لمنطقتنا



يعارض تصريحه بأولوية اقتصاد أميركا. من جهة أخرى يرى أن تحويل أميركا إلى أرض ثرية سيؤدي إلى إنهاء الفروقات الاجتماعية وأنه سيعزز هدفه بتقليص الطبقات الاجتماعية من خلال تنظيفه أميركا من المواطنين غير الشرعيين والذين يبلغ عددهم بحسب الدراسات 16 مليون شخص. أي أنه سيقوم بإزالة طبقة اجتماعية واقتصادية أساسية يقوم عليها الاقتصاد والمجتمع الأميركي معاً وهي الطبقة العاملة بأعمال ومهن بسيطة يعتبرها أصحاب الطبقة الوسطى والثرية أعمالا مهينة لا يعملون بها ويسلمون أمرها لهؤلاء من مثل أعمال التنظيف.

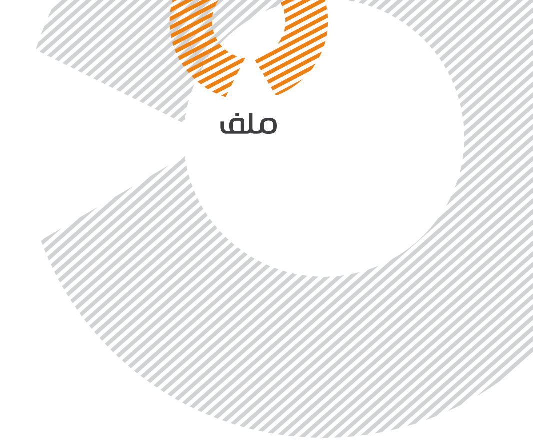
وما زلنا نقرأ قرارات لترامب تتعلق بالجمارك وفرض ضرائب تصل إلى 35 بالمئة على بعض شركات السيارات معترضا على اعتمادها لفروع لها في المكسيك، ولا تدل مثل هذه القرارات أو تلك إلا على أن «ترامب أولاً» يستغل اقتصاد أميركا لمكاسب شخصية، رافعا جدران حدودية ليس ضد المكسيك فقط بل ضد أيّ تقدم في مشروع الرؤية التصالحية العالمي حتى وإن كانت رؤية بشكلها العولمي، كما يمعن في منع أيّ ملمح من ملامح إلغاء الفروقات الاجتماعية طالما يتحدث عن العنصرية ويشرعنها اجتماعيا.

إلا أن إدراك أسلحة ترامب في الوصول لقمة أميركا وتمكنه حتى اللحظة من الاستمرار في قيادة أميركا على الرغم من كل ما صرح به من مقوضات للمجتمع الديمقراطي والعولمة ومحافل الإنسانية ما هو إلا مؤشر على أن أدوات ترامب هي أدوات مدروسة وثابتة وما استلامه للحكم إلا امتلاك ليد قوية سيسعى من خلالها إلى دعم توجهاته وتمكينه من اتخاذ القرار الإجرائي.

إلا أن الخبر الجيد مضمونه أن ظاهرة ترامب فرصة لافتتاح قنوات سياسية واجتماعية جديدة داخل المجتمع الأميركي أولا وفرصة لإعادة قراءة عربية لكل المفاهيم السابقة واللاحقة للعولمة وإعادة تشكيل ما يمكن أن يخدم المواضعات السياسية والاقتصادية لمنطقتنا بالمبادرة إلى الفعل بدلا من التنديد بالآخر ورمي التهم جزافا واعتلاء أمواج ردود الفعل فقط.

كاتبة وأكاديمية من سوريا مقيمة في هولندا

رالف ستيدمان



مستقبل العالم

محمد عبدالناصر

بادئ ذي بدء نطرح سؤالا مفتاحيا مهمًا: كيف أنتج المجتمع الأميركي أساسا تجربة دونالد ترامب؟ أميركا بلد مريض بمرض عضال اسمه «فائض القوة» أو القدرات الجبارة الزائدة عن الحاجة! لنتخيلها مثلا سدًا ضخما يحجز خلفه خزانا مليئا بالماء، وبينما يتراكم الماء باستمرار في هذا الخزان لا تُستخدم مياهه إلا في ريّ حديقة صغيرة مثلا.. ماذا يمكن أن يحدث؟

إذا ظل الماء يتراكم هكذا دون احتياج، فمن الممكن أن ينهار السد ويغرق الحديقة ويهدر الماء كله، لهذا فمن الضروري أن يتم تصريف بعض الماء إلى الخارج من وقت إلى آخر حتى تستمر الحديقة ويستمر السد.. ولو لم يحدث هذا التصريف للفائض فإن المنظومة ستنهار على نفسها عملا بقول الشاعر «والنارُ تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله».

أميركا مجتمع تغلب عليه المحافظة، وإن كان يتحلى بجناح ليبرالي قوي وكبير.. وتسكن جنبات هذا المجتمع قوة هائلة من ترسانات السلاح الضخمة والنفوذ الاقتصادي الجبار.. والقدرات القيادية العظيمة، وهذا الفائض من القوة يؤول باستمرار إلى ما يمكننا أن نسميه «النزوع إلى القهر»، فإذا لم يتم تصدير هذا النزوع إلى القهر لخارج الحدود الأميركية، وبعيدا عن أراضيها، فسيشكل هذا الفكر وهذه القوة خطرا على وجود أميركا نفسها، فمن الممكن في ظل سيادة الفكر المحافظ أن تُستعمل بعض هذه القوة في مقاومة التغيير والتطور بدعوى الحفاظ على التقاليد أو الهوية أو الدين أو ما شابه من ملامح التعريف الثابت للذات!

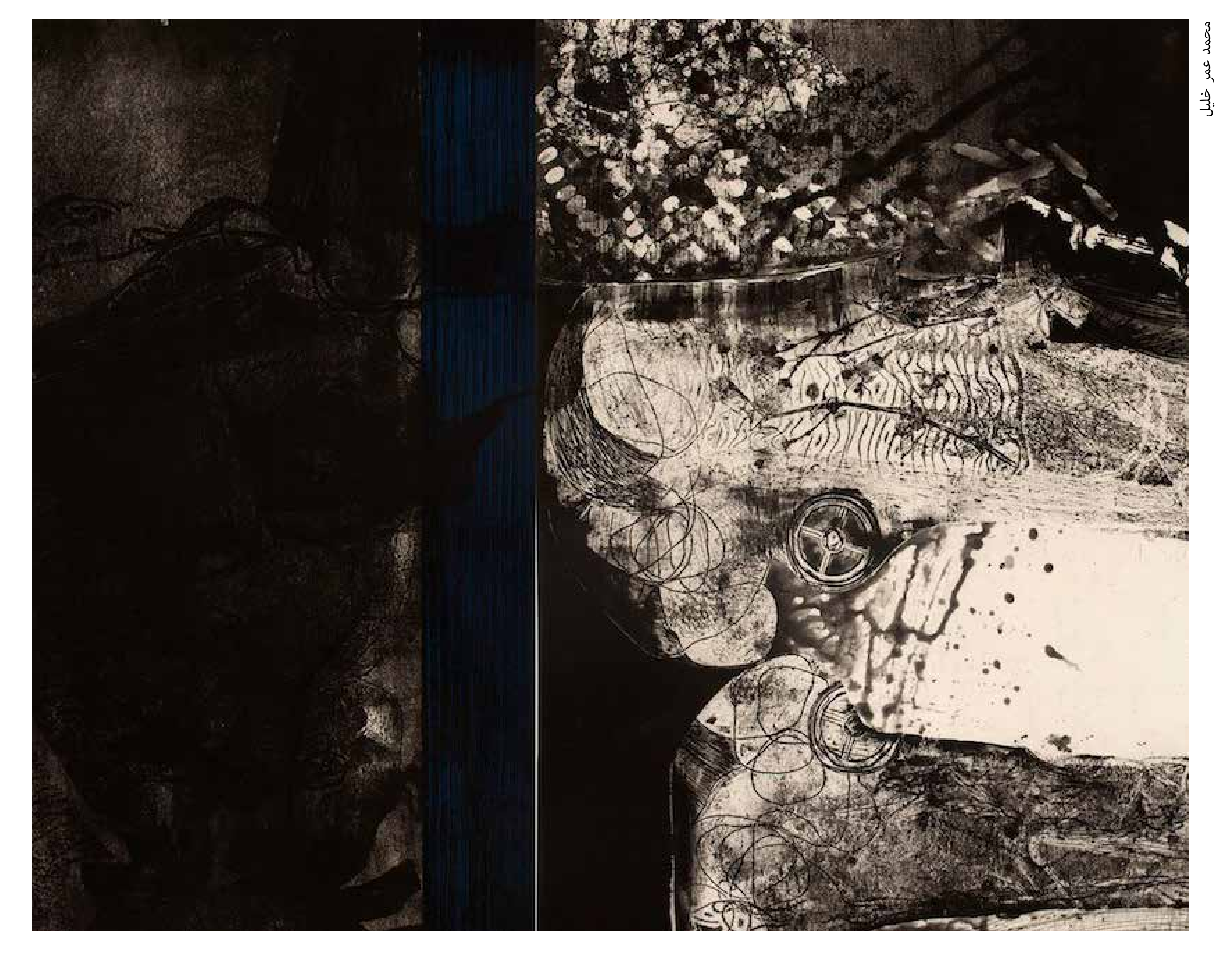
وهذا تحديدا هو ما حدث بالفعل في الحرب الأهلية الأميركية.. وفهم هذه الحرب وهذا الصراع الداخلي الأميركي هو مفتاح مهم من مفاتيح فهم تطور ومآل الحضارة الأميركية بشكل عام، فعندما حاولت الولايات المتحدة أن تخطو خطوة تحررية جبارة إلى الأمام، دون التفات إلى العالم الخارجي، قررت القوى المحافظة فيها أن تستعمل فائض القوة ضد السلطة نفسها، فوقع الاقتتال الداخلي الأميركي، ومن يومها عرفت هذه الحضارة عن نفسها أنها لا يمكن أن تنصرف كليا إلى قطع خطوات تحررية هائلة إلى الأمام، دون أن يتم ذلك جنبا إلى جنب مع تصريف فائض القوة في الخارج، فصارت تلك الحضارة تمشي على قدمين.. قدم ليبرالية وقدم محافظة، الأولى يمثلها الحزب الديمقراطي والثانية يمثلها الحزب الجمهوري، وبالتدريج تقارب الاثنان، فلم يعد الليبرالي طموحا إلى قطع خطوات ضخمة فجأة حتى لا يخلّ بتوازن المسيرة، ولم يعد المحافظ طموحا إلى التعطيل التام لخطوات الليبرالي المحدودة ناحية الحرية، لكنهم ابتغوا سبيلا بين هذا وذاك، حفظ لهذه الحضارة قدرتها على الاستمرار، مع التصدير الدائم لفائض النزوع للقهر الموجود فيها نحو الخارج، فصار الخزان يمتلئ بتوازن.. ربما فاض على حدائق الآخرين قليلا ودمّرها، ولكنه أيضا يروي الحديقة التي تخصه بتوازن وانضباط.

عرفنا إذن أنه ما دامت هناك إمبراطورية، فيجب أن يكون لهذه الإمبراطورية أعداء خارجيون حتى لا تلتهم نفسها.. فهل هذا متسق مع ما فعله الرئيس باراك أوباما في أواخر فترة حكمه..؟ كان للرئيس السابق أوباما اتجاه سياسي إصلاحي نوعا ما، ينزع إلى تقليل التدخل الخشن في العالم، لم يجعله صفرا كما نفهم ولكنه قلله، وهو ما جعل أطرافا في المجتمع الأميركي تعتقد بأن أوباما حليف لأعداء هذه الإمبراطورية أو الحضارة.. وأن هيلاري كلينتون ما هي إلا امتداد له، وهو ما كاد يشعل صراعا حامي الوطيس بين الجناحين الليبرالي والمحافظ في أميركا، لولا تراجع الجناح الليبرالي وصعود الجناح المحافظ لكي يُصدر فائض القوة من جديد إلى الخارج.

لقد تم اتهام أوباما بأنه يوالي الجماعات الإسلامية المتطرفة، بل أحيانا قيل إنه مسلم في السرّ، وهذا لأن أوباما لم يُصدر فائض القوة الأميركي على النحو المرغوب إلى الشرق الأوسط والعالم الثالث بشكل عام.

التحول الأميركي

إن ملامح الانسحاب النسبي للتأثير الأميركي في سياسات الشرق الأوسط والعالم الثالث قد أخذت أشكالا واضحة، بدءا من استكمال سحب القوات الأميركية من العراق، والاكتفاء بالتعاون مع الجيش العراقي في مشاريع تدريب وتسليح، مرورا بالإخلاء الجزئي للقوات البحرية الأميركية الموجودة في الخليج، ثم الاتفاق النووي الإيراني الشهير، ثم التقارب مع كوبا وزيارة راؤول كاسترو في هافانا.. كما لاحظنا أيضا أن الولايات المتحدة تحت حكم أوباما سمحت بكل أريحية باندلاع ثورات الربيع العربي، أو لم تقف ضدها على الأقل لصالح بعض حلفائها الكلاسيكيين كالرئيس حسني مبارك، وأخيرا امتنعت الولايات المتحدة عن إصدار الفيتو على مشروع قرار يدين الاستيطان الإسرائيلي في الأراضي المحتلة..! ما الذي كان يحدث إذن؟ إن كل هذه المؤشرات رسمت موقفا حياديا أو إن شئنا القول «انسحابيا» من تدخل الولايات المتحدة في المنطقة.


محمد عمر خليل

أما سياسات الرئيس ترامب في المرحلة القادمة فيتوقع أن تكون بخلاف ذلك تماما، لقد ادعى ترامب في حفل تنصيبه أنه يريد أن تكون «أميركا أولا» وألاّ تكرس جهود وموارد أميركا للانتشار في العالم.. غير أن الواقع لا يسير بمحاذاة هذه الرطانة الدعائية التي ربما كان الهدف منها طمأنة الجمهور المناوئ لترامب، فمواقف ترامب الفعلية تشير إلى أنه سيتدخل أكثر في العالم ولن يستكمل الانسحاب السياسي الذي قام به أوباما.

هل يكذب ترامب على الشعب؟ أعتقد أنه يكذب فعلا..! ففي المناظرة الرئاسية التي خاضها دونالد ترامب مرشحا أمام هيلاري كلينتون، قال إنه كان ضد حرب العراق في 2003، بينما تثبت التصريحات الصحافية والتلفزيونية المسجلة عليه بالصوت والصورة أنه على خلاف ذلك كان مؤيدا للحرب..!

إن ترامب مراوغ ناجح، ولاعب بارع على كل الحبال، وربما لهذا السبب نجح في تحقيق فوزه غير المتوقع في الانتخابات الرئاسية الماضية، لكنه ليس شيئا جديدا على أميركا، وليس خارجا تماما على التقاليد المؤسسية في السياسة الأميركية كما يظن البعض.. إطلاقا.. صعود ترامب مبرر تماما كما شرحنا في صدر المقال، وهو ليس بدعا من الرؤساء الأميركيين، بل هو معبر عن جناح حقيقي قديم موجود في الحزب الجمهوري، له أفكاره وتوجهاته المتبلورة منذ زمن بعيد، وكان له أيضا

ممثلوه في السلطة لسنوات طويلة.

لنعد إلى الوراء قليلا وننظر إلى الرئيس رونالد ريغان مثلا، فهذا الرجل في تقديري هو أكثر الرؤساء الأميركيين شبها بدونالد ترامب، بل ربما يكون ترامب مجرد محاولة لاستنساخ ريغان جديد.. فحتى على مستوى الخطاب ربما لا يعرف الكثيرون أن شعار حملة ترامب «لنجعل أميركا عظيمة مجددا» كان هو نفسه «حرفيا» شعار الحملة الرئاسية لرونالد ريغان..!

وكما بدأ ريغان كممثل محترف انتقل من الفن إلى السياسة، كذلك كانت مسيرة ترامب أيضا.. فترامب إلى جانب اشتغاله في مجال الأعمال هو نجم تلفزيوني سابق..!

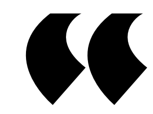
ومرحلة ما قبل ريغان هي أيضا شبيهة جدا بمرحلة ما قبل ترامب، فالرئيس جيمي كارتر الذي جاء قبل ريغان كانت له أيضا سياسات قريبة جدا من سياسات أوباما تنزع إلى لعب دور الوسيط المحايد نوعا ما في صراعات الشرق الأوسط.. والانسحاب الأميركي من التوغل الخشن في العالم، وهو خط سياسي قديم في الحزب الديمقراطي يمتد حتى عصر الرئيس فرانكلين روزفلت الذي أوقف تدخل الولايات المتحدة في أميركا اللاتينية وقرر التعامل معها كمنطقة جوار لا كحديقة خلفية للولايات المتحدة مثلما كان الحال دائما.

أما ريغان فكان انقلابا على سياسات كارتر.. فهو ابن مدرسة ترى أن الولايات المتحدة كإمبراطورية «عظيمة» يجب أن تكون لها اليد الطولى في كل مكان، فهي التي تقرر في كل منطقة ماذا يجب أن يحدث وبواسطة من.. وقد نجح ريغان أحد أساتذة هذه المدرسة في استعادة نفوذ الولايات المتحدة في أماكن كثيرة من العالم إبان حكمه، والكثير من جنرالات العالم الثالث الذين قادوا انقلابات على تجارب ديمقراطية كانت على غير هوى الإمبراطورية الأميركية هم مجرد تلاميذ تخرجوا في هذه المدرسة الإمبريالية..!

إن ترامب إذن ليس رئيسا بل هو إمبراطور، وأهدافه الأولى واضحة تماما.. فترامب لن ينقلب على حلفائه المخلصين كالأسرة السعودية الحاكمة وجنرالات المؤسسة العسكرية المسيطرة على مصر، ولكنه سيستهدف إيران بالحرب.. ربما تكون حربا بالمعنى الحرفي للكلمة، أو حربا بالمعنى المجازي، وإيران في نظر ترامب ليست أكثر من رأس حربة في الشرق الأوسط لتحالف «شرير» يبدأ من حدود كوريا الشمالية وروسيا والصين.. وإيران كانت جزءا مما سماه الرئيس جورج بوش الابن «محور الشر» الذي ضم وقتها العراق وإيران وكوريا الشمالية، وربما كانت روسيا والصين مكتوبتين أيضا بالحبر السري فيما بين السطور.




سوريا وإيران تأتيان على رأس قائمة الدول التي قد تشهد أحداثا موجهة أميركيا في حقبة حكم الرئيس ترامب.. أما روسيا والصين فلا يتوقع أن ينجح ترامب في تحقيق نجاحات كبيرة ضدهما الآن



إن هذه المدرسة الإمبريالية الأميركية لم تتوقف يوما عن الصراع مع هذا التحالف الذي تراه شريرا، وللحق فإنها في صراعها معه حققت ضده انتصارات واضحة منذ عصر الحرب الباردة، لهذا فيمكننا أن نقول إن إيران فعلا في خطر حقيقي، وورودها في قائمة الدول السبع التي منع ترامب مواطنيها من دخول الولايات المتحدة ربما لم يكن إلا مجرد البداية، ولنتحدث بصراحة.. لا شيء فعلا يمكن أن يوقف مسيرة الانتصارات الأميركية هذه إلا انفجار أميركي أهلي داخلي هائل، وهذا ربما ما راهن عليه الروس عندما دعموا ترامب في السباق الرئاسي، وهذه مسألة أخرى سنناقش احتمالاتها بالتبعية لاحقا.

يمكننا في ضوء ما سبق أن نرى احتلال العراق والقضاء على صدام حسين، ثم التدخل بعد ذلك في ليبيا والإطاحة بالقذافي، جزءا من نزعة أميركية لتصفية الجيوب السوفييتية السابقة..! بل إن عرش بشار الأسد نفسه يظل في خطر لولا أن الأولوية الكبرى اليوم على طاولة الأميركيين هي القضاء على تضخم الحركات الإسلامية الخارجة على السيطرة في سوريا ومنها إلى العالم، واليوم الذي سينتهي فيه وجود هذه الجماعات الإسلامية المقاتلة في سوريا قد يكون بالتحديد اليوم الذي سيسبق الإطاحة ببشار الأسد.. وقد يحدث هذا في حكم ترامب الذي يعتبر بشار حليفه اليوم..! لأن الروس والإيرانيين سيخرجون عاجلا أم آجلا من سوريا، وما تبقى من الجيش السوري المنهك قد يفكر ببساطة في اللجوء إلى أحضان أميركا والاحتماء بها خوفا من عواصف قادمة قد تتجدد في المستقبل تطيح بهم جميعا إن لم يطيحوا هم برأس السلطة وبالمسار السياسي الذي ورثته منذ أكثر من أربعين سنة..!

إذن سوريا وإيران تأتيان على رأس قائمة الدول التي قد تشهد أحداثا موجهة أميركيا في حقبة حكم الرئيس ترامب.. أما روسيا والصين فلا يتوقع أن ينجح ترامب في تحقيق نجاحات كبيرة ضدهما الآن، إن المعركة مازالت في مرحلة تقليم أذرعهما من الأطراف، وتبدو الصين في هذه المرحلة أكثر تماسكا واتزانا من الدب الروسي.

إن كل هذه الاحتمالات السابقة تقوم على افتراض أن ترامب باقٍ ومستمر حتى نهاية ولايته أو ربما حتى بعد الحصول على ولاية ثانية.. فهكذا نتصور السياسات الأميركية الخارجية في المنطقة لو جرت الأمور على ما يرام، لكن داخليا سيؤثر هذا المسار بشدة على الاقتصاد الأميركي مثلما أدت حرب العراق وسياسات الرئيس جورج بوش إلى حالة ركود واضطراب اقتصادي هائلين في الولايات المتحدة لم تتم إزالة آثاره إلا مع حكم الرئيس أوباما.

فهل يمكن أن تزيد الاضطرابات الاقتصادية من حدة الاستقطاب الداخلي القائم أصلا بقوة منذ بداية حكم الرئيس ترامب وتزلزل الأرض تحت عرشه؟ نعم ممكن.

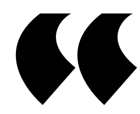
وقد لا تكون مصادفة لهذه الأسباب أن بعض من توقعوا فوز ترامب -في الوقت الذي لم يتوقع أغلب الناس فيه ذلك- توقعوا أيضا في وقت لاحق إمكانية إقالة ترامب..!

إن سياسات ترامب المحتملة ليست أمرا لا تقبله أميركا، على العكس من ذلك.. كما شرحنا؛ هو أمر له سوابقه وتقاليده، لكن من غير المقبول هو أن يتم بهذه الطريقة وبهذا الأسلوب، فترامب على مستوى الشكل والخطاب يتصرف بفجاجة شديدة، كما أنه يُقحم أسرته في إدارة شؤون البيت الأبيض بشكل مستنكر جدا ومباشر، وهذه تصرفات قد تكون مقبولة لدكتاتور من العالم الثالث، لكنها في أروقة السياسة الأميركية تحظى بالاستهجان.. فضلا عن أن علاقة ترامب بالقانون ليست وثيقة، فقد كانت هناك قضية نصب مرفوعة ضده أثناء فترة الانتخابات، فضلا عن فضائحه النسائية التي لاحقته من وقتها، وربما تتكرر مثل هذه الأمور وهو في السلطة، فيتطور الأمر إلى مسار إقالة يرعاه الجمهوريون أنفسهم في الكونغرس، وينتهي باستقالة ترامب أو إعفائه من منصبه وتولي نائب الرئيس الأميركي الحالي مايك بنس منصب الرئاسة استكمالا لمدة ترامب الدستورية، فيسير بنس على الخط السياسي نفسه لترامب، لكن بشكل وأسلوب أكثر «شياكة» وتهذيبا وقبولا.

ولعل أحد أبرز من تنبؤوا بهذا السيناريو كان البروفيسور ألن ليتمان، وهو أستاذ التاريخي السياسي في الجامعة الأميركية بواشنطن، الذي اخترع نموذجا للتنبؤ بنتيجة الانتخابات الرئاسية الأميركية نجح من خلاله في توقع نتيجة الانتخابات كل مرة بشكل صحيح منذ العام 1984.. وهو الذي وقف وحده يتنبأ بفوز ترامب في الانتخابات الأخيرة، رغم أن الغالبية الساحقة من استطلاعات الرأي كانت تشير إلى فوز كلينتون..! هذا الرجل صرح للصحف بعد نجاح ترامب بأنه يتوقع أن تقود مسيرته إلى مسار الإقالة.



إلى أيّ مدى يمكن أن تنجح أميركا في تصريف فائض القوة الذي عندها والاستمرار في التقدم الداخلي المتوازن؟ هل يمكن أن يحدث فقدان التوازن ونرى انهيار السد وغرق الحديقة في عصر ترامب؟



أبوكاليبس الإمبراطورية الأميركية

إلى أيّ مدى يمكن أن تنجح أميركا في تصريف فائض القوة الذي عندها والاستمرار في التقدم الداخلي المتوازن؟ هل يمكن أن يحدث فقدان التوازن ونرى انهيار السد وغرق الحديقة في عصر ترامب؟ حسنا، كل شيء ممكن..! إن أخطر ما حدث في الانتخابات الأخيرة هو أن ترامب نجح في حشد وصفّ القوى الأكثر تطرفا وانفصالية من خلفه، الكونفدراليون أنصار استقلال الجنوب وحركة الكو كلوكس كولان المسيحية المتطرفة وجماعات الضغط من تجار السلاح وصناعه، كل هؤلاء اصطفوا خلف ترامب، للوهلة الأولى يبدو هذا الاصطفاف من أجل التوحد على الخارج، لكي يتم تصريف فائض القوة في مكان ما من العالم، لكن الخطورة هي أن الصدام الآن بدأ يتجه إلى بعض طوائف المجتمع الأميركي، كالأقليات الدينية والعرقية بشكل عام، والأخطر من ذلك أن انقسام الولايات ما بين ليبرالي ومحافظ في فترة الانتخابات والاستقطاب بينها، لم ينته بمجرد تسليم السلطة، فرأينا كيف يحاول أهل كاليفورنيا الدعوة للانفصال، وهو أمر للأمانة تكرر سابقا مع تكساس بعد فوز أوباما أيضا، لكن احتمالات الصدام والانفجار تظل واردة وفي ازدياد.

إن حربا أهلية أميركية اليوم لن تكون كالحرب الأهلية منذ القرن والنصف القرن الماضيين، فنحن اليوم نتحدث عن إمكانية حرب أهلية قد يُستخدم فيها السلاح النووي، إذا ما وقع ذلك فسيكون شيئا كارثيا وبشعا وفوق كل تصور، وسينتهي بانقسام وعداوة أبدية لن تقوم بعدها قائمة للولايات المتحدة الأميركية بشكلها الحالي مرة أخرى..!

كانت النكتة السياسية التي أطلقها بعض الشباب في فترة الانتخابات تقول إن هذه الانتخابات تاريخية، لأنها ستجلب أول امرأة رئيسا للولايات المتحدة، أو آخر رئيس للولايات المتحدة..! وهي سخرية لاذعة تحمل في طياتها شكل الإنذار والتحذير أيضا.

كاتب من مصر مقيم في البرازيل

هل يصبح العالم ترامبيا

فادي قدري أبوبكر



نناقش في هذه الورقة قضية انتخاب دونالد ترامب وتأثيراته على المنطقة بشكل عام، ليس ترامب كشخص وإنما كأيديولوجيا وتوجه يميني شعبوي سيعيد رسم المشهد السياسي في المنطقة والعالم أجمع.

استخدم ترامب مع انطلاق حملته الانتخابية خطاباً فظاً وعنصرياً يضاهي في مستواه خطاب البارات والحانات، وقد أكسبه هذا النوع من الخطاب تصويت «الرجال البيض الحانقين الغاضبين من تحوّلات العالم من حولهم» الذين يتملكهم شعور «بأن بلادهم تُصادر منهم حتى لم يعودوا يعرفونها». وقد استفاد من استهدافه للمهاجرين في تعزيز هذا الشعور، فمع أن الولايات المتحدة دولة بناها المهاجرون، فإن المهاجرين الذين توطّنوا جيلاً بعد جيل ينمّون شعوراً بأنهم سكان أصليون وأن فقراء العالم يتدفقون إليهم ليشاركوهم ثروات توافرت بجهدهم وعرق آبائهم وأجدادهم.

إن هذا المركب الثقافي السياسي الخطابي الذي صعد بترامب إلى الرئاسة، ليس مقتصراً على الولايات المتحدة الأميركية، بل ينتشر لدى فئات واسعة في بلدان أوروبا المتطورة. حيث يجري حالياً الإعداد لجبهة موحدة من أحزاب اليمين لخوض الانتخابات في ثلاث دول أوروبية (ألمانيا، فرنسا وهولندا). ووفق مارين لوبان المرشحة للرئاسة الفرنسية والتي تمثل رأس الحربة في قائمة الشعبويين اليمينين في أوروبا، فإنه بعد قرار خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي وانتخاب ترامب رئيساً لأميركا فإن عام 2017 سيشهد «صحوة شعوب وسط أوروبا» كما ذهب بعضهم. وهذا الخطاب لا يعني الأوروبيين وحدهم بل هو رسائل تحذيرية للعالم أجمع، فأوروبا بثقل دولها السياسي والاقتصادي وتاريخها الاستعماري وامتداداتها الثقافية هي أهم مراكز صنع القرار الدولي، بغض النظر عن أميركا وروسيا اللتين لا يمكنهما الانفراد بالمشهد السياسي دون دعم أوروبي يراعي خلق التوازنات ويشكل أرضية تستوعب ردود الأفعال.

زعم الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريس يوم الأحد الموافق للـ29/1/2017 أنه واضح كوضوح الشمس بأن «الهيكل المقدس في القدس الذي قام الرومان بهدمه كان هيكلاً يهودياً». ولا يمكن ترجمة هذا التصريح إلا أنه يأتي في سياق التماهي مع المركب الثقافي السياسي الأوروبي المتشدد. وبدون أدنى شك فإن «إسرائيل» تبتهج لهذا الخطاب الجديد، وستعيد التركيز في خطابها اليوم أكثر من أيّ وقت مضى على يهودية الدولة، مستغلة الظروف المساندة لتنفيذ مشاريعها الاستعمارية الإحلالية.

إن هذه الظاهرة «الترامبية» إن صحّ التعبير تلتقي مع نزعة أخرى قائمة في بلدان كثيرة في العالم، يعبّر عنها ما يسمى عادةً باليمين القومي الذي يتمحور خطابه حول فكرة السيادة والمجال الحيوي للدولة كأيديولوجية نظام سلطوي. وتتجلى هذه النزعة بأوضح صورة في نموذج بوتين وتحولات النظام في روسيا إلى جمهورية قيصرية.

من هنا ومن قناعتي بأن «المتطرفين» من أيّ معسكرين متضادين دائماً ما يتفقون، فإن العالم سيتفق أن يكون «ترامبياً»، ولكن كما أشرت مسبقاً بالمعنى الأيديولوجي والتوجه اليميني والشعبوي، وبما يحفظ مصالح كل دولة وثقافة شعبها ودينها. وعليه سيكون مصير العرب والقضية الفلسطينية رهيناً بشكل هذه الاتفاقات بين القوة الأميركية والروسية وكُبرى الدول الأوروبية من جانب آخر.

كاتب من فلسطين





كيف يفكر ترامب

تغيرات جيوسياسية وتهديد متزايد بالحرب

رشيد غويلب

إن أيّ محاولة لفهم التأثيرات السياسية لانتخاب الرئيس الأميركي الجديد دونالد ترامب، وما قام به منذ تنصيبه في العشرين من يناير الماضي تستوجب إلقاء نظرة على التوازنات التي كانت قائمة قبل بدء الانتخابات التمهيدية في الحزب الجمهوري، التي أوصلت في النهاية ترامب إلى البيت الابيض.

لقد شهد توازن القوى على الصعيد العالمي تحولا تمثل في ارتفاع حصة بلدان مجموعة البريكس، في العشرين سنة الأخيرة إلى 31.9 من الناتج الإجمالي المحلي العالمي، أي أن حصة هذه البلدان تضاعفت. وعلى أساس معدلات القوة الشرائية، وحسب معطيات صندوق النقد الدولي، فإن الصين قد تجاوزت الولايات المتحدة الأميركية، ويتوقع الصندوق أن الهند ستدفع بالولايات المتحدة، في عام 2050 إلى المرتبة الثالثة، تأتي بعدها إندونيسيا ثم البرازيل والمكسيك. وعلى الرغم من ضرورة توخي الحذر مع التوقعات المستقبلية، إلا أنه من الواضح أن بلدان الجنوب في طريقها لتجاوز بلدان الشمال التي تصدرت المشهد الاقتصادي منذ انطلاق الثورة الصناعية.

ومن البديهي أن هذه البلدان لا تنوي مغادرة مواقعها، وتستخدم كل الوسائل للدفاع عنها، وفي المقدمة تأتي قوة الردع العسكرية، التي تحتل، وفي زمن التحولات التي نشهدها، موقعا مركزيا في خطط سياسيي الغرب المتنفذين، كما أنها لم تكن غائبة عن أذهانهم. فمن «عقيدة بوش الابن» في عام 2002 إلى خطاب أوباما أمام خريجي أكاديمية ويست بوينت في عام 2014 والتي اعتبر فيها القوى التي تهدد المصالح الحيوية لبلاده، والتي لا يستبعد مواجهتها عسكريا هي الإرهابيون، روسيا، والصين على التوالي. وقد سارع حلفاء الولايات المتحدة في الغرب إلى التأكيد على صحة ما ذهب إليه حليفهم الكبير.

أميركا أولا

لقد استمر تزايد وزن بلدان الجنوب، إلا أن هناك متغيرات يمكن رصدها وتتمثل بالتوجهات الجديدة التي أعلنها ترامب منذ توليه السلطة الفعلية والمنطلقة من شعار «أميركا أولا»، الذي يؤدي عمليا، حسب ترامب إلى إخضاع كل الصراعات العالمية لمعيار وحيد هو مصلحة الولايات المتحدة الأميركية. وهو في الواقع ليس بالأمر الجديد، ولكنه كان يمرر تحت غطاء دعائي هو الدفاع عن القيم لتغطية سياسة المصالح النافذة. وقد تحول الآن إلى خطاب رسمي مباشر. وحقيقة ما تقصده حكومة المليارديرات والجنرالات بزعامة ترامب هو مصالح الطبقة المتربعة في قمة النظام السياسي. ولعل الجديد هو إعلان ترامب أن حلف الناتو عفا عليه الزمن ولم يعد ضروريا، وأن الاتحاد الأوروبي ميدان لممارسة الاستغلال من قبل رأس المال الألماني.

وتجسد ذلك عمليا بوصف ترامب الصين بالعدو الرئيس، وكانت إدارة أوباما قد طرحت الاهتمام بمنطقة الباسيفك باعتبارها ورقة رابحة. وترامب يدفع بهذا التوجه إلى المقدمة، ولكن مع تغيير مهمّ هو الموقف من روسيا. وهنا يعيد ترامب إلى الواجهة إحدى استراتيجيات الحرب الباردة، باعتماد عرقلة التعاون الوثيق بين الصين وروسيا، التي كانت دوما إحدى ركائز الاستراتيجية الأميركية في إدارة الصراع على المصالح منذ اندلاع الحرب الباردة في النصف الثاني من أربعينيات القرن العشرين، بما في ذلك توظيف التقاطعات الفكرية بين الحزب الشيوعي السوفييتي والحزب الشيوعي الصيني حينها. واستمر هذا النهج أيضا حتى في عهد إدارة أوباما.

يحتاج ترامب روسيا كشريك لضمان مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، ويحتاجها في عملية مكافحة الإرهاب. وهناك في الواقع رغبة مشتركة بين البلدين فيما يتعلق بمكافحة الإرهاب. وينطبق الشيء ذاته ببناء «علاقات شراكة» في السياسات المتعلقة بالطاقة، وخصوصا النفط والغاز، ومن هنا جاء اختيار تيلرسون مدير شركة إكسون، اكبر شركات الطاقة في العالم لحقيبة الخارجية. وهذه الحاجة الأميركية تتقاطع مع توجهات ألمانيا ومن يدور في فلك سياستها من بلدان غرب أوروبا، وبهذا سنشهد موقفين تجاه



فرناندو ليرا

روسيا: موقف الولايات المتحدة وهي تسير باتجاه التنسيق معها، وموقف ألمانيا الناتو الساعية لتوتير الأجواء وتصعيد سباق التسلح معها. ومن وجهة النظر الأميركية هناك إمكانية لإشغال روسيا والاتحاد الأوروبي ببعضهما البعض، عبر الدخول في سباق للتسلح وعسكرة العلاقات فيما بينها. ويمكن لذهنية ترامب أن ترى في ذلك صفقة جيدة.

التغيير الثاني في السياسة الخارجية الأميركية يتعلق بالشرق الأوسط. ويكرر الرئيس الأميركي الجديد باستمرار وبلا كلل، إنه يريد وبالتعاون مع روسيا الانتصار على ما يسمّيه العدوّ في المنطقة ويعني به داعش. ومن المتوقع أن تلتقي الولايات المتحدة وروسيا في هذا الموقف أيضا، وسنشهد تراجع إدانة النظام السوري في وسائل الإعلام، ولكن مع هذا هناك الكثير من الأسئلة المتعلقة بالتنسيق الموعود لم تحلّ بعد.

المشكلة التي ستزداد تفاقما بسبب سياسات ترامب هي الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، وتحديدا دخول حلّ الدولتين نفقا مظلما. لقد أدان مجلس الأمن الدولي سياسة الاستيطان الإسرائيلية، وبهذا أكد على حق الفلسطينيين في قيام دولتهم المستقلة. وقد وصف ترامب القرار الأممي بالمميت. والسفير الأميركي في إسرائيل يريد نقل سفارته إلى القدس، باعتبارها عاصمة «إسرائيل التاريخية»، وهذا الموقف يمثل عمق التقاطع بين طرفي النزاع، فالفلسطينيون متمسكون بالقدس عاصمة لدولتهم المستقلة المنشودة. ومن المفيد الإشارة إلى أن أحد كبار مستشاري ترامب وزوج ابنته كوشنر، هو أحد الممولين الرئيسيين للاستيطان غير الشرعي في المناطق الفلسطينية.

إن الصراعات في الشرق الأوسط تقرّب المسافات بين الولايات المتحدة وروسيا، بشكل يجعل خطر التفريغ العسكري للأزمات قريبا. ولا يمكن لحرب كهذه أن تبقى محلية، لأنها تتعلق بأهم منطقة تختزن المواد الخام، وخصوصا النفط والغاز، فضلا عن طرق النقل الحيوية، ومواقع الإنتاج. وهناك حقيقة قديمة لا بد من تأكيدها مجددا وهي أن الصراع في الشرق الأوسط هو صراع من أجل الهيمنة العالمية، وسوف لن ينحصر ببلدان المنطقة، بل سيتحول إلى صراع قاري، بين الناتو وروسيا في بلدان أوروبا الشرقية.

ينمو رفض العولمة الفعلية من قبل الخاسرين الحقيقيين والمزعومين من تطبيقاتها العملية، ويتصاعد الحقد ضد كل ما هو أجنبي، مصحوبا بالتحوّل نحو مشاريع اليمين الفاشية التي يطلق عليها للتخفيف تسمية اليمين الشعبوي.

ويتعرض مفهوم «الدولة التكاملية»، أي النظام السياسي الذي يتشكل عبر الحدود القومية، ويحلّ التباين الدولي بشكل جماعي، إلى الضغط، أو يعاد النظر في الكثير من جوانبه. وتظهر إلى السطح النزعة الحمائية، ورفض الغرباء، وعودة وانتشار شعار «شعبنا أولا» في بلدان رأسمالية مهمة، بدءا من الولايات المتحدة الأميركية حيث ترامب يفوز بالانتخابات رافعا شعار «أميركا أولا»، معلنا التمييز الواضح ضد الأقليات العرقية والدينية والثقافية. وسبق هذا الحدث نتيجة الاستفتاء بخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، وكان الدافع

الرئيس وراء هذه النتيجة هو رفض حرية تنقل المواطنين بين الدول الأعضاء في الاتحاد، والذي كان نصيب بريطانيا منه كبيرا نسبيا، وكذلك إمكانية توزيع اللاجئين على بلدان الاتحاد على أساس آلية تقرها مؤسساته. ومن المتوقع أن يشهد عام 2017 عام الانتخابات في بلدان أوروبية مهمة صعود اليمين المتطرف بزعامة العنصري فلدرز في هولندا، حتى وإن لم يتمكن من تشكيل الحكومة، ووصول اليمينية الشعبوية ماري لوبان إلى الجولة الثانية من انتخابات الرئاسة الفرنسية، وفي ألمانيا يتوقع أن يدخل حزب اليمين الشعبوي المعادي للأجانب «البديل من اجل ألمانيا» البرلمان الاتحادي، وبنسبة تزيد على 10 بالمئة، فإن كل هذه التوقعات إن تحققت ستعزز دور الحركات العنصرية الشعبوية في البرلمانات والحياة السياسية الأوروبية.

ما وراء الاتجاهات القومية؟

إن سياسة أميركا أولا ليست حمائية فحسب، أي أنها تحاول تحقيق مصالح قومية على حساب الدول الأخرى، بل تحتوي ضمنا توظيف العدوان العسكري أيضا. إن أميركا ترامب تريد أن تصبح وبالعسكر أيضا الدولة الأولى ومن دون منازع، لكي تحسم النزاعات لصالحها. وهذا ينسحب أيضا إلى مجال السلاح النووي، الذي يريد ترامب التوسع فيه. يقول ترامب «نحن في الولايات المتحدة الخاسرون في العولمة الراهنة. ونريد الخروج من هذا الوضع. سوف نلغي اتفاقات التجارة الحالية مثل اتفاقية تافتا، ولا نوقع على اتفاقيات التجارة الحرة الجديدة مع الاتحاد الأوروبي، وكندا. وسوف نوظف كل وسائل الضغط التي نملكها، لتغيير العلاقات الدولية لصالحنا. ولا نستثني توظيف الجيش والحرب لهذا الغرض». إن عقيدة ترامب حمائية عدوانية على طول الخط. والقوة بالنسبة إليه تحدد قواعد اللعبة. إن ترامب واحد من صقور الإمبريالية الذين لا تردعهم كوابح الديمقراطية الأميركية. وفي برنامجه السطحي جدا وضع التسلح النووي والتقليدي في مركز اهتمامه. فهو يريد التوسع في بناء أنظمة الصواريخ الدفاعية وجعلها منيعة. ترامب شن الحرب علانية، ويهدد بعودتها كوسيلة طبيعية في فرض السياسات. وعلى هذا الأساس هناك مجموعة من الأسئلة من الضروري تفحصها منها:

1 - هل يعني شعار ترامب «أميركا أولا» إعطاء الأولوية لتفضيل رأس المال الأميركي في إطار الهيكلية المعولمة لرأس المال العابر للحدود؟ هل يريد ترامب من تصعيد الصراع التنافسي حول الاستثمارات والأسواق المعولمة التدخل الغاشم لصالح رأس المال الأميركي؟

2 - في الولايات المتحدة، كما هو الحال في غيرها من البلدان المتقدمة، تتفجر التناقضات بين رأس المال الذي يخدم بشكل رئيسي السوق المحلية، والشركات العابرة للحدود التي تملك ميدان الاستغلال العالمي. ولذلك من الضروري تفحص إلى أيّ مدى يمثل ترامب مصالح رأس المال الأميركي المعتمد على السوق المحلية بالضد من الشركات الفاعلة عالميا، وكيف يتم في المستقبل القريب موازنة هذا التناقض في المصالح. وعلى أساس هذه الموازنة تم تشكيل الكابينة الوزارية، حيث يجتمع ممثلو كلا الاتجاهين وفي المقدمة منهم مشاهير رأس المال العالمي ممثلا بشركة غولدنمان ساكس.

إن الشعبوية اليمينية، وبقدر تعلقها بالدعم الجماهيري في البلدان الصناعية المتقدمة هي حركة الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى التي يتعمق في سياق العولمة انخفاض مستواها المعيشي، والتي لا ترى آفاقا لمستقبلها في هذا النظام. والأساس الاقتصادي للتردي الاجتماعي لهذه الفئات يعود إلى نقل الشركات العابرة للحدود الوطنية، في سياق العولمة، مواقعها الإنتاجية إلى بلدان الأجور المتدنية. ومن هنا يجري الحديث عن«De-industrialization» في البلدان الصناعية، وفي المقدمة منها الولايات المتحدة. ولذلك فإن بلدانا مثل الصين والهند والمكسيك، لم تعد سوى ورشة عمل للاقتصاد العالمي، بل تأخذ دورا متزايدا في الإنتاج الرقمي والعمليات الاقتصادية الأخرى. إن نظم التعليم في الصين والهند مهيأة لتلبية متطلبات الصناعة الحديثة بشكل أفضل من بلد صناعي متطور جدا كألمانيا. والخوف من المراوحة، ومن مستقبل مادي واجتماعي سيء ينتقل من الفئات الدنيا للطبقة الوسطى إلى فئات الطبقة العليا. وهذا يؤدي إلى استمرار تعزيز دور اليمين الشعبوي وبالتالي الميل إلى العقيدة الحمائية ويعمّق التناقضات باتجاه الحروب. والنخبة السياسية السائدة تقترب من هذا المسار اليميني. والأحزاب والمؤسسات السائدة تستمر في تحولها نحو اليمين، وهذا ما تشهده العديد من البلدان الرأسمالية المتقدمة في أوروبا. ومن وجهة نظر الرأسمال الكبير المعتمد في الداخل والخارج على التعامل العابر للحدود (فوق القومي)، تطرح المعضلة بالشكل التالي: إن وظيفة الدولة هي العمل كلجنة لمصالح رأسمالنا. من جانب آخر يدفع هذا الواقع المزيد من المتضررين إلى المطالبة بالتغيير. إن علاقة النخب السياسية بمصالح الرأسمال ذيلية، ولكنها مجبرة على مراعاة صناديق الاقتراع. ورأس المال العابر للحدود يفضل سياسة تبسيطية قائمة على التجارة الحرة للسلع ورأس المال. ولكن مع أخذ تحقيق الأكثرية في صناديق الاقتراع بنظر الاعتبار، سيثبط تأثير التدابير المتخذة لتعزيز الأرباح في السياسة المالية والتجارية لصالح تدابير الحماية القومية. ويستطيع رأس المال العابر للقارات العيش أيضا مع السياسات الحمائية. وعندما يبذل كل بلد قصارى جهده لتحقيق أفضل شروط الاستثمار، كما تحاول الولايات المتحدة الآن تحقيقه مع ترامب تبدأ المشكلة، وعندما تحاول الولايات المتحدة توظيف قدرتها الشرائية العالية لإغلاق أسواقها، أو تجعلها مكلفة، هنا سنشهد كفاح رأس المال العابر للحدود لإملاء السياسات، خصوصا في البلدان ذات القدرة الشرائية العالية. وستحدث توترات بين النخب السياسية ورأس المال العابر للحدود فأحدهما يريد حرية الوصول إلى السوق وتحقيق المبيعات، والآخر يحتاج الحصول على أكثرية الأصوات.

ما تقدم يثير المخاوف بشأن المرحلة المقبلة من السياسة العالمية. رأس المال العابر للحدود ووكلاؤه السياسيون سيجدون أنفسهم تحت ضغط كبير فيما يتعلق بتحقيق الهيمنة على الموارد العالمية، الأقاليم، وطرق النقل البحري، وفي الوقت نفسه يتفجر الصراع بين الوحدات السياسية، بشأن كيفية توزيع فائض القيمة المتحقق عالميا بين منتصري العولمة. إن العالم يسير في اتجاه أوقات عصيبة، ستشهد خطر صدامات سياسية صعبة، ونزاعات مسلحة.

مخاوف غير واقعية

إن دفع الخوف من المهاجرين إلى مستويات عالية، والنظر إليهم باعتبارهم أدوات الإرهاب، الذي يشكل، وفق استراتيجيات الغرب العسكرية الخطر الأكبر، إضافة إلى فوبيا معادة الإرهاب توفر غطاء شرعيا لتفكيك الحقوق الديمقراطية في الداخل، وأساسا أيديولوجيا لتسريع وتيرة التسلح وإشعال الحروب في الخارج.

لقد أوجدت سياسات الليبرالية الجديدة أرضا خصبة لازدهار اليمين الشعبوي. وحولت تلك السياسات مجاميع سكانية بعينها إلى شماعة لتعليق نتائج الأزمة المالية-الاقتصادية، وصرف الأنظار عن الأسباب الحقيقية الكامنة في جوهر النظام عن التردي الاجتماعي والاقتصادي المنظم الذي تعيشه البلدان الصناعية المتقدمة، والذي انعكس في تصاعد البطالة ومعدلات الفقر، وانعدام في قواعده للمستقبل. إن تصوير ثراء النخبة على أنه نتيجة طبيعية لحركة السوق، أو أنه إرادة إلهية لا يمكن المساس بها، دفع الأوساط الاجتماعية الأخرى إلى الصراع على الفتات. وبقيت الليبرالية الجديدة واليمين المتطرف ألوانا متناغمة يغذي بعضها البعض. ولهذا نشهد صعود الذين يوظفون غطرسة نخب السلطة التقليدية ليحلوا محلها. وقد جاء فوز ترامب ليعطي زخما جديدا لأحزاب اليمين الشعبوي في أوروبا، وهي تدخل عام 2017، عام الانتخابات العامة في كل من هولندا وفرنسا وألمانيا على التوالي. وشكل انتصار ترامب أيضا رافعة لصعود قيم التعصب والانغلاق، وتعزيز الخوف من

إن الشعبوية اليمينية، وبقدر تعلقها بالدعم الجماهيري في البلدان الصناعية المتقدمة هي حركة الفئات الدنيا من الطبقة الوسطى التي يتعمق في سياق العولمة انخفاض مستواها المعيشي، والتي لا ترى آفاقا لمستقبلها في هذا النظام

الآخر. وبالتالي فمن الخطأ النظر إلى ترامب باعتباره عتلة ممكنة للتوازن الدولي. إنه يؤجج الصراع في آسيا والشرق الأوسط ويسعى لتعزيز سيطرته العسكرية هناك. ويدّعي توفير الحماية ولكنه في الواقع لا يطورها. ويوظف مخاوف التدني الاجتماعي، لخدمة وتصعيد الاستياء العنصري. ولا يهاجم مصالح الأثرياء، ولا يعمل على خلق شروط هيكلية لمزيد من العدالة الاجتماعية، وهو يلتقي مع أحزاب اليمين الصاعدة في أوروبا في تبنى برامج الليبرالية الجديدة الاقتصادية.

إن أحزاب اليمين التقليدي الساعية إلى الحفاظ على مواقعها في السلطة استعارت خطاب اليمين المتطرف وشعاراته لتحقق مكاسب انتخابية في مواجهة منافسيها من قوى الوسط واليسار، هذا ما فعله ساركوزي في حملته الانتخابية عندما طالب بطرد الغرباء، وكذلك المحافظ ديفيد كاميرون الذي استعار خطاب اليمين المتطرف، وقاد بريطانيا بالنتيجة إلى الاستفتاء الذي أخرجها من الاتحاد الأوروبي، وأطاح بحكومته أيضا.

ومنذ الانتصار على الفاشية شهدنا محطات عدة لصعود اليمين المتطرف، أو ما يعرف بالنازية الجديدة، حدث هذا في أعوام 1946، 1949 في ألمانيا وإيطاليا. وشهد عقد الخمسينات من القرن العشرين صعودا لليمين المتطرف الفرنسي، وصعودا مماثلا لهذا اليمين في عام 1970 في البلدان الأسكندنافية. وفي السنوات الأخيرة تواصل مسلسل صعود اليمين المتطرف ليتحول إلى خطر حقيقي يفرض أخذه بجدية، ولكن من الضروري أن يواجه على أرضية مراجعة نقدية لأداء قوى المجتمع الحية، والتركيز على جوهر الصراع الاقتصادي الاجتماعي، وعدم الخضوع لهستيريا شعارات اليمين الشعبوي والمخاوف التي تثيرها، ففي نهاية المطاف ما صرح به ترامب وأقدم عليه ليس جديدا، ومراجعة للسياسات التي تبناها العديد من أسلافه في البيت الأبيض تؤكد هذا الاستنتاج. وكذلك اتساع حركة الرفض والاحتجاج ضده، وخسارته لمواجهات قضائية تؤشر على أن المؤسسات المدنية والتراكم الذي صنعه نضال أجيال من البشر قادر على ردع هوس الصقور.

كاتب من العراق



مأزق النوع البشري

سلام سرحان

لا يمكن تأمل دومينو الخريف الغربي، الذي قال عنه المؤرخ ورئيس المجلس الأوروبي دونالد توسك إنه يهدد بانهيار الحضارة الأوروبية، كظاهرة منعزلة عن ظواهر لا حصر لها في معظم أنحاء العالم، محورها الشعبوية والانعزالية والعنصرية وتصاعد التطرّف العرقي والديني والطائفي، بل ينبغي وضعها جميعا في إطار مأزق عميق للنوع البشري.

لم يعد المنطق التقليدي وعلوم الاجتماع والتاريخ كافية لتحليل تلك الزلازل، لأن خبراتها محصورة في سلوك التجمعات البشرية المتماسكة، والتي تفككت إلى حد كبير مع اتساع وسائل الاتصال والإغراءات، التي أصبحت قريبة بدرجة مهيّجة وصاعقة.

قد يتطلب الأمر منصة متفرج محايد على الحياة في هذا الكوكب، لا يفرّق بين الأسود والقردة والأرانب والثعالب والبقر والبشر، وما تراكم عميقا في غريزة البقاء على مدى ملايين السنين.

قطيع البافلو وخلية النحل ومملكة النمل وخلايا التجمعات البشرية، هي التي تختزن العناصر الحاسمة في غريزة بقاء النوع، وهي التي تعرف، إذا كانت متماسكة، ما الذي عليها فعله من أجل البقاء، بينما لا يعرف أيّ من أفرادها ما الذي يفعله.

قبل ثورة الاتصالات وهجمة الإغراءات القريبة، كانت الغريزة التي راكمها النوع البشري ملائمة لتوازن الحياة على هذا الكوكب، وبضمنها المنافسة بين القرى والشعوب المتجاورة. بل إن الحروب والصراعات كانت ضرورية لحفظ النوع وتطوير قدراته وفق قانون البقاء للأصلح، شأنها شأن جميع النباتات والحيوانات التي تتطور بالاستجابة والقدرة على التأقلم مع الظروف الجديدة.

جميع الكائنات لا تستطيع تغيير إحداثيات وبوصلة غريزة البقاء، فجأة خلال وقت قصير، ومنها غريزة بقاء النوع البشري المحفوظة في كيان النوع والجماعات سواء كانت عائلة أو قبيلة أو قرية أو مدينة أو أمّة.

كانت هناك هياكل هرمية ومرجعيات كثيرة تضبط إيقاع سلوك تلك التجمعات وفق معايير تدافع بها عن نفسها، حتى لو عبر تضحيات من قبل الأفراد، يتم تقديرها عاليا من أجل استمرارها في حماية الجماعة.

فجأة تلقت حياة التجمعات البشرية جرعة قد تكون قاتلة من الفردية الشعبوية المنفلتة والخطيرة على استقرار نسيج الجماعة، بعد ثورة الاتصالات والإغراءات الهائلة القريبة إلى درجة مهيّجة ومثيرة للتذمر والغضب.

قبل عشرات السنين لم يكن يخيّل لإنسان فقير أن يصبح غنيا دون معجزة كبيرة. وكانت الأحلام والطموحات منضبطة ضمن معايير صارمة. أما اليوم فقد أصبح مليارات الفقراء والمهمّشين يشعرون أنهم يمكن يغرقوا في ثراء فاحش بسهولة في أيّ لحظة، لأنّ شخصا في نفس الشارع أو الحي المجاور ربح اليانصيب أو أصبح لاعب كرة قدم أو ممثلا أو بطلا لفضيحة تحولت إلى نعمة أو أوقع مليونيرا أو مليونيرة في غرامة أو جاء بفكرة تبدو بسيطة تحولت منجما للثروة.

لو عدنا 30 عاما سنجد أن جميع أفراد أيّ كتلة صغيرة من تلك التجمعات يلتزمون بضوابط محكمة ويحرصون جميعا على المربع الذي يحتلونه في ذلك النسيج الاجتماعي المنضبط، بل إن هامش التمرد محسوب أيضا من أجل دور محدد في حفظ غريزة النوع ومربوط بحبل قصير إلى محور الجماعة.

اليوم أصبح الجائع في بقاع العالم النائية يحلم بأفخم القصور واليخوت في العالم وبأجمل عارضات الأزياء ويشعر عميقا أن ذلك ممكن في أيّ لحظة، بل هو حقه الطبيعي لأنه أفضل من بعض الأثرياء ويستطيع أن يفعل ما فعلوه للحصول عليها. ذلك الإحساس أصبح يخرج جيوشا من الغاضبين على قوانين الجماعة.

قبل عشرات السنين، لو عرضنا ثروة طائلة على معظم سكان العالم دون سبب مقبول اجتماعيا، فإن معظمهم سيرفضها، لأنهم لن يستطيعوا تبريرها في اليوم التالي، وسيرفضهم المجتمع والعائلة، وهو ما يهدد دورهم المطمئن في نسيج المجتمع، الذي لا يمكن استبداله حتى لو سافر إلى بلد آخر، لأن الأسئلة القاسية ستطارده في كل مكان.

فجأة انهارت معظم المنصّات التي كانت تضبط معايير سلوك التجمعات البشرية وتشحذ بوصلتها إلى خيارات البقاء وضاعت بين منصات لا حصر لها، تزدحم بهتافات الانتهازيين الصاخبة، بعد أن أصبح القطيع البشري سهل القياد بانفجار الإغراءات التي لم يسبق لها مثيل في درجة الإحساس بإمكانية الحصول عليها بسهولة رغم أنها بعيدة عن غالبية الأفراد.

انقلبت جميع الأهرامات الرّاسخة في غريزة بقاء النوع البشري بعد أن اجتاحتها جيوش المتسلّقين والأصوات الانتهازية المتاجرة بالعرق والدين والعصبيات الطائفية والأيديولوجية، مهما كانت الأسلحة والأثمان.

تمزّق نسيج التجمعات البشرية، الذي من المرجّح أن يزداد انهيارا، هو الذي مكّن معسكر الهامشيين والغاضبين والعنصريين والجهلة من دحر معسكر المتعلمين والأذكياء والخبراء والمتخصصين والعلماء والمثقفين ورجال الأعمال والمؤسسات في بريطانيا، ليدفعوا لإسقاط أول أحجار الدومينو وإطلاق شرارة حرف مسار التاريخ.

ثم انتخب نظرائهم في الولايات المتحدة دونالد ترامب رئيسا لأقوى بلد في العالم ليفتحوا أبواب الغضب والشعبوية والانعزالية والعنصرية على مصراعيها وينذروا بسقوط أحجار دومينو أخرى، ربما في فرنسا وألمانيا وهولندا وبقاع أخرى كثيرة من العالم.

وفِي ظاهرة لا تختلف كثيرا، تمكّن الغضب المحتقن من استقطاب أعداد هائلة إلى معسكرات الظلام مثل تنظيم داعش وبوكو حرام والعصابات العرقية والطائفية الأخرى. وقد نشهد ظواهر أخرى أشد خطورة في البلدان المتقدمة والفقيرة.

النوع البشري في مأزق شديد بعد تضاعف عدد المنابر ملايين المرات واتساع إغراءات الأضواء البرّاقة التي تشتت انتباه الأفراد والجماعات البشرية.

معظم البشر أصبحوا يتفرجون على ذات ملايين الإغراءات المعروضة على جميع سكان العالم، الأمر الذي يفاقم هجمات الانتهازيين على المنصات الجديدة البرّاقة، ليقودوا من تعطلت مجساتهم بسبب تلك التغييرات النوعية الكبيرة، التي لن تتمكن البشرية من هضم سيلها الجارف.

لا أريد أن أجرح الرصيد العجيب لكلمة ثورة. لكن جميع الثورات العاصفة، التي أنهت حقبا من الظلم، مزقت في الوقت نفسه بوصلة الاستقرار الخفية للمجتمعات، من الثورة الفرنسية إلى الروسية والصينية والإيرانية، وصولا إلى ثوراتنا القديمة والجديدة وثورة الاتصالات والتكنولوجيا والإغراءات.

الخطير أن إعادة الجموع الغاضبة المنحدرة إلى الهاوية دون مكابح، يكاد يكون مستحيلا، فأيّ محاولة لإقالة ترامب من قبل المؤسسات، على سبيل المثال، قد تفجّر حربا أهلية بعدما أصبح المخلص المنتظر للغاضبين والعنصريين والهامشيين. أما إذا تم ترك ترامب ليكمل ولايته فقد يعمق شرخا لا يمكن إصلاحه ويواصل تغذية النار بالحطب إلى أن يصبح إخمادها مستحيلا.

يقول العلماء إن التلوث أصبح يجعل نسبة ضئيلة من النحل تفقد بوصلتها ولا تتمكن من العودة إلى خلاياها، وهو ما يهدد مستقبل الزراعة بسبب دورها في تلقيح النباتات. ويبدو أن تشويش هجمة الإغراءات ينذر بخلل كبير وأخطر في بوصلة غريزة الأفراد والجماعات البشرية.

قد يقول البعض إن التجمعات البشرية قادرة على التأقلم مع التغيّرات والتحدّيات الجديدة، لكن التغيرات المقبلة حتما، أسرع بملايين المرات من قدرتها على التأقلم، أي أنها تطارد هدفا يزداد ابتعادا بسرعة خارقة.

وسوف تصب تطورات التكنولوجيا المزيد من الزيت على نار الأزمة حين تحيل الروبوتات والأتمتة معظم البشرية على التقاعد فتنضم جيوش أخرى من العاطلين إلى جموع الغاضبين.

خلاصة القول إن مأزق النوع البشري أكبر من جميع التفاصيل التي ذكرناها وقد تكون البشرية مقبلة على أزمة عالمية كبرى، قد تتفجر من خلال أيّ زلزال كبير مثل انهيار في أسواق المال يطفئ كل الأنوار ويؤدي إلى نهاية معظم سكان العالم، ليبدأ الناجون في البقاع النائية رحلة جديدة عبر انتخاب طبيعي لعناصر جديدة في غريزة البقاء.

شاعر وكاتب من العراق

بن غاريسون



ملف

خطاب الذات وخطاب المتلقي

محمد جبير

قد يظن البعض أن ثمّة قطيعة واختلافا بين خطاب الذات الأميركية الخاص والخطاب الذاتي الأميركي في سياقه العام، والأمر على العكس من ذلك في الحقيقة، لأنه يتناغم ما بين الخاص والعام من حيث التوجهات نحو بناء خطاب أميركي حديث يعيد صياغة الخطاب الأبيض في ضوء تراكم الخبرة السياسية على المستوى الشخصي الفردي، أو على المستوى المجتمعي العام، الذي يستفيد من التجارب الأميركية الخارجية وفشلها في التعامل مع مجتمعات تنظر لها على أنها من مستويات أدنى، مثلما حصل في فيتنام في الماضي ويحصل في العراق الآن، إذ أدت القراءة الموضوعية لتلك التجارب إلى الخروج بخطاب موحد تجاه خطاب المتلقي الذي فتّت وقزّم رؤية الخطاب الأميركي على المستوى الفكري والثقافي والإبداعي، وأشاع روح التحدي والمناهضة للخطاب الأميركي الوافد، إذ أدى خطاب المتلقي إلى ترسيخ قناعات الوحدة الوطنية في دفاع الشعوب عن بلدانها بشتى الوسائل وإفشال المشروع الأميركي، ذلك لأن لكلّ خطاب خطابا مقابلا يخالفه في الرؤية والتوجهات، لذلك كان الإبداع على صعيد الشعر أو السرد أو الدراما والسينما من أوائل الفنون الإبداعية التي جسّدت الاختلاف والتناقض في الخطابين ما بين خطاب الذات وخطاب المتلقي.

إنّ إعادة قراءة الأدب الفيتنامي شعرا أو رواية أو قراءة الأدب الأفغاني الحديث أو السرديات الروائية العراقية والعربية في بلدان مختلفة، سوف توفر لنا رؤية مناسبة للتعرف على طبيعة خطاب المتلقي الرافض لمنطق خطاب الذات الأميركية الذي بني على مفاهيم القوة والهيمنة وابتعد عن منطق الحرية واحترام حقوق الإنسان وإشاعة الممارسة الديمقراطية في تلك البلدان التي يتوجه لها خطاب الذات الأميركية، وحين أدرك بعض المفكرين والمثقفين الحداثيين الأميركان هذا التقاطع الجوهري والحاد بين الخطابين،حاولوا أن ينظروا إلى المسألة من زاوية رؤية جديدة، وتقديم مشروع خطاب جديد قد يغير صورة أميركا في العالم الإسلامي، بعد أن أدركوا قوة ذلك الخطاب وتمظهراته في الفنون الإبداعية التي كانت أكثر إقناعا من الخطاب السياسي المعادي والسائد في فترات طويلة، إذ بدأ ظهور تيارات أدبية من داخل أميركا ترفض خطاب الكراهية والعنف والتمييز العنصري وتعود إلى خطاب العدل والحرية والمساواة الذي شاع في النصف الثاني من القرن الماضي، وهو ما أُطلق عليه اصطلاحاً بالأدب الأميركي التقدمي، وهو الأدب الذي رفض توجهات الخطاب الأميركي المضاد لحرية شعوب العالم أو فكرة الاستعباد والاستغلال.

جدل في الداخل والخارج

لقد أثارت قرارات ترامب الأخيرة جدلا في الداخل الأميركي وخارجه مما شكل نقطة خلاف جوهري بين مؤيد ومعارض لما جسدته تلك القرارات من هوّة ثقافية وفكرية في مسيرة الولايات المتحدة منذ تأسيسها قبل ما يقرب من الـ400 عام، وهو الأمر الذي أدى لوجود خطابين فكريين الأوّل رافض للنزعة الإقصائية لترامب ومتمسك بالخطاب الثقافي الأميركي المنفتح على الآخر، وخطاب داعم لنزعة ترامب الذي لا يختلف بالضرورة عن الخطاب الإقصائي الذي ساد في المجتمع الأميركي إبّان المرحلة «المكارثية» التي تسببت في شق الصف الثقافي الإبداعي الأميركي وأدت إلى تصفية الكثير من الكتّاب الأميركان التقدميين. ولا تبتعد هذه القرارات عن التمييز العنصري بين البيض والسود، وقام الكثير من الكتّاب الأميركان المناهضين للخطاب الإقصائي المتمثل بالمكارثية أو التمييز العنصري، بتحويل النتائج المدمرة لتلك السياسات إلى أعمال إبداعية في الرواية الأميركية، لا سيما ريتشارد رايت في نصه التاريخي «الولد الأسود»، وفي الأعمال الشعرية والمسرحية والفنون الإبداعية الأخرى. ولم تستطع تلك النزعة الإقصائية التي عدّت مرحلة سوداء في تاريخ الحرية الأميركية، بلورة وجودها الثقافي والإبداعي والإنساني، أو تنتج ثقافة مضادة، في وقت كانت تعيش فيه أوروبا حالة من التحرر الإنساني الرافض لسياسات التهميش والإقصاء على أساس اللون أو العرق أو الدين.

لم تكن هذه التجارب التي مرت بها أميركا بالبعيدة زمنيا، وإنما عاشها الكثير من ساسة اليوم وأدركوا مخاطرها على المجتمع الأميركي الذي يعيش خليطا من ثقافات متنوعة، لذلك ليس غريبا أن يطلق صموئيل هنتنغتون تحذيراته المتعلقة بما أسماه صراع الحضارات، أو كيسنجر عبارته الشهيرة «من يسيطر على نفط الشرق الأوسط يسيطر على العالم» في سبعينات القرن الماضي.



مارك براين

الخطاب الإطاري المؤدلج

لقد تربى العقل العربي الإطاري المؤدلج منذ أكثر من قرن على مبدأ المعاداة للمشروع الأميركي، بوصفه مشروعاً استعمارياً استيطانياً بتأسيسات فكرية واقتصادية وثقافية. وأمام الانفتاح العام للعالم على وسائل الاتصال الحديثة التي جعلت من العالم قرية صغيرة، وسقوط رهانات الإطارات السياسية بمختلف اتجاهاتها والانتقال من التفكير في الكون إلى مشروع التفكير بالإنسان بوصفه مركز هذا الكون وقدراته الخلاقة، انطلقت طروحات الحداثات الفكرية والثقافية والفلسفية من المدرستين الألمانية والفرنسية الحديثة التي أعادت للإنسان صفته المحورية في إدارة وتفسير النشاطات الكونية، بعيداً عن المتافيزيقيا وما وراء الطبيعة من توهّمات فكرية، بعد أن أدى التقدم الحضاري والإنساني للمجتمعات العصرية إلى إنتاج حضارة حداثوية مزقت أكفان المقدّس وفتحت الأفق واسعاً أمام ما هو واقعي وإنساني.

لقد تمكنت المجتمعات الأصيلة والراسخة في عمق التاريخ من إنتاج تاريخها الثقافي والفكري والحضاري والإنساني وأكدت نموّها وتصاعدها وتجاوزها للإشكالات والمشاكل الدنيوية والدينية لتبني حضارة متجددة، في الوقت الذي كانت فيه دول في الشرق حاضرة ومتقدمة واضمحلت وظهرت في المقابل مدن في أوروبا أصبحت مراكز إشعاع للعلم والحضارة.

لقد اكتشف كريستوفر كولومبس «قارة أميركا» التي كان يسكنها «الهنود الحمر»، السكان الأصليون لتلك القارة المكتشفة حديثا في العام 1492 لتكون بعد ذلك موطئ قدم للمهاجرين من مختلف أنحاء العالم قبل أن يتم الإعلان عن ولادة الولايات المتحدة، التي بنيت بجهود المهاجرين، وفناء السكان الأصليين كي يعاد بناء تاريخ هذه البقعة الجغرافية من العالم وإعادة صياغة المفاهيم العامة وفق خليط الثقافات الوافدة من قارات وبلدان العالم المختلفة.

هذا التنوع الثقافي والعرقي والفكري

الذي انصهر في بوتقة وطن مشترك أنتج ثقافته الخاصة الناتجة من ذلك الخليط المشترك، وفي قراءة تطور الفكر الغربي الأوروبي الذي كان متجاوزا لكل الخطوط الحمراء في الفكر والثقافة، لا سيما في ألمانيا وفرنسا لاحقا، لذلك اتجهت هذه الدولة، بعد أن تجاوزت الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب، إلى إعادة صياغة المفاهيم الوطنية للشعوب الأميركية من خلال الدستور الذي شرّع في العام 1788، ليبقى بمثابة المرجع لكل مواطن أميركي يعيش على أرض الولايات المتحدة.

لقد أصبحت أميركا، من وجهة نظر الأحزاب العربية القومية واليسارية في العصر الحديث، كيانا إمبرياليا داعما ومساندا للحكومات المستبدة لتحديد اتجاهات السياسية العربية أو الشرق أوسطية، سواء في زمن القطبين والحرب الباردة، أو في زمن القطب الواحد بعد انهيار الاتحاد السوفييتي في التسعينات من القرن الماضي، ليكون العالم أميركيا بالمطلق، فيما أعلن الصهاينة أن القرن الحادي والعشرين سيكون يهوديا بامتياز.

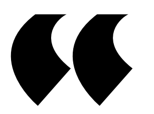
وأرادت الكثير من المؤسسات الثقافية، لا سيما تلك المؤسسات التي روجت للثقافة الأميركية، أن تشيع الخطاب الثقافي الأميركي وخلق رواد متبنين لهذا الخطاب والترويج له في الأوساط الثقافية مقابل الخطابات الفكرية الأخرى المناهضة، الأمر الذي أدى بمنظري السياسة الأميركية لطرح الخطاب العابر للقارات عبر إشاعة فكر العولمة في تعدديتها الاقتصادية والسياسية والثقافية، والذي جاء متزامنا مع الانفتاح على الخطاب الثقافي الصهيوني لمنظرين يهود نُشرت حيثياته في عدد من الصحف والمجلات العربية التي كانت تصدر في بيروت أو القاهرة تحت مسوغ الاطلاع على الإنجازات الإبداعية للآخر والتعرف على مستوى التفكير في صورته من وجهة النظر الصهيونية أو الأميركية، وكان متمثلاً بترجمة العديد من الروايات والأعمال الشعرية لكتّاب من الداخل الإسرائيلي.

الهيمنة الصهيونية

شكلت السياسات العامة للإدارة الأميركية في عهدي بوش الأب والابن وفي عهدي كلينتون وأوباما كذلك، خطوات تمهيدية لفرض الهيمنة الصهيونية على الإدارة الأميركية ورسم آفاق تلك السياسات، لا سيما في الشرق الأوسط من خلال التوجه نحو تفكيك تلك البلدان وإضعافها بما يجعل أكبر دولة في الشرق الأوسط أصغر من دولة إسرائيل من حيث المصالح والجغرافيا والوزن الدولي، لضمان أمن إسرائيل الدائم، لذلك أطلق على بعض



التنوع الثقافي والعرقي والفكري الذي انصهر في بوتقة وطن مشترك أنتج ثقافته الخاصة الناتجة من ذلك الخليط المشترك، وفي قراءة تطور الفكر الغربي الأوروبي الذي كان متجاوزا لكل الخطوط الحمراء في الفكر والثقافة



الدول في التسعينات من القرن الماضي على أنها محور الشر ومن بين تلك الدول إيران والعراق وسوريا ودول أخرى.

لقد دفع الاعتداء الإرهابي على برجي التجارة في نيويورك في 11 أيلول/سبتمبر 2001 بالإدارة الأميركية إلى تغيير النظام في أفغانستان وتبني مشروع تحرير العراق، وقد أدت تلك الخطوات إلى إسقاط حكم طالبان في أفغانستان وإسقاط نظام البعث في العراق في 9 نيسان/أبريل 2003، بدعوى تأسيس الأنموذج الديمقراطي الجديد في المنطقة، إلا أن هذه الجهود وبعد 13 عاما أثبت فشلها في العراق، على الرغم من حجم الدعاية السياسية والإعلامية الضخمة التي قادتها الولايات المتحدة، ولم تستطع الحكومات التي سبقت تولي ترامب سدة الرئاسة الأميركية مطلع هذا العام في التصريح بالفشل، إذ ترى إدارة ترامب بطاقمها السياسي والعسكري أن السياسات الأميركية في غزو العراق بالذات كانت خطأً جسيماً، وبدل أن تتمكن الولايات المتحدة من بناء نموذج ديمقراطي في العراق تحول الأخير إلى دولة إرهابية من وجهة نظر هذه الإدارة.

لقد شكلت قرارات ترامب بمنع رعايا سبع دول من بينها العراق وإيران وسوريا من دخول الأراضي الأميركية صدمة كبيرة لكلّ من تبنى فكرة الاحتلال الأميركي للعراق ووصفه بالتحرير، إذ شكلت تلك القرارات خطأً فاصلا بين خطابي الاحتلال والتحرير الذي أراد أن يسوّقه عدد من المثقفين العراقيين ممن جاؤوا مع الاحتلال لتنفيذ خططه الإقصائية للخطاب الثقافي العراقي الذي بقي واضحا وجريئا عبر نصوص سردية روائية وشعرية رافضاً لرؤى وتوجهات المثقف الوافد والمتبني للمشروع الثقافي الأميركي.

لقد جاءت هذه الصدمة من الحليف الاستراتيجي للحكومات العراقية بعد الاحتلال، قوية ومباغته وغير متوقعة للساسة الجدد في العراق الذين راحوا يتساءلون مع المواطن العراقي العادي،هل أن أفغانستان التي كانت منبعاً للإرهاب وتصديره إلى العالم، أفضل من العراق في نظر ترامب؟ وكيف أصبحنا دولة إرهابية بامتياز بفضل السياسة الأميركية الخطلاء التي سلّمت العراق لقمة سائغة إلى الإيراني؟

أميركا قبل أمن المهاجر

يرى ترامب أن مصلحة أميركا اليوم تكمن في الحفاظ على أمنها القومي وأمن شركائها وحلفائها، وأن مصدر الخطر على الحلفاء والشركاء والأمن القومي الأميركي يأتي من الشرق، لا سيما دول الشر مثل «إيران والعراق وسوريا»، وهي تلك الدول التي تحمل خطابا إسلاميا متطرفا يشكل تهديدا للمصالح الأميركية في المنطقة، كما أنها تشكل تهديدا مباشرا لأمن إسرائيل، وبقدر ما كانت القرارات الأميركية رسالة موجهة إلى الخارج وإلى رعايا تلك البلدان بشكل أساس، إلّا أنها موجهة أيضاً إلى الداخل الأميركي في محاولة لإعادة صياغة ما سُمّي بالوعي الوطني وتبنّي خطاب الأنا الذاتي الخاص، لذلك فإن الإدارة الأميركية في إطارها الفكري الصهيوني العام لا ترغب بالاتفاق النووي الإيراني الذي رفضته منذ البداية وتدفع ترامب حاليا إلى تمزيق هذا الاتفاق والدفع للمواجهة العسكرية مع إيران التي تجنبها أوباما طوال الثماني سنوات من حكمه للولايات المتحدة الأميركية، وهنا لا بد لنا من القول إن هذه القرارات وما أثارته من ردود أفعال متناقضة في الولايات المتحدة، سوف تؤدي إلى زيادة العنف والكراهية المقابلة بين شعوب البلدان المختلفة، ذلك أن خطاب الكراهية لا بد أن ينتج خطابا موازياً عند الآخر، لذلك فإن الداخل الأميركي الرافض لقرارات ترامب، لاسيما من الجمهوريين أنفسهم، سوف تلتقي مصالحه مع اللوبي الصهيوني الذي يدير البيت الأبيض في دفع ترامب للمواجهة مع إيران بغية إسقاطه وفق ما يريده أو يتمناه الديمقراطيون قبل أن يتم ولايته الأولى، كما أن اللوبي الصهيوني يريد تحجيم الطموحات والامتداد والتوسع الإيراني في الشرق الأوسط والقرن الأفريقي.

لذلك ستكون المواجهة العسكرية صادمة في الشرق الأوسط، وستؤدي إلى انهيار وتفتيت دول قد تظن نفسها بعيدة عن المواجهة العسكرية، ذلك لأن إيران لا تنظر بعين الاعتبار أو الأهمية لما يطلق من تصريحات أميركية في إعادة النظر في الاتفاق النووي وفتح المنشآت العسكرية أمام لجان التفتيش الأممية او الأميركية بما يعيد صورة السيناريو الأميركي الذي طبق على العراق في التسعينات من القرن الماضي، لكن بأطر ومرجعيات سياسية مختلفة عمّا سبق، وبتمويل خليجي كامل للعمليات العسكرية المقبلة في المنطقة، إلا أن هذا التمويل سوف يعود بآثاره السلبية



ستكون المواجهة العسكرية صادمة في الشرق الأوسط، وستؤدي إلى انهيار وتفتيت دول قد تظن نفسها بعيدة عن المواجهة العسكرية، ذلك لأن إيران لا تنظر بعين الاعتبار أو الأهمية لما يطلق من تصريحات أميركية في إعادة النظر في الاتفاق النووي

المدمّرة على تلك الدول وخطر جرها لمواجهة شاملة لإخراج الأزمة من منطق الصراع بين دولتين إلى صراع إقليمي دولي يتضرر منه العراق وسوريا ودول الخليج العربي وإسرائيل فيما ستكون إيران الدولة الأقل تضررا من بين تلك الدول.

لكن يبقى السؤال الأهم، ما الذي ستجنيه أميركا من وراء هذا الخطاب الجديد أو المختلف عما طرحته الإدارات الأميركية السابقة؟ إن النظرة الأميركية لمعنى «الوطنية والحفاظ على الهوية» تختلف كليا عن نظرة الإنسان الشرقي الازدواجية التي تشتم السياسية الأميركية في العلن ويتمنى العيش فيها في الخفاء، حتى أن بعض المثقفين العرب حين يعرفون أنفسهم بالتوصيف الآتي «كاتب عربي ومواطن أميركي» والمواطنة الأميركية تنفي عنه الصفة العربية إلا أنه يبقى يعيش ازدواجية الموقف وليس الثقافة، ووفق ما تقدم لا يمكن للشرق أن يفسر وفق تصوراته القرارات الأميركية التي تريد أن تبني استراتيجيات أو أجندات سياسية لمعالجة إشكالات الإدارة الأميركية السابقة التي حدثت في الشرق الأوسط جراء التمهّل في اتخاذ مواقف حاسمة، لا سيما في قضية الاتفاق النووي الإيراني، الذي لا يمكن أن يرضي الإدارة الأميركية الجديدة ولن يلقى هوى لدى الجانب الإسرائيلي الرافض للاتفاق من لحظة المفاوضات الماراثونية مع الاتحاد الأوروبي والتي امتدت إلى سنوات عدة، لتتوج بذلك الاتفاق الذي عدّ من وجهة النظر الإسرائيلية مكافأة لتجاوز إيران للقرارات الدولية في الحد من انتشار الأسلحة النووية.

إن ما صدر من قرارات وما سيصدر لاحقا قد يعد شأنا داخليا لإعادة ترتيب البيت الأميركي وإعادة صياغة الروح الوطنية الأميركية وفق نظريات اقتصادية بحتة بعيدا عن دبلوماسية السياسية العامة، وإن ما أنتجته الفوضى الخلاقة من خلخلة لأنظمة الشرق الأوسط المستقلة تصب في سلة القرارات الأميركية الجديدة في ضوء ترتيب أولويات مختلفة عن أولويات إدارة بوش أو أوباما.

كاتب من العراق



في البحث عن دور مفقود

أحمد سعيد نجم

ما هذا الذي نراه ماثلاً أمام أعيننا كلّ يوم، يطلب أن يتعلم منّا قبل أن نتعلم نحن منه، ويسألنا قبل أن نسأله: أهو صراع حضارات كما قال صاموئيل هنتنغتون؟ أم نهاية التاريخ بحسب ما كتب فوكوياما، ومن قبله المستشرق برنارد لويس؟ أم هي أحداث الحادي عشر من سبتمبر كما يرى كثيرٌ من المحللين الأميركيين؟ أم هو ما يقوله التحليل الأنثروبولوجي بشان الإبدال الذبائحي الذي تلجأ له المجتمعات «إذا هدّدها خطر العنف»؟ أم هو عالمنا العربي الذي تفجّر على نحوٍ مباغت، فوضع دول العالم قاطبةً أمام حائطٍ مسدود؟

لطالما عوّدتنا سياسة الولايات المتحدة الأميركية، وفي ملمحٍ أساسيٍّ يتوافق مع تموقع ذلك البلد بعيداً عن قلب القارات الأعتق، وفي منأىً جغرافي عن اللهيب الحارق لأيّ نزاعٍ دوليّ مباشر فيها، أن تكون الشهور الأولى، بل وحتى العام الأول لأيّ رئيسٍ أميركيٍّ منتخب، فترةً يجري خلالها توضيب البيت الداخليّ، وتوزيع مغانم الظفر الانتخابي على الحزب الفائز، دون نسيان الحزب المهزوم من حصّةٍ قد تعادل حصة الفائزين. وهي بالمثل فترة تريّثٍ واستشفافٍ للآفاق على الصعيد الدولي، بل وكانت تتضمن استمراراً مؤقّتاً لثوابت السياسة الخارجية السابقة.

وفي معظم ما سبق من أحوال كنّا، ومعنا العالم برمته، وبحسب التطورات الجارية، أو تلك الطارئة، أمام فرصة زمنية نقعد خلالها في مقاعد الانتظار، نحن البعيدين، نرقب بتحفّز ما قد تتمخض عنه سياسة ذلك البلد النائي والشاسع؛ البلد الذي أهّله تطّورُّه التقنيّ، وشيخوخة منافسيه، والانهيار الداخلي لخصومه العقائديين، لأن يتسلّم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية قيادة نصفٍ هامّ من النصفين اللذين انقسم العالم إليهما، ومن ثم، قيادة العالم بأغلبية دوله بعد انتهاء الحرب الباردة، وبعد ما قد تراءى من أن التاريخ قد وصل إلى خاتمته.

كنا نقعد، كأوطان وكقضايا وكبشر، في انتظار حصّتنا المرتقبة من شعارات الحملات الانتخابية والتي يكون مرشحو الرئاسة الأميركية قد شحنوها، في الأثناء، بكثيرٍ من الوعود لإسرائيل وبكثيرٍ من الوعيد لنا. ولكن، أن يبدأ عهد رئيسٍ أميركيّ جديد كما هي حالة ترامب بتظاهراتٍ عارمة، وبهلعٍ ودعواتٍ لإلغاء زياراته أو مقاطعتها، من جانب الحليف التقليدي الأوروبيّ، وأن تبدأ مسيرة الوعيد الترامبيّ ضدنا بقرارٍ عصابيٍّ يتخذ مادته الثأرية من مأساة اللاجئين، ومن تضخيمٍ مبالغٍ فيه لخطر قدومهم إلى الأرض الأميركية، فذلك هو الجديد والمريع.

على أننا ونحن نستذكر بنوعٍ من الأسى حصتنا المرتقبة، وهي حصة كفّت عن أن تكون مرتقبة بعد الآن، إذ فيها فضلاً عن موضوع اللاجئين الذي جرى دحضه مؤقتاً، من جانب المؤسسة الدستورية الأميركية ذاتها، فيها ذلك التهديد الاستفزازيّ بنقل السفارة الأميركية من تل أبيب إلى القدس، وهو تهديدٌ إذا جرى تفعيله، كمثل شعار اللاجئين، ليتحول من مجرد مادة انتخابية إلى غُدُوِّه حقيقةً من حقائق الأرض فقد تكون له مضاعفاتٌ لا تخطر بالحسبان، ولربما هدّم في أيامٍ ما جرى تنميتُهُ طوال عقود!

ولكن وبالرغم من هذا وذاك فإن علينا أن نشير إلى أن نتيجة الانتخابات الأميركية التي جرت في العام الماضي، وأتت مع بداية هذا العام بالرئيس دونالد ترامب وفي نوعية الاختيار الذي أجمع المجتمع الأميركي عليه، عكست شكل الرد الذي اختاره الأميركيون في مواجهة خللٍ ضرب العلاقات الدولية في الصميم، وأدّى في ما أدّى إليه من انهيار طرائق المواجهات المعهودة بين الدول، وقاد إلى ما نراه في غير مكان من تفردّ كثيرين بفرض إراداتهم بقوة السلاح، بحيث اختفت الحدود وسط مساحاتٍ شاسعة من قلب هذا العالم، وما عاد النسيج الوطني بمفرده قادراً على صيانة الكيانات.

وإزاء مثل تلك التعقيدات، فما مِنْ ألغازٍ كبرى تختفي وراء نجاح ترامب في تلك الانتخابات ولا في خسارة كلينتون لها. لا ولا من علاقة تذكر لذلك الشأن الأميركي الداخليّ الصرف بأسطورة التهكير الروسيّ للانتخابات. والمبالغات التي ما فتئت تتكرر يومياً عن تلاعبٍ بنتيجةِ الانتخابات، وهي مبالغات ترافق في العادة كلّ خطابٍ مهزوم، حتى في أقلّ الانتخابات ديمقراطيّةً.

والتوصيف ذاته يصحُّ تمام الصحة في تحليل الوجه الآخر من المعادلة الأميركية، والمفضي إلى أنه لا علاقة لعرق الرئيس الأميركيّ الأسبق باراك أوباما، ولا لانتمائه للحزب الديمقراطيّ، ولا لتراخي أوروبا في مسألة المهاجرين، لا علاقة لكلّ ذلك لا من قريبٍ ولا من بعيد بالتراجع الكبير لسطوة الولايات المتحدة ولتآكل دورها التاريخيّ، وهو تآكلٌ كنا في السنين الثماني الماضية شهوداً يوميين عليه، فأسباب ذلك التآكل، وأسباب ما يجري في العالم الأوسع أعمق، من أن يُترَكَ لنظريات المؤامرة أمر تفسيرها.

وبالتالي فإنّ إرادة الأكثرية الأميركية التي رجّحت كفة نتائج الانتخابات، أأعجبنا ترجيحها لترامب أم لا، تمثلّ في مظهر رئيسيّ من مظاهرها، تعبيراً آنيّاً من تعبيرات الذات الأميركية في تأكيد ذاتيّتها، في لحظة ضياع دور كان ذات ماضٍ بهيج يرهب العالم ويتركه معقود اليدين، وفي انعدام المقدرة المتجددة، وسط المعطى الراهن، على الإمساك بذلك الدور ثانيةً، إلاّ بإحداث اختراقٍ كبير في إحدى الساحات الدولية الهامة، يؤديّ إلى انفتاح الآفاق المسدودة، وإلى وقف تفلّت الأحداث، وانطوائها على المجهول.

نقول ذلك دون أن يغادرنا، ولو لثانية واحدة، ما انتابنا وانتاب قطاعات واسعة من الأميركيين ذاتهم، وانتاب حلفاءهم الأوروبيين، من قلق وخوف من جراء إقدام الأميركيين، مع احترامنا الأكيد لخيارهم، على ترجيح كفة رئيسٍ، تنتمي أفكاره وأفكار جمهور واسعٍ من مؤيّديه إلى تيارات انعزاليّة، وقياميّة، وتنحاز إلى الجانب المخيف والظلامي من شعار»أميركا أولاً». وهو الشعار، الذي يُذكّر، بحسب الروائي الأميركي بول أوستر بالإرثين المخجلين، اللذين يثقلان الضمير الأميركي: إبادة الهنود الحمر، والاضطهاد العرقي لزنوج الولايات المتحدة، فضلاً عن تذكيره بحالاتٍ فاشيّة مماثلة عمدت عبر «أولاً» تلك إلى اكتساب شعبيةٍ لمخطّطاتها المخيفة.

ولقد قرأنا جميعنا حيثيات الحكم الذي أبطل القاضي الفيدرالي الأميركي جيمس روبارت، بموجبه أوامر ترامب بمنع مواطني سبع دولٍ إسلامية من دخول الأراضي الأميركية. وأبتغي من التذكير بذلك القاضي الشجاع، أن أعيد ما يعرفه الكل من أن التدقيق الذي يصل حد الإملال، والذي تعمل بموجبه سلطات الهجرة الأميركية يجعل من شبه المحال على غير المتميزين وذوي الكفاءات العالية دخول الأرض الأميركية، فضلاً عن أن الإجابات التي تلقاها روبارت عن أسئلته بخصوص مرتكبي الأعمال الإرهابية فوق الأراضي الأميركية تؤكّد حتى ولو لم تقل ذلك صراحةً، بأن العولمة قد قضت على احتكار دولةٍ أو منطقة بعينها للإرهاب، وأن الإرهاب بات موجوداً في كلّ مكان، ومسألة التصدي له تقع على عاتق جميع الدول، ولا ينبغي لشعوبٍ بعينها أن تتحمل وزر تلك الآفة التي ساعد الغرب ذات يوم على إيجادها، في صراعه المستميت لتركيع الاتحاد السوفييتي السابق. فمواطنو الدول المشمولة بحظر السفر هم الضحايا الأساسيون للإرهاب، ومطاردة الإرهاب لهم وتدميره لبيوتهم هو الذي يدفعهم رغم أنوفهم لترك جنى العمر، واختيار أوطانٍ بديلة.



ما هذا الذي نراه ماثلاً أمام أعيننا كلّ يوم، يطلب أن يتعلم منّا قبل أن نتعلم نحن منه، ويسألنا قبل أن نسأله: أهو صراع حضارات كما قال صاموئيل هنتنغتون؟ أم نهاية التاريخ بحسب ما كتب فوكوياما؟

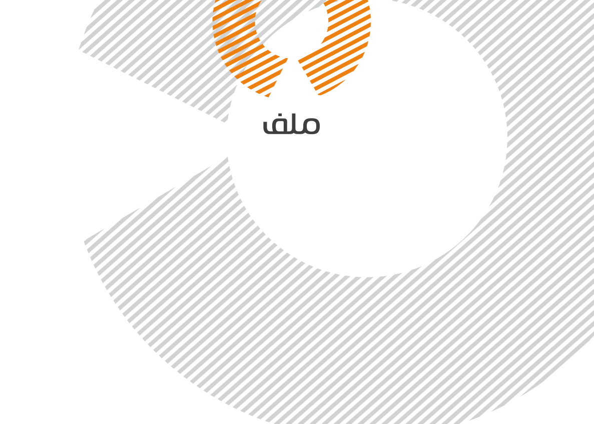


ولا أكتم أنني، وفيما أكتب كانت تتراءى أمام ناظريّ أطياف ساكني هذه المنطقة المتوسطية المنكوبة من المجروحين والمهزومين والشاعرين بمرارة أنهم تُرِكوا في منتصف الدرب، بعد أن ساهم الجميع في توريطهم. كما واستوقفتني كثرة المثقفين والمشاهير والناشطين الأميركيين في مختلف الحقول، ممن أخذوا على عاتقهم بعد وصول ترامب إلى السلطة، مهمة إبقاء شعلة القيم الأميركية المتمثلة بالديمقراطية والحرية الفردية والتنوع الإثني والديني عاليةً.

واستوقفني الغلاف المريع لمجلة «دير شبيغل» الألمانية وقد ظهر فيه الرئيس الأميركي ترامب ممسكاً بالسكين بيد، وبرأس تمثال الحرية باليد الأخرى. واستوقفتني حالة الذهول الأوروبي والإحساس بأن قيم الحداثة والتقدم والعلمانية قد صارت مع وصول ترامب إلى السلطة أمام مفترق طرق. واستوقفتني بل وحتى أخافتني رؤية وزير الخارجية الأميركي الأسبق جون كيري يمضي في يومٍ لحضور مراسم تنصيب الرئيس الجديد، وفي اليوم التالي إلى تظاهرةٍ صاخبة ضدّ ذلك الرئيس.

وبالتالي فإننا ما في ذلك شكٍّ مقبلون على اتساعٍ أكبر للمواجهة في المجال الدوليّ، وداخل المجتمع الأميركي، بين المصممين على التمسك بالقيم الأميركية التي لطالما أبهرت الغرباء والمراقبين البعيدين، وجعلت من الوصول إلى الأراضي الأميركية والانتماء إلى جملة مواطنيها، ليس في أيامنا البائسة هذه فحسب، بل ومنذ بداية تأسيس الولايات المتحدة، حلماً يداعب على الدوام مخيلة المضطهدين في أرجاء هذا الكون الفسيح، وبين من قد يدفعهم استعجال استعادة الدور الأميركي المفقود إلى التفتيش عنه عبر خطواتٍ متهورة، تفتقر إلى الدراية التي باتت متوجّبة على الجميع!

كاتب من فلسطين مقيم الإمارات



هذا الترامب

ثابت الأحمدي

ما يجب أن نعيَه ونفهمه أن دونالد ترامب هو الوجه الحقيقي لأميركا بلا رتوش أو أصباغ. أميركا الرأسمالية.. أميركا البراجماتية.. أميركا المتوحشة التي تعيش لحظات الذروة من المجد والقوة والأبهة. ترامب لم يأت بجديد على سابقيه إلا بالصراحة فقط في خطاباته. ولا فرق في النهاية بين من يقتلك بعقل، ومن يقتلك بهمجيّة. على الأقل هذه نظرتُنا كعرب ومسلمين إلى الظاهرة الأميركية خلال العقود المتأخرة وبصورة إجمالية «جشطالتية».





ترامب ليس «قراقوش» مهما بلغ من جنون العظمة «البارانويا» وليس القذافي أصلا! لأن جنونه «مُعقلن» ومنضبط بالمؤسسية الأميركية، وليس بعيدا أصلا عن التوجه المؤسسي الرسمي للسياسة الأميركية التي تفصح تارة عن وجهها وتوارب تارة أخرى. وفي أسوأ الأحوال سيكون بوش الابن الجديد الذي أعلنها حربا صليبية، وفعل بالعرب والمسلمين ما لم يفعله ريتشارد قلب الأسد، بمعنى أنه لن يضيف كثيرا على ما فعله بوش الابن.

من ناحية ثانية قد يبدو المشهد أنه حالة من المد والجزر تتبعها السياسة الأميركية من خلال فريقي العمل المنتظمين، «الجمهوري والديمقراطي» وذلك صحيح إلى حد كبير، غير أن اللعبة لن تستمر إلى ما لا نهاية، ما لم تتقلّم أظافر الوحش الذي يسكن هذه القارة، وتتجه إلى صبغ سياستها بالأخلاق بعيدا عن البراجماتية المفرطة القائمة على المصلحة مفصولة عن الأخلاق، فتتعامل مع الآخر بمسؤولية؛ على الأقل كما تفعل اليابان اليوم ومنذ ما يزيد عن خمسة عشر عاما بتعاملها مع النمور الآسيوية التي جعلت منها إمبراطوريات اقتصادية مهولة في فترات وجيزة، وتعاملت معها بمسؤولية عليها الصبغة الأخلاقية المنبثقة من ثقافة البوشيدو.

وعودة إلى نزق ترامب، فإنه «يُخلقُ الشيءَ ويُخلق -أيضًا- نقيضُه معه». كما أن «بعض مواقف أقصى اليمين تخدم أقصى اليسار أحيانا». هذه من المسلّمات في حياة الناس التي تندرج في إطار «الظاهراتية» العامة، وبالتالي سيكون هناك رد فعل محلي ودولي على هذا الجموح المفرط الذي دشنه ترامب، وقد بدأ فعلا، وسيتنامى أكثر ما فتئ هذا المهووس في هوسه؛ لأن ثمة لاعبين دوليين كبارا على مسرح الحياة السياسية عالميا غير الحالة العربية التي تثير الإشفاق، وحتما ستتضرر مصالحهم من هذا التوجه، وبالتالي سيكون لهم موقفهم من ذلك، ولن يقفوا مكتوفي الأيدي. كما أن هذا السلوك لا يمثل تماما الشعب، وإن كان قريبا من توجهات الإدارة الأميركية نفسها.

ما يجب التنبه له ونحن نتكلم عن الحالة الأميركية بشكل عام لا عن حالة ترامب كشخص أو حتى كرئيس، أن قوة أميركا تكمن في تنوعها، والجميع يعرف أنها تفتقد إلى العمق الحضاري والتاريخي الذي تستند إليه بعض الدول كجزء من قوتها السياسية، والمساس بهذه القوة مساس بأمنها القومي بصورة مباشرة، ولو تجاوز ترامب الحد الأقصى في مسار اللعبة فليس بعيدا أن يتم اغتياله، حفاظا على المصالح الأميركية.

كاتب من اليمن



موسيقيون في غرف معتمة

أحمد النسور

سميرة توفيق

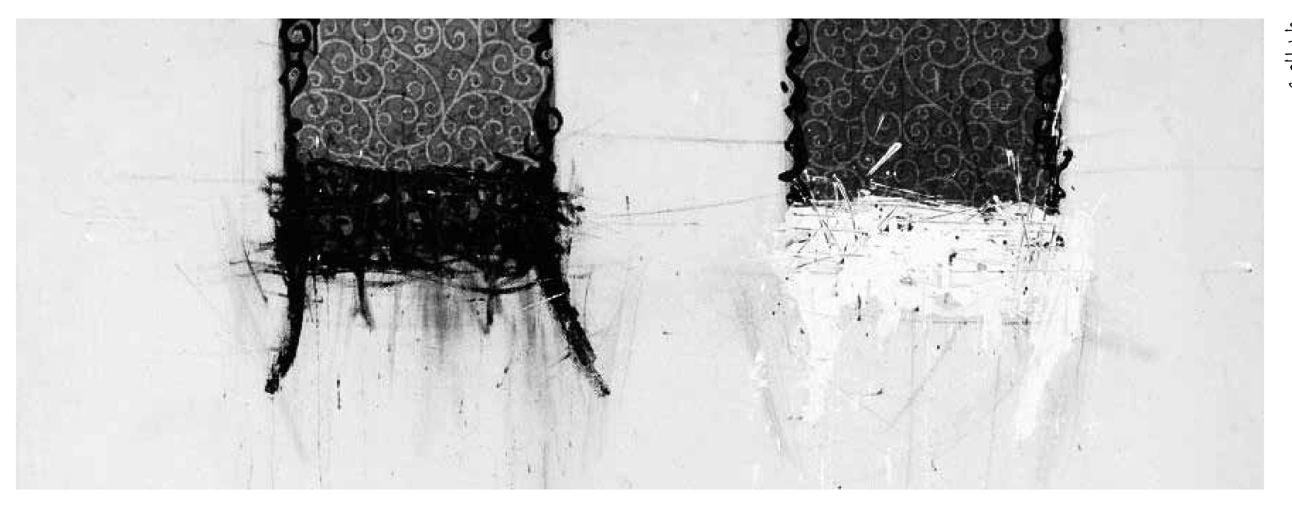
الغمزةُ اللذيذةُ
تحيي العظام وهي رميم
تلك الإيماءات وهزّ الكتفين
وهكذا يمشي شريط تلفزيون الأبيض والرمادي في
الدساكرِ أو القُرى وفي الحقول
في الغرف شبه المغلقة، شبه المظلمة. المُحايدةُ
بسب المهانة بسبب هذا العار الكبير
سميرة كانت ومضة غرفٍ مُعتمة
ونيسة صبايا بادية الشام
الإيماءات المحسوبة والمتكررة
هزّ الكتفين
والكفلُ ذو اليسارِ واليمين
وكلُ ذلك، الخَفَر،
همهمات الأجداد
ووجد الأحفاد
تلك الخيول التي تصهلُ في بادية الشام
وصوت، سميرة توفيق.

ذكرى

اقرع، يا طبلَ في الدساكر المنسية
وفي بيوت الصفيح
في ذلك الوادي
عبر رحلة العودة – عبر طريق الحرير
حيثُ تتموضع، العقلُ، فوق الكوفيات البيضاء الفاتنة
تتسلق الكمنجات مدارج الروح
تلك الأنفة
لسليلة الفينيقيين
ابنة قرطاجة
سليلة الفن
هذه الخُلاسية حفيدة كليوباترا وأجمل
هي اشتياق بلغ حدّ الجريمة
الفنّ شيء خطير
بالتهجيد بأناشيد قصائد ومعلقات صدر الإسلام
حين تختلط بالبخورِ بالتسبيح بنذور القربانات –
أوان الذبح – المُقبلات
تلك التي توقعناها، طويلاً، بسخرية. وكان القدر أكثر
سخرية منا.
ذكرى تتذكر، ذكريات، تذكارات ستصل قريباً لمستقرٍ
لها، أميرة غير متوجة وتعبر البال كذكرى.
استرحتْ وعادني طيف الكرى.

أم كلثوم

عازفُ الناي الأعمى
خلفَ السيدة العظيمة
وكبيرُ الخدمِ على – الكونترباص – للتذكير
بمهابة السيد الرئيس لاستدعاء التماثل
وحنجُرةٌ، القرار، بالآهات
...وحُبِ ايه؟



وليد المصري

سائقو التكاسي
حافلات الأرياف وضواحي المدن المُهمّشة
هُنا... أو هناك
والصوتُ المُسترسل، بخدرٍ لذيذ، في آلافِ حناجر
السّيارة.
تُمجّد، البكباشي، بلقب السيد الرئيس
حين كانت بعض الراقصات –والمُشير– نموذجاً
للوطنية،...
وعلى قبضِ الصوتِ الرائع، قبضوا من أثرِ الأنبياء.
تأسفٌ. كانَ يُجرجرُ أيامكَ يا أبي المثلومُ من الوريدِ
إلى الوريد
ذكرياتُ الندم
القلبُ الضيق
تأملٌ للكتاباتِ على الجدران، بعد كلِ هذا العُمر
والتفكير في الأشغال المؤجلة للممحاة
لقد كثُرت أوراقُك وقلّت أقلامكَ.
يا أبي.

فراغات كبيرة

أكتبُ، فراغاتٍ لملءِ الوقت
مُستنفذاً سيرةً مُقتضبةٍ ومتواضعة
عن اللاشيء الذي يسكننا
أبصرنا النور ولم نُشاهِد
وامتهنّا الكتابة ولم نُفكّر
استمرأنا النميمة بداعي الإبداع
بنات أفكار الضحالة تحتلُ أعمدة الجرائد
وقابضو الريح يُقررون المصائر
بينما يتدلى الشِعرُ والشعور
ذليلاً بين كوادر إعلانات الكباريهات
في الجرائد المحترمة.
العناوينُ المفقودةُ أعزُ من تلكَ التي نملُك
والحنينُ أثمنُ من وصالٍ طال انتظاره
أعُدُّ، من جديدٍ أرقامَ الهواتفِ
وأعملُ لائحة بأرقام هواتف من يتوجب الاتصال بهم
قبل أن تذبل، بدورها، في بكتيريا الزمن..
كسابقاتها.
التخمينات السيئة تكون في محلها
بينما تتعثر أوراق الحظ
كما في كل مقامرة
أمعنّا السير في الاتجاه الخطأ
فيما بوصلة الحكمة لبثت مكانها
وكأنّ ساعة الرمل كانت فارغة
فأثرنا الزوابع في فناجين الثرثرة



مُختالينَ بفَكِّ الحروف وإتقان اللهجات الجهوية
والتنزه في بستان الشِعر.. كما لو كُنا في حديقة
ببغاوات
والعائدون من الأقاصي بزواداتٍ فارغة
نصّبوا أنفسهم أباطرةً للحداثة
بقهرماناتٍ كانت من صُنع إحباطاتهم
حين لم يُحيطوا بشيء
فعلكوا الريح ثم مخروا عبابه
فصفقنا طويلاً، ولم نزل.
تمشي اللغةُ ذليلةً ككلبٍ يعرج
عاكسةً في سرابِ إحساسها تفجير ذاتها
مُستخدمة الرفش والفأس بدعوى «الحفر المعرفي»
ضدَّ قليلٍ من الحرية التي ما ملكت.
الهروباتُ المُتلاحقة تغُذّ السير
مهرولةً نحو نهاياتها القصوى
- حينَ لا نملك الكثير يهونُ الفقدان -
فنستبدلُ، بيسرٍ، القصائدَ بالقمصان المُخططة
التائهونَ، منذُ البداية، افترقوا
مُقترفينَ العُزلة كخيارٍ جماعي
والذين اتخذوا رُكنهم على دفة الاحتياط
انطلقوا، في الوقت الضائع، في صفوفٍ مُبعثرة
بداعي الاختلاف
فقط
ولأنَ الأمور تسيرُ كما تسير
لم يصلّ أيٌّ منهم
وما زلتُ، في انتظارهم، أكتبُ فراغاتٍ كبيرة
لملء الوقت.

ضباب لاهث

الدُخانُ اللاهثُ في ضباب الكوة للبيتِ الطيني
يتصاعدُ خليطا، زفرات وسعال.
شوقُ المنسيين على طرفِ الغابة
فوق هذا الجُرفِ الهاوي لأعماق الضمائر «المُستترة»
صولجان الزهو
العِتةُ المُتكررة
الهبلَ والغثيان.
وكانَ يُقنعُ نفسهُ بأنهُ سعيد
وأن ما ينقصه ليس بالشيء الكثير
رحلةٌ قصيرةٌ إلى البحر
تشذيبٌ حازمٌ للذكريات.

الحرب المرواغة

بالمقارنة مع برج بابل لا نستطيع الكلام
بضع احترازات كانت كافية للالتفاف على مجرى
النهر،
ثم تُذكّر القسم العظيم الذي عليه عدم الحنث به
بيسرٍ سوف تنتهي العمليات في الشمال
وما تبقى.. سيعتمد كثيرا على التعاويذ المهينة
والصيام المُذل.
على العشائر فقط الاهتمام بالفلكلور
وترك من هم برتبة رقيب فما فوق الاهتمام بالأعداد
المُركّبة وفنّ التفاضل والتكامل.
رِفعة المسألة أن تبدو نابليون مهما كلّف الأمر.
مزيجٌ من قديسٍ ثائرٍ وإمبراطور بأكتافٍ ذهبية
لن تنتهي الحرب حتى لو أُعلنت الهدنة
سحرُ الحروب يُثيرُ الغوغاء
وهذا خير وسيلة لكسب الوقت
فأعمارنا محدودة
رغم أحلامنا اللامتناهية بالخلود.

شاعر من الأردن مقيم في فينيسيا

وليد المصري



عزلة

متوالية مسرحية

هشام بستاني

ملاحظة أولية

تتأسس هذه المتوالية المسرحية على ثلاث قصص لي: «عزلة» و«ورقة على الطاولة بجانب الكرسي المقلوب» من مجموعة «الفوضى الرتيبة للوجود» (2010) وقصة «حقّاً قام؟» من مجموعة «عن الحب والموت» (2008)، وهي تعتمد تقنيات السرد القصصي في بناء المشاهد المسرحية المتتالية كأجزاء منفصلة ومكتملة فنياً بحد ذاتها، ولكنها متصلة في الثيمة الرئيسية والخط العام للفكرة وتنبني بعضها على بعض بشكل متتال كما هي أدناه أو بأيّ ترتيب آخر، إذ يمكن أن يصبح المشهد الأول ثالثاً والثاني أولاً.. الخ، باستثناء المشهدين الرابع والخامس اللذين يجب أن يعاملا كوحدة متماسكة بنفس الترتيب، وينقلان معاً. ويمكن أن يقدّم هذا العرض كل مرّة (إن كان سيقدم لأكثر من مرّة) بترتيب مختلف للمشاهد. وينبغي على المخرج أن يكرّس فكرة الانفصال والاتصال هذه في العرض.

المشهد الأول

المكان: قبو، حجارته رطبة وعليها مسحة من عفن داكن.

عناصر المكان: الحيطان كلّها عارية. هناك كنبة قديمة تتسع لشخصين موضوعة مقابل حاجز شفاف معلق عليه تلفاز LCD. الحاجز يبدو وكأنه جزء من الجدران لكن ذلك لا يفقده شفافيته. الرائحة ثقيلة، وبالإمكان رفع درجة حرارة المسرح أكثر من المعتاد لوضع المشاهد في حالة تشبه الانضغاط.

الشخصيات: هو، وهي. ليس لهما أسماء.

المسرح يغرق في ظلام دامس ثم ترفع الستارة. يستمر الظلام الكامل لحظات ثم ينبعث ضوء شحيح ملوّن يتقلّب باستمرار من التلفاز، وتسمع منه أصوات بعيدة/قريبة لعجلات سيارات وموسيقى رخيصة وأحاديث غير مفهومة. وعلى ضوء التلفاز المتقطّع نراهما.

على الكنبة يجلسان، جنباً إلى جنب، يده في يدها، نحيلان، مشعثا الشعر، جفونهما السفليّة منتفخة ومتهدلة. إنهما هناك منذ زمن طويل. ثمة طبقة سميكة من الغبار تغطيهما، وثمة عناكب بنت بيوتها في زوايا جسديهما الثابتين. ولا حتى رفّة جفن: العيون مفتوحة ومسمرة بالحائط المقابل.

لا يدفع عنهما التأكيد بأنهما ميتان سوى الصوت الخافت وارتفاع الصدر اللذين يحدثهما الشهيق (بدون افتعال، الحركة والصوت بالكاد تلحظان).

يستمر جلوسهما دون حركة لفترة، فيما يصبح الصوت القادم من التلفاز والصورة أكثر وضوحاً، ويستطيع المشاهد تمييز صوت وصورة مقطع من المسلسل التركي المدبلج «نور»، مقطع من أغنية لـ«دانة»، مقطع من أوبرا وينفري شو، فاصل إعلاني طويل لزيت قلي وفوط نسائية وهاتف خلوي، مقطع من سيربح المليون، مقطع من نشرة الأخبار لقناة الجزيرة، مقطع من ستار أكاديمي، مقطع من فيلم يمتلئ بإطلاق النار واصطدام السيارات. وفجأة يسمع صوت تماس كهربائي في الأعلى (ويفضّل في مكان ما فوق الجمهور). تتقطع الصور المتحرّكة الملوّنة قليلاً قبل أن تموت الشاشة، وتغرق الغرفة في ضوء مصفرّ باهت.

يسود صمت كامل لا يستمرّ طويلاً.

هي: هيّا. قمْ وافتح النافذة.

هو: (محادثاً نفسه) وما أدراني أنا؟ أجلس على هذه الكنبة منذ أن بدأت أعرف أنني أجلس على هذه الكنبة. أراقب النافذة. كلّ ما أعرفه رأيته من هذه النافذة، لكنّي لا أعرف كيف تفتح أو تغلق. لم أغلق هذه النافذة أبداً. كانت مفتوحةً على الدوام. أما كان يجب أن أعرف كيف أغلقها لأعرف كيف أفتحها؟

هي: (بنفاد صبر) أووووه. ألم تسمعني؟ قلت لك قمْ وافتح النافذة. ألم تسمعني؟ وبَغِدين..

هو: (محادثاً نفسه) لقد تعلّمت من النافذة أشياء كثيرةً. رأيت عوالمَ ساحرةً ونساءً جميلات، وبشراً/آلهةً وبشراً/آلات، ومذابحَ، وهزائمَ، وانتصارات، وقلوباً منكسرةً، وجنس. آآآه! جنس! أرأيت كيفَ تضاجع فتاة الإعلان قضيبَ الشوكولاته؟ يا له من إعلان! لكنّ النافذة لم تعلّمني كيف أغلقها أو أفتحها. كانت مفتوحةً على


صفوان داحول

الدوام. ألا ترَيْنَ ذلك غريباً؟

هي: (باحتقار) سَئمت أعذاركَ أيّها العاجز. بنافذة مغلقة سنختنق ونموت، أتفهَم؟ إنني أختنق الآن. أختنق.

هو: (محادثا نفسه) ترى لماذا لم نحاول إغلاق تلك النافذة ولو لمرّة واحدة؟ أفكّر في ذلك الآنَ بالتحديد، وبتحديد أكثر، أفكّر لماذا لم نحاول أن نمدّ أيدينا أو رؤوسنا منها. لماذا لم نناد على أحد من أولئك الجالسين خارجها أو المارّين أمامها. كان بإمكاني أن أطلب من تلك المضطجعة على الكنبة لوح شوكولاته. كان بإمكاني أن أسير مع التظاهرة إلى 10 داونينغ ستريت. كان بإمكاني دعوة تلك المغنية لتجلس معنا. قال مغنية قال! لا يسمع منها إلا صوت السيليكون! كان بإمكاني أن أساعد في إسعاف ذلك الطفل المليء بالثّقوب. ماذا كان يصيح؟ لم أعد أتذكّر. لكننا ظللنا صامتين ونراقب. كان عليّ أن أمدّ رأسي من النافذة.

هي: (بصراخ) أووووه. إنني أختنق هنا. افتح النافذة. أيها الحقير. تريد أن تحبسني. تريد أن تقتلني. تريد أن.. ويعتم المسرح تماماً فيما يظل صراخها مستمرّاً لعشر ثوان ثم فجأة صمت كامل.

المشهد الثاني

المكان: نفس القبو السابق يحتل نصف المسرح فقط. النصف الثاني (خلف الحاجز الشفاف) غرفة طالب جامعي متواضعة.

عناصر المكان: عناصر القبو نفسها، لكن التلفاز موضوع بحيث يكون مقابلاً للحضور، أما غرفة الطالب ففيها طاولة وكرسي ومكتبة متواضعة وسرير وضوء يتدلّى من الأعلى يشبه أضواء غرف التحقيق. على الطاولة دفاتر وكتب وقلم. مرتبة فوق بعضها إلى الجهة البعيدة عن الجمهور.

الشخصيات: هو وهي. قد يكونان نفس الهو والهي من المشهد الأول أو هو وهي جديدين، ويفضل الخيار الثاني، بحيث يؤدي كل مشهد هو وهي جديدان، باستثناء المشهدين الرابع والخامس الذي يفضّل فيهما إبقاء الـ»هو» والـ»هي» اللذين يؤديان هذين المشهدين.

يجلس هو في غرفة الطالب، يكتب شيئاً على ورقة ثم يجعلكها ويلقيها على الأرض، ثم يعكف على أخرى فيجعلكها ويلقيها على الأرض، وهكذا..

في ذات الوقت، تكون هي جالسة على الكنبة تشاهد التلفاز، تتأفف ثم تقلب القناة بعصبيّة، تشاهد القناة الجديدة، ثم تتأفف لتقلب القناة مرّة أخرى، وهكذا.

يقوم هو عن المكتب فيما تستمر هي بتقليب القنوات.

هو: لم أجرّب الغربة الحقيقيةَ بعد، الغربة بعيداً عن المكان المألوف والناس المعتادين. ولسبب ما، يخيّل إليّ أن ذاك لن يكون أشد وقعاً مما أنا فيه الآن، فلن أجد مشكلةً أعوَص من الإحساس بالانسلاخ عن هؤلاء الغرباء الحميمين الذين أراهم يومياً. عندما أنظر في وجوههم لا أرى شيئاً سوى صفحات بيضاء بلا أدنى شائبة، مرقّمة في أسفلها بحسب عدد أيام السنة، وتتوالى الأيام صفحةً بيضاء إثر أخرى بلا تغيير سوى في ذلك الرقم. لماذا كان عليّ أن أحيا مثل هذه الحياة؟

يعود هو إلى الطاولة، يكتب ويجعلك الأوراق فيما تقوم هي عن الكنبة.

هي: (وكأنها تجيب على سؤاله) سؤال ساذج! لقد أمضيت السنوات القليلة التي تفتّح فيها وعيي مقتنعة بحريّة الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله. كنت أهزأ من أولئك الذين يلْقون بأخطائهم على ظهور الآخرين: «إنتي اللي خلّيتيني أعصّب..»، وأقهقه عالياً في وجه من يقول: «الله يخزي الشيطان، نسيت..» وكأنه يَلْعَن بذلك الفاعل الحقيقي، أما هو (البريء المسكين الغافل المنقاد) فلم يفعل شيئاً، يَسوقه القضاء والقدر بحَتميّة اللوح المحفوظ. مقدّر ومكتوب. الآن، وبعد كلّ ما حصل، أعترف أننا مجبرون على الحياة. وكما -بحسب بعض الوجوديين- نحن لسنا أحراراً في أن نختار الحريّة (وكنت دائماً أقف أمام التناقض الهائل الذي تحتويه هذه العبارة)، فنحن كذلك لسنا أحراراً في اختيار وجودنا أو عدمه.

تعود هي لتقلّب القنوات، فيما يقوم هو عن الطاولة.

هو: (وكأنه يستكمل ما كانت هي تقوله) هذا ما جناه أبي عليّ. صدقَ المعرّي. لكني ما زلت أسأل: هل أثَّرَت حياتي؟ هل سيؤثّر موتي؟ هل أنا مجرّد حشرة؟ ألا تؤثّر الحشرة؟ ماذا عن موتها؟ لا أدري. ستفنى الحياة وتظل هذه الأسئلة بلا إجابات. ترى ماذا كان يدور في رأس تيسير سبول قبل أن يضغط الزّناد؟ أي شجاعة أسطوريّة حلّت في خليل حاوي وهو يفجّر رأسه على الشرفة؟ أذلك نهاية إنكار الذات، أم أعلى ذرى الشجاعة، أم قمة الجبْن؟ كنّا خمسةً في تلك المجموعة: ثلاثة شباب وصبيّتان. عندما طلبوا منا ثقب أصابعنا بدبّوس لنحدّد زمَرنا الدموية في مختبر البيولوجيا الجامعي، لم يجرؤ أيّ واحد على ثقب إصبعه بنفسه: كل واحد ثقب إصبع زميله. كيف بهذا الإنسان -الذي يخشى على إصبعه من وخزة صغيرة- وهو يعاقب نفسه العقوبة التي لا رجعة عنها؟ إنها الشجاعة إذن.

يعود هو إلى الطاولة، يكتب ويجعلك الأوراق فيما تقوم هي عن الكنبة.

هي: (وكأنها ترد عليه) بل الاستسلام. أي جبْن هذا الذي يدفع أناساً غير عاديين -وما أقلّهم- في بداية عطائهم أو قمّتها، إلى الهرب بطريقة بشعة كهذه؟ جبْن وغباء أيضاً، فهم عجزوا عن استنباط حلول لأزماتهم. يقولون إنّ الأداء الفكري والعقلي يكون أشدّ مضاءً في أحرج الأوقات وأكثرها تأزّماً، فكيف بمشروع المنتحر هذا، وهو منغمس في أكثر الأوضاع استثارةً للفكر والعقل، لا يستطيع الخروج من مأزقه؟ أين بافلوف عنه؟ أم تراه لم يسمع ببافلوف وكلابه والإشراط الاستجابي؟ لكن هل المطلوب أن نتحوّل كلاباً يسيل لعابها كلّما دق الجرس أو سمعت وقع خطى سجّانها تقترب؟ هل المطلوب أن نجد حلاًّ لكل مشكلة كما يتوقع الباحث وكما تقتضي ظروف التجربة؟ «اشتدّي أزمة، تنفرجي»؟ أبهذه الميكانيكية؟ لن يحصل ذلك أبداً. أنا شخصيّاً أرفض التحوّل إلى كلب لبافلوف. أرفض حتى أن يسيل لعابي. سأحطّم الجرس وأقضم رجل ذلك العالم مدمن لعاب الكلاب. يحق لي أن أخرج عن طوري أحياناً، أن أصرخ، أبكي، أقهقه. أن أسبّ وألعن. ويحق لي أن أموت.

تعود هي لتقلّب القنوات، فيما يقوم هو عن الطاولة.

هو: (بتأمل) العالم الآخر. ذلك المجهول. كثيراً ما يستثيرني الفضول لمعرفة ماذا يوجد بعد الموت. ولكن يبدو أن السبيل الوحيد إلى ذلك هو.. الموت. أنا نتاج منطقيّ لتاريخ البشر. فمنذ فجر الوعي ونحن نسأل السؤال ذاته بلا إجابة، فطريق الإجابة باتجاه واحد. أنا الآن أريد أن أعرف، وأريد السير في ذلك الطريق. ماذا يوجد هنا أصلاً؟ سأعدّد: الحروب والمذابح والأوبئة والاغتصاب والكذب والسرقة والخداع والاضطهاد والتعذيب والاغتراب والنفاق والمرض والجوع والعنصرية والانقلابات والتلوّث و.. قد تقول: العلم والحب والموسيقى والفن والشّعر. طيّب: هل يسوى كلّ شعْر الأرض ثمن حياة طفل إفريقي صغير مات جوعاً في حين ينتج العالم أضعاف ما يكفي لإطعام البشرية كلها؟ هل سيعوّض كل حبّ الأرض الأذى الذي لحق بفتاة اغتصبها جماعياً جنود شقر عبروا المحيطات من أجل «حرية العراق»؟ المضحك المبكي، بل والمخزي، هو أن الإنسان، سبب كل تلك المآسي والكوارث، ما زال موجوداً و»يتطور» باستمرار، بينما انقرضت أنواع وأجناس وأصناف هائلة من الكائنات بعضها أقوى وأعظم، ولائحة الانتظار طويلة. ماذا يطلق الإنسان على خرابه المتمدّد؟ إعمار! لنضحك الآن.. (يقهقه).

يقفان مقابل بعضهما الآن، بينهما الحاجز الشفاف، لكن كل واحد منهما وهو يتحدث وكأنه يتحدث إلى شخص خلف الشخص الواقف أمامه.

هي: أنا، تلك التافهة الهامشية، أعلن تمرّدي على ذلك كلّه من ألفه إلى يائه. إن عقلي المحدود (المحدود؟) لم يعد يتحمل. لم يعد يتحمل مجزرة قانا، ولا قصف ملجأ العامرية، ولا قنبلة هيروشيما، ولا العامل البرتقالي، ولا استئثار الحزب الحاكم بالسلطة، ولا ما يجري في سجون المخابرات، ولا والدي، ولا والده.

هو: لم يسمح لي بالزواج منها. أنا مسيحي وهي مسلمة. الديانة: المسيحية. هكذا كتب على الوجه الخلفي لبطاقتي الشخصية. ورغم أني حقيقةً غير مؤمن، لكني مختوم كعجول المسلخ البلدي. كلنا نختَم بألوان مختلفة حالما نولد. نَسحب النفَس الأول ونأخذ بالبكاء لنشمّ بعده رائحة احتراق الجلد. الختم ليس بالحبر، بل بالنار. العجول أفضل حالاً. ختمها بالحبْر، وتحمله بعد أن تموت، لا قبل أن تولد.

هي: بالختم يخرج الواحد منّا من تصنيفHomo sapiens ليصبح: أسود وسنّي وأردني وكاثوليكي وأصفر وهندي وفلسطيني وشيعي وكردي وأورثوذكسي وعربي وتركي وأبيض وأحمر وأمازيغي، وكثيراً ما يكون واحدنا تركيبةً من عدّة أختام فيصبح أثرها مضاعفاً.

صوت عال من التلفاز (مع ما يشبه صافرة الإنذار): إلى المسلخ. جهزوا أنفسكم. إلى المسلخ. جهزوا أنفسكم.

في أثناء ذلك -والصوت ما يزال يتحدث- يركض هو وهي كل في المساحة المخصصة له وكأنهما يريدان الهرب من الصوت، لكنهما محاصران، وبعد كل دورة من الهرب يلتقيان عند الحاجز لكن دون أن يرى أحدهما الآخر. ثم تعتم الإضاءة بالكامل، والصوت ما يزال يتحدث، وهما يركضان، ثم يسمع صوت انقلاب الأثاث، وصوت تعثّرهما لعشر ثوانٍ تالية، ثم فجأة صمت كامل.

المشهد الثالث

المكان: نفس القبو السابق يحتل نصف المسرح، الحاجز الشفاف، ثم نفس غرفة الطالب الجامعي المتواضعة تحتل نصف المسرح الآخر.

عناصر المكان: عناصر القبو نفسها ولكن بدون الكنبة، بل توجد فيه مجموعة من المرايا الطولية المتقابلة (التي تقارب طول وعرض إنسان)، وصورة لـ»هو» ثابتة على شاشة التلفاز. أما غرفة الطالب ففيها نفس العناصر السابقة. القبو مضاء بالأزرق الخافت، وغرفة الطالب مضاءة بالأحمر الخافت.

الشخصيات: هو وهي. قد يكونان نفس الهو والهي من المشهد السابق أو هو وهي جديدين، ويفضل الخيار الثاني.

هي تقف أمام التلفاز. تبتسم. أنت؟ (بحب) تقول وهي تحسّ بالدفء في الداخل. دم حار يسري في العروق. ينطفئ التلفاز، فينعكس وجهها في زجاجه. أنا؟ (باستنكار) فتتراجع ابتسامتها قليلاً.

يعمل التلفاز مرة أخرى، فيختفي انعكاسها وتعود صورته، فتعود الابتسامة إلى سابق عهدها. تلتمع عيناها ويخفق قلبها بشدة، وتشعر بقشعريرة غريبة. تلمس صورته في التلفاز. ترسم بإصبعها استدارة الوجه، وتداعب الأنف والشفتين. تقترب بوجهها وتطبع قبلةً طويلة على شفتيه.

عند تلك اللحظة، يكون هو على الجهة الأخرى من المسرح يستقبل القبلة على شفتيه وكأنها حقيقية، وكأنها أمامه تقبّله، وعندما تبعد هي وجهها عن التلفاز، يقول هو بالتزامن مع نفس الكلام تقوله

صورته في التلفاز (يسمع الكلام من هو مباشرة ومن سماعات التلفاز بالتزامن، كل عبارات هو التالية تتم بهذا الشكل): ما أجمل قبلتك يا حبيبتي...

تضطرب **هي:** م م م ماذا؟ أنت صورة.. مجرّد صورة.

هو: ما أدفأ شفتيك يا حبيبتي.

تضطرب هي أكثر وأكثر: صورة.. صورة.. مجرّد صورة.. الصورة لا تتحدث. الصورة لا تحس. إنني أهذي. لا بد أنني أهذي.

هو: تعالي إلي. انتظرتك طويلاً. تعبت. تعالي إلي (يمدّ يديه نحوها، لكنه لا ينظر إليها وكأنه يميد يديه نحو شخص خلفها. صورته في التلفاز تفعل الشيء نفسه). ويبدأ بالحركة (الحركة بطيئة ومتعبة) (وهو يهذي) تعالي.. تعالي.. أين أنت.. من أنت.. أين أنا.. من أنا.. تعالي.. أحس أنك هنا لكنك لست هنا... أين أنت.. أين أنا... تعالي.

هي: (تهرب لتصطدم بصورها في المرايا. انعكاسات متوالية لشخص واحد، لها هي. تهرب من أمام كل مرآة لتقف أمام أخرى) أين أذهب من نفسي؟ (تهرب إلى مرآة أخرى) أيهم نفسي؟ (تهرب إلى مرآة ثالثة) أهذه أنا؟ (إلى رابعة) أهذه أنا؟ (إلى خامسة) من أنا؟ (إلى سادسة) أهذه أنا؟.

(في نفس الوقت الذي تقول فيه هي «من أنا؟» يبدأ هو بالحركة والهذيان مرّة أخرى)

هو: تعالي.. تعالي.. أين أنت.. من أنت.. أين أنا.. من أنا.. تعالي.. أحس أنك هنا لكنك لست هنا... أين أنت.. أين أنا... تعالي.

(يتعالى صوتاهما بالتزامن ليصبح أقرب إلى الصراخ، ثم تعتم الإضاءة بالكامل عن الصالة فيما يستمر صوتاهما بالارتفاع لعشر ثوانٍ تالية، ثم فجأة يسود صمت كامل).

المشهد الرابع

المكان: نفس القبو السابق يحتل نصف المسرح، الحاجز الشفاف، ثم نفس غرفة الطالب الجامعي المتواضعة تحتل نصف المسرح الآخر.

عناصر المكان: عناصر القبو نفسها مع الكنبة، المرايا الطولية مصفوفة بجانب بعضها كحاجز أمام الحاجز الشفاف، والتلفاز مطفأ. أما غرفة الطالب ففيها نفس العناصر السابقة مضافاً إليها درج يصعد إلى ارتفاع طابق واحد يفضي إلى مسطبة خشبية تنتهي بنافذة حافتها الخارجية باتجاه الغرفة وعليها حوض أزهار من الخارج وستارة من الداخل، في وسط المسطبة باب يؤدي إليها. القبو وغرفة الطالب مضاءتان بالأزرق الخافت.

الشخصيات: هو وهي. قد يكونان نفس الهو والهي من المشهد الأول أو هو وهي جديدين، ويفضل الخيار الثاني.

هو في القبو يحاول التحرّك ليعبر حاجز المرايا، لكنه يصطدم بصورته كل مرة. مرة يقف مستغرباً، مرة يقف متأملاً، مرة يضحك، مرة يبكي، مرة يتأفف.. وهكذا. أما هي فتكون تنظر من النافذة، تنتظر، تتلفت يميناً ويساراً وأسفل، وتنتظر. باب الغرفة مغلق عليها.

هي: (تحدّث نفسها، وفي نفس اللحظة يشتعل التلفاز وتظهر صورتها وهي تقول الشيء ذاته ويسمع الصوت منها مباشرة ومن سماعات التلفاز) لمَ لمْ تأتِ في الموعد؟ انتظرتك في النافذة كثيراً. بحثت عنك ببصري من أول الشارع إلى آخره. (تتجمد صورة التلفاز الآن ويصمت صوته) لم أجدك. مرّ جنود في طريقهم إلى الجبهة، ولعب أولاد صغار على المراجيح، وحطّت طائرة كبيرة نزل منها مسافرون كثر، ولم تأتِ.

(عندما يشتعل التلفاز وتظهر صورتها، ينتبه هو إلى التلفاز ويتحرّك باتجاهه، يلمس الصورة، يمرّر أصابعه عليها، وعندما تتوقف هي عن الكلام) يقول محدّثاً الصورة:

هو: أين كنتِ؟ لمَ لمْ تلتزمي بالموعد؟ كنت هناك تحت النافذة، في الثامنة والنصف تماماً، أحضرت لك ضمّة من الورود، أحضرت لك عازفي قيثارات من الغجر، كل ذلك دون أن تهتزّ ستارة النافذة. (يتحرّك هو باتجاهها، يقف أمام حاجز المرايا ويرفع رأسه نحوها لكنه لا ينظر إليها بل وكأنه يحدّث شخصاً ما خلفها) انزلي قليلاً. رائع هنا. بعيدا عن القذارات والأوساخ. إنزلي. قليلاً فقط. سنرجع معاً إلى الأعلى، لكن لا بدّ أن تنزلي أولاً.

هي: (تردّ عليه لكنها لا تنظر إليه بل وكأنها تحدّث شخصاً ما خلفه) اصعد قليلاً. رائع هنا. بعيد عن القذارات والأوساخ. إصعد. قليلاً فقط. سنرجع معاً إلى الأسفل، لكن لا بدّ أن تصعد أولاً.

هو: أين المخرج؟ أين المخرج؟ أين المخرج؟ (يتحرّك باتجاه جدران القبو، يلتصق فيها ويمرّر يديه عليها باحثاً عن حافة باب أو مخرج وكأنه يبحث في ظلام تام، يتحرك على جدران القبو وهو بهذا الشكل إلى أن يصل عند أول مرآة فينتفض إلى الخلف كالملسوع. يتنافر تماماً مع صورته في المرآة. ويأخذ بتأمّلها ثم يقول لنفسه) لا مخرج. الآخرون هم الجحيم. لا مخرج. الآخرون هم الجحيم.

هي: (تأخذ هي بتحسس حيطان الغرفة، تلتصق بها وتحرّك يديها باحثة عن حافّة أو مخرج وكأنها تبحث في ظلام تام إلى أن تجد يد الباب، تحاول أن تفتح الباب لكنه مغلق، تحاول بعنف أكبر، الباب لا يفتح، تعود تتحسس الجدران إلى أن تعود إلى النافذة وتنظر إلى الأسفل. أثناء ذلك كلّه يكون هو لا يزال يردد نفس العبارة بلا توقّف، ويتصاعد صوتها (وليس بالتناسق مع صوته بل بالتعارض معه من حيث ترتيب الكلمات) لا مخرج. الآخرون هم الجحيم. لا مخرج. الآخرون هم الجحيم.

يتصاعد صوتاهما إلى أن يصبح أقرب إلى الصراخ ثم تعتم الأضواء فجأة، ويستمر صوتاهما لعشر ثوان أخرى في العتمة ثم فجأة صمت كامل.

المشهد الخامس

المكان: نفس القبو السابق يحتلّ نصف المسرح، الحاجز الشفاف، ثم نفس غرفة الطالب الجامعي المتواضعة والدرج والمسطبة والنافذة تحتل نصف المسرح الآخر.

عناصر المكان: عناصر القبو نفسها ولكن بدون الكنبة، والمرايا موضوعة على شكل دائرة، والتلفاز مطفأ. أما غرفة الطالب ففيها نفس العناصر السابقة. ستارة نافذة الغرفة المعلّقة مغلقة. القبو مضاء بالأحمر الخافت بشكل عمودي على مركز دائرة المرايا، وغرفة الطالب مضاءة بالأزرق الخافت.

الشخصيات: هو وهي. قد يكونان نفس الهو والهي من المشهد الأول أو هو وهي المشهد الرابع، ويفضل الخيار الثاني.

هو: (يمشي هنا وهناك. ينظر إلى ساعته كثيراً، كما ينظر إلى الشبّاك في الأعلى) لا أحد.

هي: (تقف في مركز دائرة المرايا وتدور ببطء وتهمهم بكلام لا يكاد يسمع) أيهم أنا؟ من أنا؟.. الخ.

هو: الساعة الثامنة والنصف صباحاً. إنه الموعد تماماً (ينظر مرة أخرى إلى الشبّاك) لا أحد. (بتأفّف) أين هي، قالت لي إنها ستنتظرني في النافذة (عند هذه اللحظة يشتعل التلفاز وتظهر فيه صورة «هي» وهي تتلفت يميناً ويساراً وكأنها تنظر إلى الشارع من نافذة).

هو: وعدتني. قالت لي إنها ستكون في النافذة في الثامنة والنصف تماماً. مرّت خمس دقائق فوق الموعد. (ينظر إلى النافذة مرّة أخرى) آه؟ كأن الستارة تتحرك قليلاً؟ أتكون خجلة؟ إنها المرّة الأولى التي نلتقي فيها. سأصعد.

(يصعد هو الدرجات بينما تتصاعد سرعة حركة «هي» في مركز الدائرة وبين المرايا ويعلو صوتها ويصبح مسموعاً ومفهوماً. يدق هو جرس الباب مرّة ومرّتين وثلاثاً. لا جواب. يطرق الباب. لا جواب. يطرق بعنف. لا جواب. يطرق بعنف أكبر. لا جواب. يقرر أن يكسر الباب. يستجمع قواه ويهجم على الباب بكتفه، مرّة ومرّتين، وتكون حركة هي هنا قد تسارعت جداً وصار صوتها أقرب إلى الصراخ. في الهجمة الثالثة ينكسر الباب ويسقط هو على الأرض داخل الغرفة، وفي نفس تلك اللحظة تماماً (لحظة انكسار الباب) تجمد هي تماماً وتسكت وينطفئ التلفاز. يقوم هو ببطء، وبدون أيّ كلمة ينظر في الغرفة حواليه كمن يبحث عن شيء في غرفة فارغة، يمشي ببطء نحو النافذة، يفتح الستارة ويطلّ منها إلى الأسفل، يشاهد في الأسفل غرفته، فيحيط رأسه بيديه ثم بذراعيه وينهار بهدوء على حافة النافذة، ثم تخفت الإضاءة قليلاً قليلاً لتصل إلى عتمة كاملة.

هوامش

تيسير سبول: شاعر وكاتب من الأردن، انتحر بإطلاق النار على نفسه وهو في ريعان شبابه، من أبرز ما كتب رواية «أنت منذ اليوم».

خليل حاوي: شاعر من لبنان، أطلق النار من بارودة صيد على صدغه وهو واقف على شرفة منزله، احتجاجاً على الاجتياح الإسرائيلي لبيروت عام 1982.

بافلوف، إيفان: (1849- 1936) عالم وطبيب روسي مختص في علم وظائف الأعضاء، اشتهر بوصفه ظاهرة «الإشراط الاستجابي» وتجربته حولها على الكلاب. حصل على جائزة نوبل في العام 1904 لبحوثه على الجهاز الهضمي.

الإشراط الاستجابي: لاحظ بافلوف أن لعاب الكلاب يسيل عند سماع وقع أقدام من يقدّم لهم الطعام، وقبل رؤية الطعام نفسه، وبمجموعة من التجارب، استطاع أن يثبت أنه بالإمكان ربط مؤثر حيادي (مثل الصوت) في عقل الحيوانات العليا (ومنها الإنسان) بمؤثر حقيقي (مثل الطعام)، فيصبح المؤثر الحيادي قادراً على استثارة استجابة لها علاقة بالمؤثر الحقيقي (الصوت يستثير اللعاب بدلاً من الطعام)، وهو ما يعني إمكانية التحكم بسلوك الإنسان وصناعتها حين يتم التحكم في ظروف الحياة الاجتماعية. والترجمة العربية المعتمدة في النص هي ذاتها المعتمدة علمياً، وهي ترجمة قاموسية قاصرة لا تعطي هذا الموضوع حقه، فالترجمة الأدق لهذه الظاهرة بنظري هي: التكييف الاستجابي.

حريّة العراق: Operation: Iraqi Freedom الاسم الكودي الذي أطلقته الولايات المتحدة على عملية غزوها للعراق عام 2003 واحتلالها اللاحق له.

العامل البرتقالي: Agent Orange، الاسم الكودي لمبيد نباتي كيماوي استعملته الولايات المتحدة في حربها على فيتنام لإبادة الغابات التي كانت تشكل المخبأ الطبيعي للمقاومة الفيتنامية، وقد نتج عن استعماله مئات آلاف القتلى، ومئات آلاف الولادات المشوّهة، إضافة إلى الكارثة البيئية.

Homo sapiens: الاسم العلمي للإنسان بحسب علم تصنيف الكائنات الحية.

«لا مخرج» (No Exit) عنوان مسرحية جان بول سارتر التي ترد فيها عبارته الشهيرة: «الآخرون هم الجحيم».

كاتب من الأردن



صناعة تاريخ الآخرين

فصل من رواية

عبدالله مكسور

أقسى الخطيئة ألّا تُحب، وجدتُ في حياتي نساء كثيرات، عرفتُ بعضهنّ في الحانات وأخريات في الشارع وثالثات في أماكن العمل، مررن جميعهنّ على أطراف القلب، لم تسكن واحدة فيهنّ مقاماً يرقى بها إلى الخلود عندي، كانت العقدة لديّ، في كلّ مرة أحزم فيها الحقيبة لسفر يأتي مباغتةً منذ أن صارت أحلام المستقبل تزورني في صورة امرأة ترافقني لباب المطار وتترك عطرها على قميصي، لتذكّرني دوماً أنها تحاصرني، وحدي كنتُ أعلم أني مُحاصَرٌ بنفسي التي لا تقبل القسمة على اثنين، منذ عامين اشتغلت بتزوير حياة الآخرين، بدأت القصة عقب الاحتلال الأميركي للعراق، مصادفةُ الحرب جعلتني واحداً من تجارها، وحدنا المهمَّشون لم نهتم كثيراً لوقوعها، في ذلك النهار حين دخل أبو مرسال على البار في باب توما بالشام، بحث عني بعيون زائغة في الدخان، كنتُ أراقبهُ من خلف الحاجز الزجاجي الصغير الذي يكشف امتداد الشارع في دمشق، مديراً ظهري إلى الحائط وأمامي شاشة تلفاز كبيرة تنقل أخباراً من وِجهة نظر صانعيها، خطواته المتثاقلة نحوي جعلتني أستعيد جزءاً من توازني الذي أفقدتني إياه المدينة منذ سنوات، جملٌ قصيرة، كلمات مباشرة، أورثني اللعنة بعد رحيله، حمّلني أحلاماً لم تكن بوارِدِ خاطري، صرتُ أفكّر في الأموال التي سأجنيها، المال هو لعنةُ البقاء.

كان أبو مرسال حذقاً منذ أن قدِم إلى سوريا مع مطلع تسعينات القرن الماضي، كان جندياً في الجيش العراقي قبل الدخول إلى الكويت، وجد نفسه مصادفة يحمل السلاح في الجنوب إلى غير اتجاهه، فرماه وهرب إلى صحراء الرطبة، هناك استخرج أوراقاً ثبوتية جديدة ولجأ إلى البدو الذين تكفّلوا بتهريبه إلى سوريا بعد أن دفع لهم ما يملك من دنانير، هذه الرواية لطالما سمعتها منه بعد أن تعرفت عليه في إحدى الليالي الماطرة في البار، كان يشرب العرق دون ماء أو ثلج، يرميه بحلقِه مباشرة دون تفكير بذلك الطعم الحاد الناري الذي سيسكن بلعومه، تكفّل خلال سنوات وجوده الأولى في الشام بلعب حلقة الوصل بين العراقيين الهاربين وأهلهم، كان بمثابة البريد الإلكتروني قبل اكتشافه في البلاد.

أبومرسال، يتحلّق الجميع حوله بمجرّد وجوده في مكان، فهو يملك من القصص والحكايا والأخبار ما يكفي لتمرير الوقت الذي لا وصفة لقتله هنا سوى بالكلام عن أشياء خارج الحدود.

تعود علاقتي به إلى سنوات خلت، حين التقيته لأول مرة في مقهى الروضة، ظن أني من المخابرات لكن سرعان ما توطّدت أواصر المحبة بيننا رغم فارق السن، اعتدنا اللقاء وكنت أنتظر حكاياه التي كنتُ أعرف غالباً أنها من صنع خيالاته ومع ذلك كنت أحبها، حاولت أكثر من مرة أن أسأله عن حياته قبل أن يأتي إلى الشام، كان يكتفي بالحديث عن العراق بالإشارة إليه بضمير الغائب، أحياناً يستخدم لفظ التذكير وأطواراً يلجأ للتأنيث، كأن يقول مثلاً لرجل عراقي آخر «اشتَكِتلَه، الله يجازي يلي كان السبب، وحرمنا منها»، مع الزمن صرت أدرك أنه يفرّق بين البلاد وبين منطقته الممتدة في الجنوب والتي لم أستطع أبداً أن ألفظ اسمها حتى الآن: «الجبايش».

لطالما فكّرتُ فيه كشخصية روائية، طوله المتوسط وانتفاخ بطنه قليلاً، إصراره على ارتداء السراويل ذات القصّة الفرنسية، وعنايته بشاربه الكث تحت أنفه، كل هذا يجعل منه شخصية روائية تعيش بفضاءات مختلفة، أخبرته مرة عن تفكيري في هذا الاتجاه فسرَد قصصاً عن أسابيع التعذيب التي تعرّض لها في قاعدة الإمام علي بالناصرية بسبب تأخره بالالتحاق بقطعته العسكرية، وعن أسابيع أخرى في بناء مخيمات مؤقتة في بحر النجف لتنفيذ مشاريع عسكرية، مغامرات بالجملة يرويها، ربما استهوته فكرة أن يعيش في رواية، قالها لي مرة.

ذلك سيكون مثيراً حتماً

ليه عم تحكي فصحى؟

على مود الرواية يابه!

ظلّ يطاردني بعد ذلك خلال لقاءاتنا بالسؤال اللاهث عن مشروع الكتاب وكنتُ أختلق الأعذار حتى أيقن أني غير قادر على الكتابة أبداً، فصار يتهمني بالكذب، إلى أن جاء اليوم، كنت أخال أنه نسي الأمر تماماً، لكن بمجرّد أن رآني، بخطواته المتثاقلة كرجل يمشي في وحل، سحب كرسياً دون اهتمام وجلس قبالتي، بيني وبين اللوح الزجاجي الصغير فحجَب المدينة عن ناظريّ، ألقى التحية دون إظهار اكتراث المهتم بوجودي، وبدأ يتناول بعض حبّات الموالح، يتلذذ بطعمها بينما أراقبه بصمت.

اعتدنا خلال السنوات القليلة الماضية على الحديث في كل



بهرام حاجو

شيء دون الحديث فيما نريد، ليكون الذي نريده هامشياً، هكذا تشابكت الخيوط بيني وبينه، هو الذي كان يبحث عن وطن وجده أخيراً بعد أن رحل بجواز سفر مزوّر من مطار دمشق الدولي إلى هولندا، وأنا الذي كنت أتمسّك بالشام أكثر، وضع أبومرسال حبّة الكاجو الأخيرة من يده اليمنى ومدّ أصابعه الخشنة على الطاولة في الفضاء بيننا، انتبهت حينها أنه لم يكن إلا مزارعاً في حياته الماضية، أصابعه تشبه أصابع جدّي إلى حدّ كبير، هي النسخة المزوّرةُ عنها، كان هاجسي خلال سنوات مراهقتي الأولى اكتشاف مهن الأشخاص من أشكال أصابعهم، وكانت المرة الأولى التي أرى أصابعه بهذا القرب، لمستها بأعيني فأدرك أني اكتشفت سرّاً، فراح يتحدّث بصوت خافت.

أعلم أنك لا تعمل منذ أشهر، هناك مصلحة نقضيها سوا.

قال ذلك، فوضعت يدي على جبهتي وتركت أصابعي تنساب في شعري مستنداً بمرفقي إلى الطاولة الصغيرة، في الحقيقة كنت مفلساً وصاحب البار الذي اعتدت معه على جرد حساب شهري، مرّ عليه أكثر من ثلاثة أشهر دون أن أدفع له، صرتُ خلال الأشهر الماضية لا أسلك طريقاً واحداً في تنقُّلاتي اليومية هرباً من الدائنين، حفظتُ الشوارع الفرعية والزواريب الصغيرة التي لا يعرفها إلا القليل، كانت هوايتي اكتشاف الشام كي لا أبقى وحيداً في البيت، كل المخطوطات التي اشتغلت عليها لسنوات ماضية صارت طيّ النسيان، فقدت الحماسة لكل شيء، حتى أمام إصرار أبي مرسال على إشراكي في الحديث إلا أنّي اكتفيت بمراقبة شاشة التلفاز من خلفه بينما كان يظنُّ أني أستمع له باهتمام.

خمس دقائق ألقى فيها ما أراد، وتناول من أمامي كأس الشراب، دفَقّه كلّه مرة واحدة في جوفه قبل أن يعيده قائلاً: كعبك أبيض!، خرج بذات الخطوات التي دخل بها، ابتلعته المدينة مع الذين تبتلعهم كل يوم، بعد انصرافه حاولت أن أتذكّر ما قال، أعدتُ ترتيب الجمل التي اختلطت مع أخبار عملية تفجير استهدفت قوات التحالف في الرمادي ظهرت كخبر عاجل في التلفاز.

أراد أبومرسال أن أشاركه بصناعة ماضي الآخرين، أن أخلق حياة لهم لم يعيشوها، شباب هاربون من الحرب والمواجهات الطائفية، لا ينقصهم سوى ماضٍ نظيف يثبت بالدليل القاطع أنهم لم يكونوا يوماً جزءاً من تلك الأحداث الدامية، استهوتني الفكرة، وقعت بغرامها، صارت شغلي الشاغل بعد ذلك، صار اللقاء شبه يومي مع أبي مرسال عند «قاسم أبو الكص» في جرمانا، كزبونَين عاديّين نشتري الشاورما مصادفة ونقف على كتف الطريق نأكل ونتحدث، قبل أن يوميء لشاب يقف مبتعداً بخطوات عنا، عادة ما يقترب الشاب مباشرة فهو بانتظار هذه الإشارة، بكلمات بسيطة يُعرّفه عليّ ويتركه يقص ما عنده من حكاية، معظم الحكايات التي سمعتها كانت كاذبة، مع مرور الأيام صرتُ خبيراً بصناعة ماضي الآخرين، أشطب ما أريد من انتماءاتِهم الدينية أو العرقية، أضعهم في الخانة التي أريد، أنسبُهم إلى أحياء لم يروها أبداً في العراق قبل أن أسافر معهم إلى حمص أو حماه لاستخراج أوراق إقامة قديمة في سوريا بناء على القصة التي أضعها لهم، عادةً ما كنتُ ألجأ إلى القرى الصغيرة حيث المخاتير عادة لا شاغل لهم سوى حالات الولادة أو الزواج والطلاق، هناك ببعض المال والمعارف كل شيء ممكن، وخلال نصف ساعة يملك الشاب ورقة تثبتُ أنه مقيم في سوريا منذ 2003، يقيني كان يخبرني أنَّ هؤلاء مجرمون، متورطون حتى آذانهم بالدم، إلا أني كنتُ متورطاً أيضاً بكثير من الديون التي عليّ إيفاؤها وإلا انكشف حالي أمام الجميع.

يقبض أبومرسال عشر أوراق، آخذ منها خمسمئة، وبعد أسابيع قليلة يخبرني أنَّ الشاب صار بعيداً في بلاد أخرى، شبكةٌ كبيرة يشتغل فيها أبومرسال على مستويات عديدة، غرقتُ في أطرافها فتركني على الضفاف دون أن أكون في دائرة التهريب وتوصيل الشباب إلى المطار، قبل تسليمهم لمضيفة الطائرة كي تتكفل بإجلاسهم على أحد المقاعد كمسافرين عاديين.

عامان كاملان كان أبومرسال واحداً من الذين أعادوا تشكيل نظرتي لدمشق، هذه المدينة التي استطاعت اختزان رائحة كل من يمرّ فيها، غريبٌ مثلي عنها، غارقٌ فيها حدّ حمل هويّتها السرية، في ليلها كنّا نقضي الساعات نمشي حتى يطلع النهار، كلٌّ من يعبر بنا بعد سطوع الشمس نتخيّلُ أنّ المدينة تبتلعه، خلفنا كان ثقبها الأسود مباشرة، صارت خطوط شوارعها جزءاً من تكويننا، فتفاصيلُها المنسية على الجدران تحملُ أنفاس الغرباء مثلنا، هذه المدينة لا أبناء لها، كما قال مرّةً أبومرسال، كلُّهم أبناء مدينة أخرى، جاؤوا إليها بعد فطامِهم الأوّل فاكتشفوا كيف يكون مخدع المدن، أمُّ الأيتام هي، سألني مرةً عن حبّي لها، اكتفيتُ بالشرود في عمق الشارع، كانت تلك النقطة هي سقف العالم حينها.

اكتشفتُ في غرفة أبي مرسال السرية هوايته القديمة بالكتابة، جُملهُ كانت تشبه إلى حدّ كبير تلك التي قرأتُها مراراً في كتُب الأيديولوجيات المُقنَّعة، ضحكتُ وأكملتُ شربَ الشاي العراقي الثقيل المحلّى، حين باغتني بالقول:

«أتضحك، إنها خيبة السنوات التي أتت فيما بعد، خيبةٌ كانت بحجم الأحلام التي حملناها في جيلنا، انتبهتُ أنه كتبَ في أعلى الورقة التي بين أصابعي، الخيبات تأتي على مقاس الطموحات، تابعَ قائلاً وهو يحرّك السكّر بكأس صغير فرنسي الصنع، أشفقُ عليكم، على جيلكم الجديد، أنتم جيلٌ بلا أحلام، وأفرحُ لكم بذات الوقت، لأنَّ خيباتكم ستكون على قدر أحلامكم!».

سكنتني تلك المشاهد المتتابعة التي اختصرت معرفتي العميقة به خلال العامين الماضيين، كان وحيداً مثل كل أيتام الشام فيها، حين غادرها وذهب إلى بلاد بعيدة قرّر أن يحمل اسماً آخر، فاسمه الذي عُرف به وهو على عصمة الشام، لم يُرد أن يعيش به في مدينة أخرى.

لا فاصل بين الحقيقة والخيال في هذه الرواية، كلُّهم عبروا فيها، وحدي أجلس الآن لأكتب فصولها بعدما مات أو سافر أبطالها الذين عرفتهم عن قلب وقرب، منذ أشهر علِمت أن «أبومرسال» مات بمرض نقص المناعة المكتسب، حمل الفيروس من عاهرة التقى بها مصادفة في أمستردام، لا أعلم حقيقة صدق هذا الخبر من عدمه، لكني أثق بخيارات الرجل الذي أمضى لياليه في الشام وحيداً يحلم بالحب.

الموت الذي صار يلبس أقنعة مختلفة هو المدخل الأفضل لهذه الحكاية التي كنت الهامش فيها، لم أتعب لأحصل عليها، جاءتني كهدية نهاية الخدمة قبل الرحيل من هذه المدينة التي تفنّنت بقتل أبنائها، عرفتُ الأبطال وبعض دوائر معارفهم فكنتُ الوحيد الذي أحملُ القصة الكاملة رغم عدم اشتراكي بخلق فصولها، كنتُ الغائبَ الحاضر فيها كالمدينة، يحدث أحياناً أن يكون الرجل بطلاً في قصة بعباءة آخرين دون أن يعرف.

***

كثيرةٌ هي الأشياء التي أؤمن بها وكثيرةٌ أيضاً تلك التي لا أؤمن بها، الإيمانُ وحده لا يحتاجُ إلى دليل أو وراثة، يأتي من القلب والروح معاً، الروحُ الهائمةُ منذُ أن قتلَ قابيلُ هابيلَ على الأرض التي نمشي عليها كلّ يوم، هكذا الأشياء تأتي بالتخيير ضمن دائرة التسيير معاً، تطيرُ في العبث المتسلسل من نقطةٍ إلى أخرى، وحدَنا المُعلّقين على سيل الدماء الصاعد والهابط معاً نحو السماء ضد الجغرافية، هناك قوّةٌ خارقةٌ تجعل هذه المتتاليات تتدافع لتكون كلّاً واحداً في تشابكها، تفاصيل التعقيد صارت جزءاً مني منذُ أن اشتريتُ الحاسب الآلي من سوق الحرامية في دمشق، لم يكن هدفي أبداً أن أمتلك في ذلك اليوم حاسوباً، البائعُ هو من أقنعني بأخذهِ مع قائمةٍ من الأشياء التي اعتدتُ اللجوء إلى أرصفة الحرامية المؤقتة كي تكون لي.

اللصوص ليسوا دوماً أشراراً، هم في الحقيقة يقدّمون خدماتٍ للفقراء المُعدمين وللراغبين بالثراء السريع على حدّ سواء، كنتُ من الطرف الثالث بين الفقراء والأغنياء حين ذهبتُ إلى هناك تسبقني قدماي نحو قدَري الأخير، حتفُنا يسيرُ في طرقات دمشقَ إلى جوارنا منذ الجريمة الأولى، ننتبهُ إلى مرور الموت بعد حدوثِه، نصيرُ نرسمُ المواقف ونعيد إنتاجها لنقول إننا كنّا نستشعرُ بالتسيير القادم من القوة الغائبة، بغيرِ اضطراب ولا غضَب نقبل ما كانَ، وما كان ما كان ليكون لولا أننا مشينا باختياراتنا نحو النقطة المرسومة لنا، نُصدّقُ أقدارَنا ونؤمنُ بها لتكون رُكناً من حياتنا الأخرى، هي الزاوية التي ننطلق منها نحو العالم الثاني.

محمولاً على الأكتاف، مجموعاً بشظايا القنبلة التي انفجرت منذ ساعات، تُقاسمني بعض الحجارة التابوتَ الخشبي الذي وضعوني به على عجَلٍ منذ أن صار الموت مكشوف الوجود للجميع، مؤمنين وغير مؤمنين صاروا يقينين بوقوعِهِ ومعاشرته لنا، أيتامُ الشام يحملونني على الأكتاف إلى اللامكان، ميّتٌ جديد بلا هُويّة، حتى الحاسب الآلي المسروق في أصلِه صار جزءاً من ذلك الوجود الخارجي، الوجود الذي بات ينحسرُ أكثر في خطواتِه الأخيرة، بحثت لحظتها بعيوني المُسمَّرة على باب الرحمة عن بقايا العمل الصالح فلم أجد، لم أكن صالحاً، لكن لم يطلب مني أحدٌ أن أقدّم صكّ اعتراف للإله، الخطوات تتسارع نحو العدَم، الأصوات تغيب وعوالم الغيب باتت تتكشّفُ واحدةً واحدة، وحدي وبقايا الذاكرة التي نقلتُها معي لأروي لنفسي القصة الكاملة، هناك في القبر على بعد أمتار ثمّةَ فائضٌ من الوقت لأروي، ثمّةَ فائضٌ من الموت لأستعيد تفاصيل الحدث الأخير عن قصّةٍ مشيتُ على حوافّ الانفجار فيها فكنتُ ضحية الرحيل المؤجّل، الرحيلُ الذي قادتني قدمايَ نحوه، أسمعُ ارتطامَ الحجارة على ظهر التابوت، أصرخُ لكن لا أحد يريدُ أن يسمعني، أنهرُ أجزائي كي تصرخ معي، لا أحد، الترابُ ينهالُ ونور الشمس الذي كان يتسرّبُ من شقوق التابوت بدأ يغيب.

أصواتُ المعاول تتسارعُ ومع صمتِها تبدأ أقدامُ العابرين من الأيتامِ بالنقرِ على الأرضِ فوقي، صارت الأرضُ فاصلاً بيننا، أرفعُ بقاياي لألحقَ بهم فأصطدمُ بالتابوت لأحدثَ صوتاً صمَ أذني فأهبط نحو السكون، أنا وحدي هنا أفردُ سطوتي على المكان.

لم أكن أعي أنّ الموت سهلٌ إلى هذا الحد، بسيط عاديٌّ كخلع ثياب واستبدالها بأخرى، موتٌ يأتي دون مقدّمات الموت ليمنع موعداً للحب كان من المفترض أن يكون بعد انتظار، حبٌ مؤجّلُ الشهوة والكلمات واللقاء الأول، هكذا تختفي الحياة كلّها ليبقى منها فقط ما يُمكن إدخاله إلى القبر بعد رحلة جنائزية تليق بشابٌ عاش حياته على الهامش باسمين وقلبين وعقلين وسبعة أرواح، الروح السابعةُ تكسّرت في الخطوات الأخيرة نحو نوهادرا، على باب القلب وبوابة العبور نحو الكأس السابع للقاء لم يكُن، جاء الاختصار ليضع نقطة النهاية على موت مفاجئ غير متوقع الحدوث.

الليلة الأولى في المقام الجديد، أجزائي المبعثرة لا تلتئم، والروح تسعى في مناكب التابوت الذي ضمّني على عجل الدفن، ألتفت لأبحث عن رفيق في هذه المساحة الخالية، لا أتذكّرُ شيئاً من كلّ ما كان سواها، نوهادرا ترافقني في القبر وهذه الليلة الأولى معها، الليلة الأولى التي انتظرتها طويلاً في الحياة لم أجد مُتّسعاً من الوقت هناك لأحياها فداهمتني في خطوة البداية بحياةٍ جديدة لا تخضعُ لقانون اللقاء المُفترَض ولا تحدّها نقاط اشتباك الزمان مع المكان، الحقيقة الواحدة هي نوهادرا وأجزائي والتابوت.

كاتب من سوريا مقيم في بروكسل

حطام صور

رنا زكار




جوني سمعان

على خلفية مشاهد التراجيديا الإنسانية للجموع التي أخذت تجتاز الطريق إلى أوروبا سيرا على الأقدام خلال السنة المنصرمة، أتتني ذكراها؛ مشت مع أسرتها من أرمينيا إلى سوريا، تساقطوا واحدا تلو الآخر على الطريق، ووصلت وحدها طفلة إلى حماه، منذ مئة عام تقريبا، عاشت في بيت جدي كواحدة منهم، ساعدت في تربية الأطفال جيلا بعد آخر، وكنا صغارا عندما ذهبت إلى الحج وأحضرت لنا هدايا، وعندما هرمت عادت لها ذكرياتها البعيدة، صارت تحكي عن أخيها الذي احترق أثناء سيرهم، ثم موت أمها، ثم ضياع أختها عنها في حلب، ورغم بلوغها من العمر عتيا ظل المذكر والمؤنث «العربي» في لسانها مقلوبا.

«هندية بنت عبدالله الغريب» هكذا كتب على شاهدة قبرها، إلى جوار أبي وأمي وعماتي.

اليوم يعود السوريون الأرمن إلى أرمينيا طلبا لجنسية وجواز سفر، فهل سيعود الألمان السوريون يوما؟

***

سمعتم بخلدون سنجاب، الشاب السوري المعجزة المصاب بشلل كامل والذي يعيش على منفسة تعمل بالكهرباء، ورغم ذلك استطاع بلسانه فقط ان يصبح مبرمجا متقدما بالكمبيوتر وتصميم المواقع.

هناك شباب سوريون مقيمون ببريطانيا قاموا بحملة موجهة للحكومة البريطانية لاستقدام خلدون نظرا إلى الخطر الذي يحيق بحياته في لبنان بسبب سوء أوضاع إقامته هناك وانقطاع الكهرباء المستمر. وكان المطلوب من السوريين أن يوقعوا على الحملة التي بدأتها منظمة آفاز وأن تشاركوها أصدقاءكم وتدعونهم ليفعلوا مثلكم.

دقيقة من وقتك قد تغيرحياة إنسان يستحق فلا تبخل بذلك.

***

تعلمت من أبي حب الشام القديمة، كان يأخذني عصرا في كل يوم من رمضان، نتمشى ونتسلى، كنت صغيرة وأحكي كثيرا وهو يضحك، نشتري عرق السوس ونمشي، حفظتها عن غيب «زنقة زنقة.. دار دار..»، من كم يوم حاولت أن أستعيد الطقس، لم يكن نفسه، و»خربطت» بأكثر من حارة، ووجدت نفسي كالغرباء. ياه... «لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ».

***

يزدحم الناس أسفل المبنى المهترئ طلبا لجوازات سفر، تحت الشمس الحارقة، وبين الحين والآخر يصدح في الشارع صوت أنثوي من آلة داخل المبنى، ينادي صاحب الرقم السعيد إلى شباك كذا، فيرفع الناس رؤوسهم إلى أعلى، وكأن أحدا سيطل من أحد الشبابيك ليتلقى الأوراق.

وفيما يتجه المعني بالنداء إلى داخل المبنى، يحرص الشرطي على عدم دخول أحد آخر فيصرخ رافعا سلاحه «ارجعوا لورا».

وفي تواطؤ غير مقصود، تعبق رائحة الخبز من الفرن المجاور فتملأ المكان، ويخطر ببالي سؤال خرافي: هل يشم الملاك، على الكتف الأيمن، الرائحة ليسجلها في حساب الصائمين؟ أنظر في الوجوه ترى من منهم سيغرق في البحر؟ يقاطعني صوت المرحومة داليدا من راديو قريب «قمر يا بلدي».

***

منذ بضع سنوات كنا في عيادة طبيب مزدحمة جدا، زوجي منذر وأنا، وكانت هناك بنت صغيرة رفقة أمها تعاني من خلل عقلي واضح، لا أعرف لم اختارتني تلك الطفلة من بين الناس وصارت تحاكيني بصوت مرتفع، قالت لي:

- شو اسمك انتي؟

قلت لها: سميرة

- وهادا ابنك؟ أشارت إلى منذر زوجي

- نعم

- شو اسمه؟

- أحمد

نادت أمها عليها ودخلتا عند الطبيب، وعندما خرجت صاحت بنا: باي سميرة، باي يا أطفال، باي يا حلوين.

كثيرا ما أتذكرها، ويؤنبني ضميري، وأتساءل: لم أعطيتها اسما غير اسمي، هي التي اختارتني من بين الجمع؟

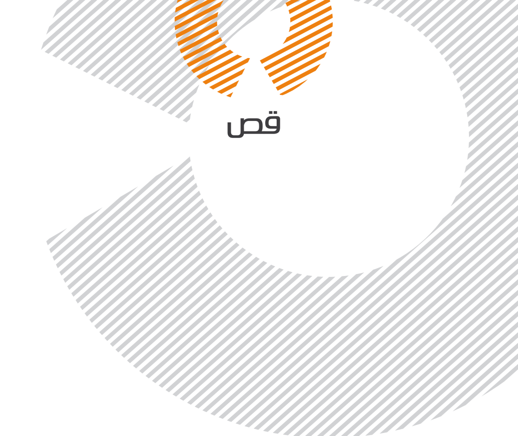
***

تعجبني مراقبة الناس بالمطار، لتنوعهم، مجموعة شابات مغادرات معا من بيروت بزي موحد هو شاش ولصاقات على الأنف، رجل يقول لزوجته «احملي جاكيتي زكاتك»، هندي يسافر حافيا ولا يبدو عليه الفقر، سيدة تلبس ثيابا صيفية جدا وخادمتها المسكينة تلبس جاكيت فرو، علب الحلويات العربية، وصور السلفي هي الوقائع المشتركة بين المسافرين.

***

وكلما قالت المغنية «سنرجع، خبّرني العندليب» أرفع الصوت، ربما لأقنع نفسي بأن هذا الكلام صحيح.

كاتبة من سوريا مقيمة في بيروت



المشهد

عباس علي عبود

«القشّاش»، صاحت امرأةٌ مبهورة الأنفاس، مشيرةً بسبابتها إلى عرض النهر. انداحت الحروف مع الموج الهيّن، وانطلقت الدهشة من بؤرة الترقّب وسط أهالي البلدة المنتشرين على الضفاف. فهل ظهر القشّاش حقيقةً أم لعلها أوهام الانتظارِ والشمس تدنو للمغيب.

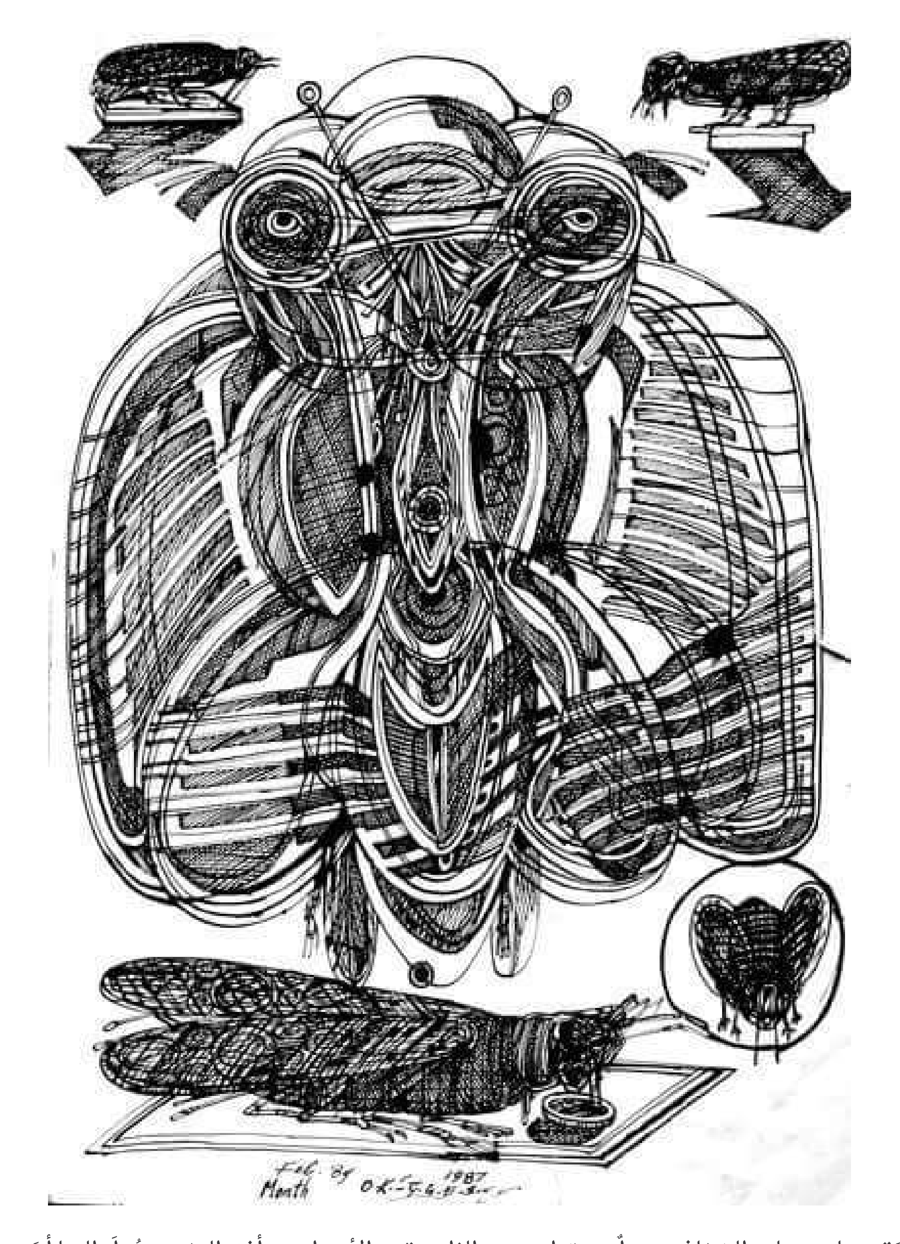
القشّاش: قدمان حافيتان وغبار ترحالٍ عنيد. يجوب الصحارى والدروب. وحيداً يواصلُ مسيرته الفذّة من أقاصي الشمال إلى الجنوب. يغزلُ الخيوطَ من لحاء أشجار المهوقني والهشاب. بلا كللٍ يغزلُ الخيوطَ وينسج.

عند الضحى كانت رائحةُ البنّ عابقةً حول نساءٍ اجتمعن لاحتساء القهوة. إحدى القادمات لتوّها قالت لهنّ «المكتوب على الجبين». تململَت عند جلوسها وهي تُحرِّر ثوبها المنسدل على كتفيها. وحين دارت فناجين القهوة وتناسلت الأخبار دبّ القلق في صدرها لكنها واصلت صمتها. وحينما فَتَرَت حميمية الجلسة وبدا أنّ النسوة سينصرفن الواحدة تلو الأخرى؛ فاضت الكلمات من صدرها وتدفقت. قالت إنّ طيوراً حلّقت ثم دارت فوق المشهد. ظلّت الطيورُ تدور في الأعالي ثم هبطت في مسارٍ لولبيٍ حتى كادت تُلامس التراب. بعضها حطّ قريباً من فتىً ظلَّ واقفاً مترقباً ينبضُ بصدرهِ نداء الهروب. وبينما الطيورُ تحلّقُ وتدور، نظر إليه القشّاش بعينين دامعتين؛ فانبلج حزنٌ ساطعٌ، انتاش خيال الفتى؛ فاقشعرَّ بَدَنهُ فأدركَ قبساً من قَدَرٍ مكتوب.

لم يصدق أحد، وربّما لن يصدق أحد، أنّ القشّاش يمكن أنْ يتوقّف عن المسير. لا أحد يدري متى بدأ مسيرته الفذّة. يمشي على الدوام كأنّه على صراط الحنين! قيل إنّهُ خرج من مغارةٍ في جبل البركل بعدما اعتكف بداخلها لسنوات. ومنذ خروجه لم يتوقّف عن المسير وربّما لن يتوقّف! غاصت قدماه في مستنقعات المجاهل الاستوائية، لكنه بلا كللٍ واصل المسير. وفي الصحراء الكبرى، غير بعيد عن مجرى النيل، ضربت قدماه في متاهة الرمال الشاسعة. وشُوهِد مرةً على قمة جبل مرّة، ثم انحدر إلى المراعي الخصيبة. فمتى عَبَرَ أمام البلدة الوادعة على النيل الأبيض؟ وهل جاءها على قدرٍ أم أنها المصادفة. يسير شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً. قريباً من الضفاف ومتوغلاً في كبد الصحارى وأعماق الغابات، يمشّط التلال والوديان؛ لينسج وطناً فريداً، وقِبلةً للناس أجمعين. القشّاش تصدّر حديث المجالس في البوادي والمدن. وعندما احتدمت عتمة الأيام، وهوّم فوقهم ليلُ المسغبة البهيم، قال بعضهم «إنّه سيكمل ترحاله العنيد بعد أنْ يغزل من مياه النهر خيوطاً فضيةً؛ ليطرز بها نسيجه الفريد. وعلى الضفاف، تداول الفتيان حكاية الفاتنة التي أغوته، أو كادت، حين رقَّ قلبه إليها، وربّما اجتاحته رغبةٌ عارمةٌ ليلامس جسدها الناهض فوق صخرة الغواية.. وقالوا إنّ الفاتنة حاولت مراراً. حدسُ ما ظلّ يقود خطاها إلى الخلاء شرقي البلدة. وفي المرة الأخيرة استطاعت أن تدركه. فهل انصاع لغوايتها؟ ولماذا القشّاش؟ هل تبحثُ عن بعلٍ خارقٍ لتحبل منه؟ أم لعلها تتحدى نفسها بعدما أغوت الجميع من حولها ولم يعد يثير اهتمامها إلا هذا الرجل الذي لا يتوقّف عن المسير! وقيل إنّ الفتى كان عشيقها الأخير. وإنّ رفيقه راودها فصدته فأضمر الشر. فهل لمع النصلُ تحت ضوء النجيمات البعيدة؟

ظلَّ الفتى ورفيقه يتسامران على رصيف النهر حتى انتصف الليل، ثم انحدرا إلى زورقٍ يرسو على الضفة المنبسطة. تحت أستار الظلام ركبا الزورق. فهل دفعهما حب المغامرة للخروج في نزهةٍ ليلية وهل كانت المرة الأولى؟ لربّما تبرعمت الفكرة ثم تفتّقت في ذهن الرفيق فأخفى تحت ثيابه الخنجر؛ الذي سال منه الدم في عرض النهر، بينما النجومُ تلمعُ في عتمةِ ليلٍ بهيم! وقيل إنّ سمّاكاً أنقذ الرفيق بعدما انقلب الزورق. جذبه من كفه التي كانت بارزة فوق سطح الماء قبيل أن تلتهمه الأعماق. فهل كانت على جسده أو ملابسه، بقعٌ من دم الضحية، أمْ أنّ مياه النهر غسلتها، بينما غاص الخنجر إلى الأعماق. أم لعله انغرز في صدر الفتى، الذي عاش لحظاتٍ كانت تبدو هانئة في أحضان الفاتنة التي ترصّدت خطاه. في أحد الأزقة بادرته بالسلام، ثمّ طلبت منه أن يشتري لها ملحاً من الدكان. وحين عاد لم يجدها ولما طال انتظاره طرق باب بيتها وانتظر؛ ثم دفع الباب الموارب ومشى داخل الحوش مصفقاً بيديه. حيرةٌ مباغتةٌ شكّتْ صدره. وقبل أنْ يفيق من حيرته تقدمت إليه في ثوبٍ منزلي شفاف فاستحالت حيرته إلى خوفٍ مبهم. ارتبكت خطواته حين دعته إلى حجرتها. تردّد وتحت جلده دبيب التوجّس. انغمس الفتى في صدر الفاتنة لكنها هجرته بعد حين وصمّمت أنْ تنال من القشّاش؛ كتتويجٍ لمسيرتها في الغواية. فهل انصاع لها وتوقّف عن المسير؟

صَمَتَ القشّاش ونطقت عيناه والبلاد التي دوّختها الدماء والأشلاء؛ تتفكّك. يجوبها المحاربون وقطّاع الطرق وميليشيات الحكومة. ثمّة رجاء، وعلى الضفافِ عويلٌ متقطع. عند الظهيرة انحدروا إلى النهر، تهوّم فوقهم أشباح الحيرة وترنو عيونهم إلى أفقٍ مجهول. ظلّت أقدامهم تمشّط الضفاف وزوارقهم تشقُّ الأمواج بينما الأسئلةُ حبلى بالظنون، كيف ومتى، وهل غَرِقَ الفتى؟



عمر خيري

«القشّاش»، صاحت المرأة للمرة الثانية؛ فالتفتت بعضهم ناحية الصوت. تراكضت الأقدام، واشرأبت الأعناق: أين هو، هل ظهر ثم اختفى، أم لعلها صرخةٌ كاذبة؟ سرت الحيرة بين الجموع، وانتاش صدورهم ملل الانتظار، بينما المرأة تغالب الدموع، تتواتر بخيالها الأشباح والأطياف. وعند أقاصي الهذيان رأت شمساً باهرةً تغمز سطح النهر. رويداً ثابت إلى وعيها فعادت إلى التجول وسط الجموع المنتشرة على الضفة، في انتظار ظهور جثة الغريق، من أعماق المياه، بعد يومين وليلتين من الغياب. وعندما دنت شمس الأصيل من أفق المغيب خُيِّلَ إليها أنّ رجلاً يمشي فوق الماء. زرّت عينيها ثم أغمضتهما. وحين فتحتهما كان الرجل يواصل سيره فوق سطح الماء. مبهورة الأنفاس صاحت «انظروا إنّه يمشي فوق الماء». التفت بعضهم إليها بينما مدّ آخرون أبصارهم إلى أفقٍ بعيد.

- إنّه يمشي فوق الماء.
- وكيف هذا؟
- ألا تبصرون؟ إنّه يمشي فوق الماء.
- مَن هو؟

ترّددت المرأة. تهدّج صدرها فتسارعت أنفاسها ونطقت «القشّاش».

كاتب من السودان

اليابان أسطورة وحقيقة

محمد غنيم

اخترت العنوان ليكون معبرًا عما أردته وقصدته؛ فكانت اليابان الحقيقة كما رأيتها وعشتها وعايشتها وخبرتها من خلال إقامتي فيها وتفاصيل حياتي اليومية كما أحياها بلا رتوش.
الحقيقة والحقائق كما هي على أرض الواقع بعيدًا عن الفكرة الراسخة في الذهن العربي إجمالًا -والمصري خاصة- عن اليابان والتي عنيت بها الأسطورة في العنوان؛ الأسطورة التي تسكن مخيلتنا ولا علاقة لها بالواقع والتي هي إلى الخيال أقرب، فاليابان وكل ما هو ياباني يرتبط في أذهاننا بالكمال أو كامل الأوصاف، وكامل الأوصاف لا يوجد إلا في أغنية عبدالحليم حافظ وليس في اليابان أو أيّ مكان آخر!

لا أحب الاستطلاعات المصورة التي تبدو مثل «كارت البوستال» السياحي والتي أراها لا تصلح إلا لأغراض الدعاية السياحية وليست للقارئ الذي يودّ أن يعرف تفاصيل الحياة اليومية اليابانية والحياة الاجتماعية هناك وكيف يعيش اليابانيون واليابانيات وعن حياتهم وتفاصيلها وعن عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم ومأكلهم ومشربهم، عن كل شيء وأيّ شيء في اليابان، عن اليابان ذلك المجهول.

ومن هنا نبدأ كما كتب يومًا المفكر خالد محمد خالد، أو من هنا نعلم كما رد عليه الداعية الشيخ محمد الغزالي، أو كلاهما معًا وقد أصبحا من بعد صديقين حميمين!

أقيم في طوكيو العاصمة وهي أغلى العواصم في العالم وفق آخر دراسة نشرت فقد استعادت اللقب بعد أن انتزعته منها بعض عواصم أخرى بعض الوقت وها قد عاد إليها من جديد، عاد وليس كل العود أحمدا!

طوكيو مدينة مزدحمة دومًا وإيقاع الحياة فيها سريع والنّاس في عجلة من أمرهم تراهم يهرولون في الصباح إلى أعمالهم حتى لتظن أن اليابانيين واليابانيات جميعهم قد تأخروا في الاستيقاظ لذا يهرولون محاولين اللحاق بأعمالهم والملابس الرسمية هي الطابع العام للموظف أو الموظفة اليابانية، لا فرق بين من يعمل بالقطاع العام أو المؤسسات الحكومية ومن يعمل بالقطاع الخاص، وهم يحرصون على الرسميات ويراعونها في كل أعمالهم، واليابانيون واليابانيات يدعو كل منهم الآخر باسم عائلته وليس بالاسم الأول رجلًا كان أو امرأة، لا أحد يستخدم الاسم الأول لزميله أو زميلته في التخاطب والتعامل والمعاملات في أعمالهم. ويسبق اسم العائلة كلمة «سن» وتعني باليابانية سيد أو سيدة وفق المنادى، ولا أحد يدعو الآخر باسم عائلته من دون لقب سيد أو سيدة إلا فيما ندر، وقد يكون ذلك بين الشباب من العاملين والذين تجمعهم علاقات صداقة، ولكن يظل اسم العائلة وليس الاسم الأول هو المستخدم، واليابانيون رجالًا ونساء مهما بلغت العلاقات من ودية وأريَحيَة لايتزاورون فيما بينهم في المنازل كما يحدث في بلداننا مهما طال أمد العلاقة داخل العمل ولو امتدت لسنين طويلة، العمل يبقى عملًا والعلاقة بداخله علاقة عمل حتى لو نمت إلى صداقة، هكذا هم وهكذا عاداتهم، ولا أحد يحاول الخروج عنها أو التمرد عليها أو تغييرها حتى جيل الشباب يسير بصورة ميكانيكية وفق العادات والتقاليد التي لها قوة القانون وصرامته، قوانين ليست بالمكتوبة ولكنها متعارف عليها.

والياباني أو اليابانية لا يشغل باله ولا ينشغل بالسؤال حول جدوى ومنطقية ما قد يبدو غير منطقي أو غير ذي جدوى بالنسبة إلينا، ذلك لا يعنيه بكل بساطة، فقط يسير وفق اللوائح والقوانين المعمول بها وحرفيًا ولا مجال للنقاش أو السؤال فيها وكأنها مقدسات، إنها العقلية العسكرية اليابانية العتيدة وإن لم تأخذ الشكل العسكري ولكنك ستلمحها دومًا وفي كل مناحي حياتهم ولن تفهم إن حاولت أن تفهم، ولا يعنيهم أن تفهم ولا يعنيهم حتى أن يفهموا هم!

ونصيحتي الذهبية لكل من يزور اليابان أو يرغب في الإقامة فيها لأيّ غرض كان، للعمل أو للدراسة أو لأي سبب آخر، أن يتقبل اللوائح والقوانين اليابانية في كل مكان يذهب إليه ولا يحاول أن يناقشها أو يجادلهم فيها، لأنك إن فعلت فكل ما ستفعله مضيعة للوقت ولن تفهمهم ولن يفهموك ولن يغير كل حديثك شيئًا، والشيء الوحيد الذي أضمنه لك إن فعلت هو ارتفاع ضغط الدم لديك أو السكر أحدهما أو كلاهما، وما عدا ذلك ستخرج بخفّي حنين.


حسين جمعان

وإذا أردت أن أصف لك الأمر في كلمتين حتى تعيه كما ينبغي سأقول لك إنها ردود «الأنسر ماشين»! فهل إذا أتاك صوت الأنسر ماشين عندما تحاول الاتصال بأحدهم، هل تحاول الحديث مع الأنسر ماشين؟ الاجابة لا بالطبع، وكذلك الحال مع الموظف أو الموظفة اليابانية في كل مكان، «صحراء كان أو بستانا» كما تغني نجاة الصغيرة!

ولكي أدلل على قولي ومن واقع تجربتي واسأل مجربا ولا تسأل طبيبًا: أردت في بداية عهدي باليابان أن أفتح حسابًا مصرفيًا في أحد البنوك، وهو كما ترى وكما هو متعارف عليه في كل الدول إجراء بسيط لا يستغرق منك سوى بضع دقائق لا أكثر تكون خلالها على الرحب والسعة من الجميع في البنك، هذا ما أعرفه أنا وإياكم ومتعارف عليه، ولكن الأمر ليس كذلك في اليابان! ستسألني كيف؟ سأقول لك أول شرط تعجيزي يقابلك إنه ينبغي مرور ستة أشهر على إقامتك في اليابان كحد أدنى لكي تتمكن من فتح حساب بنكي. تستوي في ذلك كل البنوك ولا استثناء فيها، الأمر سيصيبك بالدهشة والغضب وستتساءل ما علاقة أن يكون قد مضى على إقامتي ستة أشهر بفتح حساب بنكي؟ وستأتيك إجابة الموظفة كالأنسر ماشين «نعتذر لك لا يمكننا ذلك، اللوائح لا تسمح»! ستسأل أنت وماذا أفعل إذا كان علي أن أقوم بمعاملة بنكية أحتاجها؟ مرة أخرى ستأتيك إجابة الموظفة كالأنسر ماشين «نعتذر لك، ونحن نتفهم ما تقول ولكن ليس بوسعنا عمل شيء» لتسأل مرة أخرى إن كان هنالك حل ولو في مكان آخر؟ وسيأتيك الجواب من الموظفة كالأنسر ماشين «نعتذر لك ليس لدينا علم بحلول أخرى في أماكن أخرى ولكن بوسعك أن تسأل في أماكن أخرى»، وكما رأيت وسمعت هذا ما جرى لي شخصيًا وقاربت معه على الانفجار من الغيظ، ولا يعنيهم أن تفهم أو لا تفهم، وهل يعني الأنسر ماشين أن تفهم أو لا تفهم!

لا نتحدث الإنكليزية

هذا فضلًا عن شروط أخرى تبدو عبثية مثل أن يشترط البنك أن تتحدث اليابانية! ستسأل وماذا لو كنت لا أتحدثها؟ يجب عليك اصطحاب مترجم معك ليقوم بالترجمة، وقد تقول «وما حاجتي لمترجم ألا تتحدثون الإنكليزية في اليابان؟» والإجابة « نأسف؛ لا نتحدث الإنكليزية».

لا تحاول أن تسأل كيف ذلك وأنت في اليابان، حاولت أنا قبلك والإجابة «نأسف لا نتحدث الإنكليزية!»، وهناك بنوك ترفض حتى أن تصطحب مترجمًا وتشترط عليك شخصيًا أن تتحدث اليابانية. خرجت من البنك أضرب كفًا بكف وأقول «يا مثبت العقل والدين يا رب» والنّاس تختلس النظرات إليّ وقد ظنوا بي الجنون وأنا أنظر لهم وأقول «لكم حق أن تظنوا أنني مجنون، ده أنتو تجننوا اللي عمره ما اتجنّن»، ومضيت أكلم نفسي لا ألوي على شيء.

الأسئلة الممنوعة

كان ذلك ما حدث لي شخصيًا وأردت أن أوضح للقارئ العزيز كيف أن فهمك لطبيعة اليابانيين سيساعدك كثيرًا في كل مناحي حياتك إن فكرت في الإقامة فيها يومًا أو

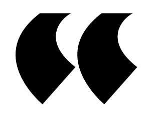
حتى زيارتها.

واليابان تتميز بالنظام والنظافة والالتزام والانضباط والدقة في كل ما يقومون به من أعمال، هكذا هم في كل شؤون حياتهم، واليابانيون مجاملون بطبيعتهم لدرجة النفاق أحيانًا، لذا أنصحك ألاّ تأخذ رأي ياباني أو يابانية في أي شيء يخصك، لأنك لن تسمع إلا كلمات إعجاب أو مديح أو ثناء أو تقريظ، حتى لو لم يكن رأيه كذلك -وفي الغالب رأيه لن يكون كذلك- ولكنه أبدًا لن يقول لك رأيه كما يعتقده هو. وهم يعتبرون ذلك لباقة ولياقة وكياسة وحسن ذوق ولا يعدونه نفاقًا أو كذبًا، بل مجاملة لك. لذا فإنهم يتحسسون من أي نقد يوجه إليهم، ولا تحاول أن تفعل لأن الياباني أو اليابانية لن يتقبل أو تتقبل ذلك! وخذ عندك مثالًا: حدث أن صببت بعض عصير المانجو لإحدى زميلاتي في العمل أثناء الراحة كنوع من الضيافة والمجاملة كعادتنا، أخذته وشكرتني وتناولت بعضًا منه وأثنت على طيب طعمه وقالت: إنه طيب ولذيذ. وانشغلت بأداء بعض الأعمال ووضعت الكوب بجانبها. لاحظت أنها لم تتناول منه شيئًا بعدها، فظننت أن الأمر يرجع لانشغالها وأنها ستتناوله حينما تفرغ من أعمالها، وتصادف أن كنت أنظر ناحيتها عندما قامت إلى حوض الغسل داخل غرفة العاملين التي نجلس بها ولم تلاحظ أنني أرقبها، وشاهدتها تسكب العصير وتقوم بغسل الكوب وتعود لمكانها دون أن تفطن إلى أنني رأيت ما فعلت. وأخذت تشكرني مرة أخرى على العصير اللذيذ الذي أعطيتها إياه! وما لم تقله لي وقتها -وعلمته فيما بعد- أن اليابانيين لا يحبون العصائر المركزة والمحلاة، ولكنهم يستحون أن يقولوا لك ذلك ويعتبرون ذلك ليس من الذوق، لذا يتقبلون منك ما تعطيهم شاكرين لك ولكنهم لن يتناولوه، وعرفت وقتها السر وراء رخص ثمن العصير الذي ابتعته ولم أفهم وقتها السبب رغم أن العصير كان مستوردا من باكستان وهو ما يستوجب ارتفاع ثمنه لا رخصه.

ولكن إذا عرف السبب بطل العجب، فالباكستانيون كحالنا يحبون العصائر المركزة والمحلاة بعكس اليابانيين وهو ما لم يفطن إليه من قام باستيراده. فلم يرغبه اليابانيون وركد في الأسواق فاضطروا إلى بيعه بثمن بخس وكانوا فيه من الزاهدين، واشتريته أنا وظننت نفسي وقتها أنني أتيت بما لم يأتِ به الأولون! وحقا أتيت بما لم يأتِ به الأولون والذين هم اليابانيون فعزفوا هم عنه ورغبته أنا وتعلمت مما جرى أنه ينبغي عليّ أن أتأكد أولًا من تقبل اليابانيين لما أقدمه لهم وهل يحبونه أم لا حتى لا يتكرر ما حدث.




في اليابان لا يهم إن كنت خبيرًا أو خفيرًا، كبيرًا أو صغيرًا، امرأة أو رجلًا أو بين هذا وذاك، لا يهم طالما أنت زبون والزبون دومًا على حق وإن كان على باطل وأنت تعرف



والياباني بطبعه لا يحب المغامرة ولا التجريب ويحرص على كل ما هو مضمون ومؤكد، لذا فهم يفضلون وضع مدخراتهم في البنوك التي تكاد تقترب فوائدها من الصفر، على أن يقوموا بالمضاربة أو شراء أسهم أو سندات أو القيام بتجارة، والبنوك تعلم ذلك وتسير في نفس الاتجاه، والبنوك اليابانية ليست كالأوروبية أو الأميركية وإنما كل ما تقدمه من خدمات مالية صارمة ومقننة حتى لو طلبت أنت وعلى مسؤوليتك وأبديت استعدادا لتوقيع إقرار بتحملك المسؤولية، ستأتيك الإجابة الأنسر ماشين «نأسف ليس مسموحًا حتى لو على مسؤوليتك»، والبنوك لا يعنيها أن تكون مليونيرا أو مجرد مواطن عادي، لا تهتم أن تكسبك وتستثنيك من بعض الروتين واللوائح، لن يحدث ولا يعنيهم أن تذهب بملايينك إلى بنك آخر أو تذهب للجحيم أو أيهما أقرب إليك، لا فرق!

الزبون دوما على حق

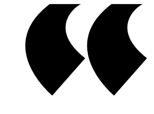
الزبون في كل مكان في اليابان مقدس تقابله الانحناءات والترحيب الشديد والمستمر من الجميع إلى درجة تشعر معها أنهم أخطأوا بشأنك معتقدين أنك رئيس جمهوريتك لأن معاملة كالتي تحظى بها لا تقدم في بلادنا إلا لرئيس الجمهورية أو لوزير وذلك أضعف الإيمان! أما في اليابان فلا يهم إن كنت خبيرًا أو خفيرًا، كبيرًا أو صغيرًا، امرأة أو رجلًا أو بين هذا وذاك، لا يهم طالما أنت زبون والزبون دومًا على حق وإن كان على باطل وأنت تعرف أنه باطل وهو يعرف لكن العمل لا يعرف ذلك، لذا فالزبون مقدس والمقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه! وسأضرب مثالًا عشته وعايشته بنفسي: كنت أعمل في شركة كبرى للملابس الجاهزة وهي أكبر شركة للملابس الجاهزة في اليابان وآسيا والرابعة عالميًا، ولها ما يزيد عن ثمانمئة فرع في اليابان فقط وصاحبها من أغنى رجال الأعمال في اليابان، لاحظت في أول عملي بها الحرص الشديد من الجميع من المدير لأحدث موظف على الزبون والترحيب المستمر به وإطرائه بأحلى العبارات أينما ذهب أو ذهبت داخل المتجر المكون من ثلاثة طوابق، وطلباته أوامر مقدسة لا تقبل إلا الإجابة بنعم وحاضر وبكل سرور، وخلال ثوان معدودة يأتيه ما طلب وأحيانا كان مدير الفرع ينزل بنفسه كأي موظف ليلبي طلبًا لزبون. وعند استخدامنا للسلالم صعودًا أو هبوطًا يجب على الموظفين أن يلتزموا الجانب الأيسر من السلم التصاقا بالحائط أو دخولا فيه إن أمكن، وإفساح أكبر قدر من مساحة السلم للزبون مع الترديد الآلي لعبارات الترحيب والثناء والشكر له لتشريفه متجرنا بطلعته البهية مع ابتسامة مشرقة لا تعرف الغروب.

وقد حدث مرة أن اصطحبني المدير ليطلعني على بعض الأمور في أحد الأقسام ونزلنا على الدرج ففوجئت بالمدير يلتزم الجانب الأيسر من الدرج ويكاد يلتصق بالحائط وأنا من خلفه لا أفهم ما يقوم به وإن حاولت تقليده فيما يفعل من باب «إنا وجدنا آباءنا على ذلك» وإن لم أفهم سبب هذا الترحيب المتطرف، والزبون لا يلتفت إلينا وهو صاعد ليس يعنيه ما تقول وتفعل. ولكني عرفت بعد ذلك من زميل ياباني أنه على الرغم من أن الزبون لا يعنيه ما نفعله ولا يلتفت في أحايين كثيرة إلى ما نقول إلا أنه لا يتسامح إن أغفلوا هذه الطقوس المتعارف عليها في كل مكان في اليابان تحمل أنت فيه صفة الزبون! حتى البنوك تجد أن الموظف (أو الموظفة) إذا قابلك حتى ولو لم تكن معاملتك البنكية معه، يجب عليه الترحيب بك أينما التقاك، وأنت لا تفهم ما الداعي إلى هذا العرس الذي يقيمونه للزبون أينما يكون ولماذا لا يكتفون بالترحيب الطبيعي والخدمة المتعارف على تقديمها وجودتها وتجويدها ولا داعي لهذه الأعراس والليالي الملاح التي تصيبك بالصداع والسأم وتود أن تصرخ فيهم في أحايين كثيرة «كفى، راسنا وجعنا» ولكن هكذا اليابانيون وعليك أن تقبل ذلك ولا تسأل أو تعلق أو تناقش؛ لا جدوى. وما يصيبك بالدهشة أن الأجيال الجديدة والشباب من الجنسين أكثر التصاقًا باللوائح من الكبار أنفسهم، وتتساءل في عجب «أليس الشباب المنوط به التغيير والتجديد، وكيف يحدث العكس؟» الشباب لا يحاولون السؤال أو التغيير ولا يفكرون فيه، وإن فكر فلن يُقدم على التغيير رافعًا شعار «للتفكير فقط» كما «للعرض فقط» ولا عزاء للشباب!

كنت بحكم اختلافي الثقافي أسأل وأحاول فهم ما يجري ولماذا؟ ويأتيني الرد «لا أعرف، أو لا يعنيني، أو نحن لا نسأل وليس من عادتنا». فأجيب مغتاظًا ومندهشا أحيانًا «ولماذا لا تسأل؟ وهل هي أسرار عسكرية؟» فيجيبك وأحر ما عندك أبرد ما عنده «إنها عاداتنا، لا نسأل، ولست مستعدًا أن أفعل»، نعتبره ليس من الأدب أن نفعل»، عندها يمكنك أن تتحسس جيبك بحثًا عن أدوية الضغط والسكر والكوليسترول والمرارة لتتناولها جميعا قبل أن تداهمك الأعراض!



أسأل وأحاول فهم ما يجري ولماذا؟ ويأتيني الرد «لا أعرف، أو لا يعنيني، أو نحن لا نسأل وليس من عادتنا». فأجيب مغتاظًا ومندهشا أحيانًا «ولماذا لا تسأل؟ وهل هي أسرار عسكرية؟»



كنت مشغولًا بأداء بعض الأعمال حين اقترب مني المدير وقال لي «يا سيد غنيم أريدك أن تقوم بالتخلص من هذه الجوارب»، فاعتقدت أنه يقصد أن نعيد تدويرها بإرسالها إلى بلاد أخرى كأفريقيا كما تفعل الشركة يوميًا إذ تضع صناديق فارغة كبيرة أمام المحل مكتوب عليها إعادة التدوير، يقوم الزبائن أو العابرون باصطحاب الملابس المستعملة التي لديهم في بيوتهم ويرغبون في التخلص منها أو التبرع بها، فيحضرونها إلى المتجر ويضعونها في أكياس وتوضع الأكياس في الصناديق، بعض الزبائن أو المتبرعين يقومون بغسلها وكيها قبل التبرع بها والبعض الآخر مجرد غسلها، وقلة يحضرونها كما هي حتى لو كانت متسخة. تقوم الشركة بتفريغ الصناديق في كراتين يتم إحكام لصقها وإغلاقها وترسل إلى مخازن مخصصة ليتم بعد ذلك شحنها إلى وجهتها. ظننت أن المدير يريدني أن أفعل ذلك ولكنه قال لي «لا، أريدك أن تمزقها أولًا بحيث لا تصلح للاستعمال ثم تلقي بها في النفايات وليس لإعادة التدوير» وكان الذي يطلب مني المدير تمزيقه عبارة عن جوارب جديدة تمامًا ذات ألوان وجودة عالية ولم أر فيها أيّ عيب، ولم أفهم السبب الذي يدعوني لفعل ذلك؛ فسألت أحد زملائي بعد أن شرحت له مطلب المدير فاندهش وأجابني بأنه لا يعلم السبب وأنه مندهش أيضًا ولكنه لا يسأل ولا يعنيه! واضطررت وأنا أشعر بالأسف والحزن على الكميات الكبيرة من الجوارب الجديدة والجميلة وغالية الثمن وعالية الجودة، وأنا أتساءل إذا كان لا بد من التخلص منها فلماذا لا يرسلونها كما هي لبلاد سيسرّ بها الناس أكثر من الملابس القديمة والمستعملة التي يرسلونها إليهم، أو يبيعونها بثمن زهيد أو منحها لمن يرغب من العاملين. لكن الأوامر كانت واضحة وصارمة ولا تقبل النقاش ولا السؤال «افعل ما تؤمر به» وفعلت ولم أفهم حتى الآن، ولا يهم أحدًا أن أفهم أو لا أفهم. وهكذا اليابانيون وعليك أن تتعلم كيف تتقبلهم إن أنت أردت أن تعيش بين ظهرانيهم، والمثل يقول «اللي عاجبه الكحل يتكحل واللي مش عاجبه يترحل». ولم يعجبني الكحل ولكني لم أرغب في أن أرحل أيضًا.

كاتب من مصر مقيم في اليابان

الساعة الحجرية

آلاء أبو الشملات

جسر على نهر صغير

ولدنا غرباء
وها نحن في منفى
بلا حنين
لن نتظاهرَ بالوحدة أو الحب
لن نستعيرَ ذاكراتِ السنونو
وحيثُ لا وطن؛
ما همنا أن ننتحب.

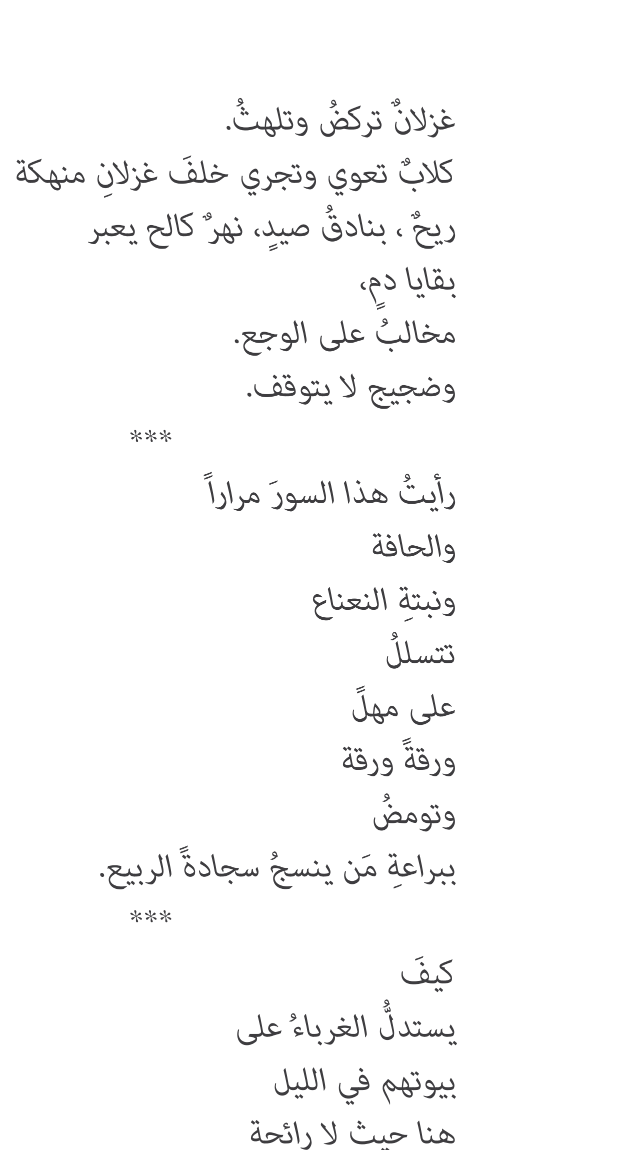
***

كيفَ أقولُ
إنّ هذا الوقتَ ثقيل
دون أن أبدو ساعةً رمليّةً متحجّرة؟
كيفَ تضربُ كلُّ هذي الريحُ حنجرتي
دون أن أعوي كذئبٍ وحيد.

***

أفكّرُ بذاكرةِ المطبعة
حيث مرّتْ كلُّ تلكَ الحروف والكلمات
أفكّر بيأسِ المكتبة
وقد اندسَّ فيها كتابٌ رديءٌ
أفكّر بالقارئ ورأسه المحشوة بالكلمات
ثم عليَّ، أخيراً، أن أفكرَ بكلّ ذلك البياضِ
وبالسلام على روحِ الورق.

***



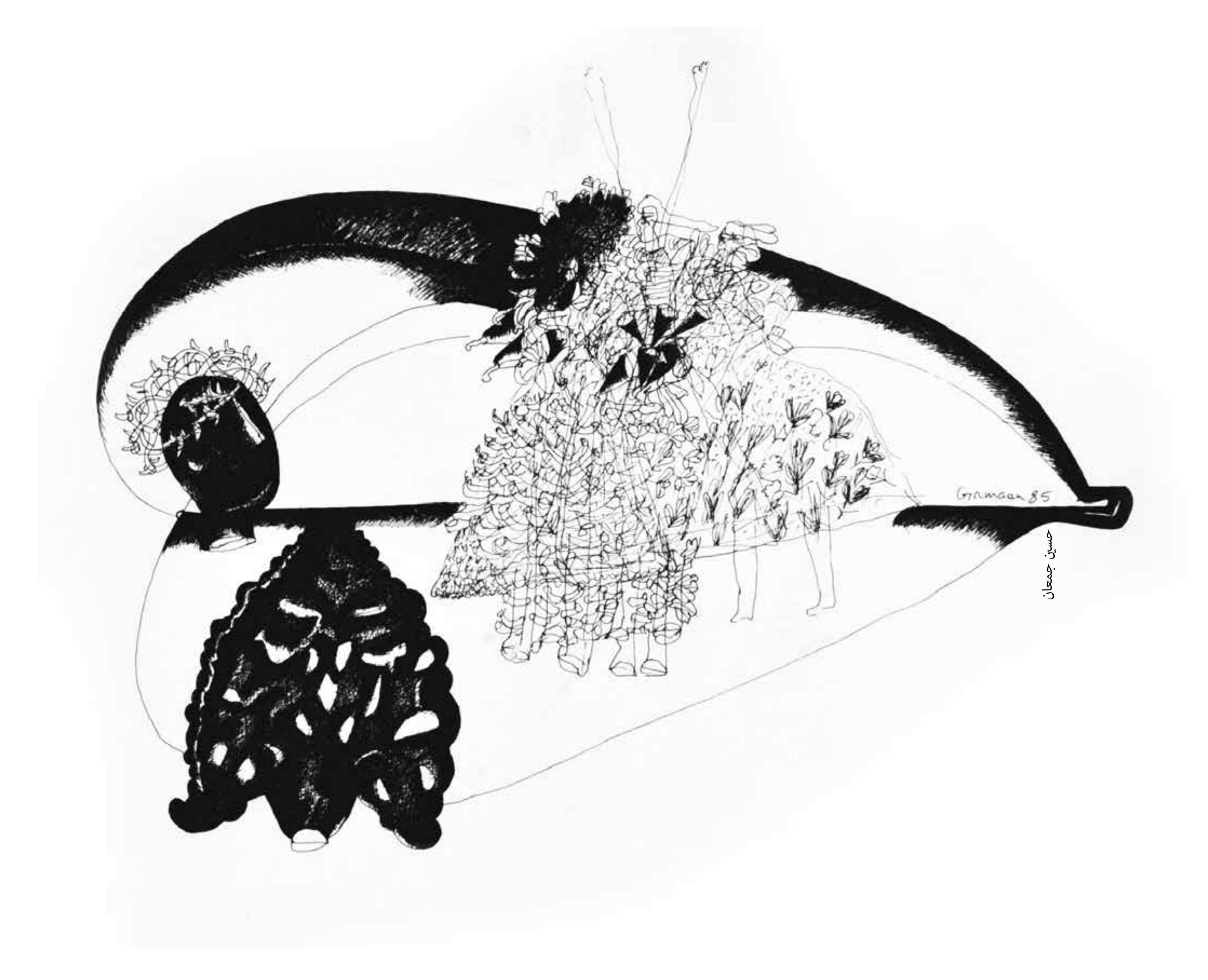
غزلانٌ تركضُ وتلهثُ.
كلابٌ تعوي وتجري خلفَ غزلانِ منهكة
ريحٌ ، بنادقُ صيدٍ، نهرٌ كالح يعبر
بقايا دمٍ،
مخالبُ على الوجع.
وضجيج لا يتوقف.

***

رأيتُ هذا السورَ مراراً
والحافة
ونبتةِ النعناع
تتسللُ
على مهلً
ورقةً ورقة
وتومضُ
ببراعةِ مَن ينسجُ سجادةً الربيع.

***

كيفَ
يستدلُّ الغرباءُ على
بيوتهم في الليل
هنا حيث لا رائحة
ولا ذكريات،
لا صدى ضحكات لـ«صبيان الحارة»
ولا ثرثرة بنات عند الأبواب
لا نباح كلب في جوار
ولا صوت زيز أو بصيص ضوء…



الغرباء..لا يعودون إلى بيوت
الغرباء
غرباء أبديون.

***

أدركَتْني حربكُمْ
وأنا أهمُّ بالقفزِ.

***

سرقتُكَ من حكاياتِ «ربّوعة الحبّار»
كنتُ الجنيةَ
التي تتلصّصُ
على طفولتكَ
وسرقتك.

***

دائماً
نصلُ متأخرينَ
حتى لو أسرعنا
سنصلُ متأخرين
ليسَ الزّحامُ
ولا البعدُ
ولا جرسُ المنبّه
ولا حتى عطل السيارة
إنها أيّامنا التي تتفرّط
وتهوي
كخرز الإله.



***

كل يومٍ على هذا الجسر
مع الضباب
تعبرني نوارسُ غريبة
لأجهل نفسي أكثر
يعبرني القطارُ وأشتهي طريقاً أطول.
ونهرٌ صغيرٌ صغيرٌ يعبرُ
كشريان؛
أخاله يكبرُ يوما بعد يوم
نهر
يبتلعُ الحصى والموسيقى وضجيج الأصوات.
وضباب
على الجسر
كل يوم
لأعبر.

أنا امرأتك أيها الرقص

كمغنيةٍ جميلةٍ غنّيتُكَ
ولفظتك كعجوزٍ مصابةٍ بالزهايمر.

***

لسنواتِ سهرتُ
أنتظرَكَ
وحين أتيتَ لم يكن النومُ في مفكرتي
والحزنُ الأطفال والشام والغبارُ والصدى والأضواءُ
لم يكونوا في كتابي.
وحدهُ الرقصُ
يكتسيني.

***

بابُنا الوحيدُ كان يستجدي كفّكَ.

***

كنتُ أريدُ أن أتغزّل بكَ كما يفعلُ العشاقُ مع عشيقاتهم؛
أردتُ أن أكتبَ لك شعراً أيضا
وأَمنحَك في الصفحةِ الأولى
إهدائي
وأصرخَ باسمكَ الحرام.

***

لماذا أبكي؟
أليسَ ظلكَ كل ما طاردت في كوابيسي؟

***

أحبكَ
كما دمشق
أحبك في دمشق أو لنقل أحبُّ فيك دمشق
امنحني فرحَ المدنِ البحريةِ
قل لي: لا
اكتبني قصيدةً بجُمَلٍ غير مترابطةٍ
كما أفعل الآن.

ليتني كنت مغنّية

ربما..
لو طيَّرتُ فراشاتٍ
في ثوبِ الندم
وزهوراً ذهبيّةً
ربما
ضاقت هذه الصّرخةُ قليلاً.

***

نتمرّنُ على القسوةِ
نُخفي حُزنَ الغربةِ في جيبٍ مثقوبة
نمدُّ أيدينا للهواء
ونصرخُ في العتمة:
لا شبابيكَ للغيومِ الشاردة
ولا أرصفة للأقدامِ المترددة
حتى شُجيرات الحبقِ انطفأت كما تنطفئ النجوم
وتتساقط في ظلام العالم.

***

في المنام
لا تذهب إلى الحافة
أيامُكَ ستهوي
أمامك
تتفرط
وتتساقط
كحبات الخرز

***

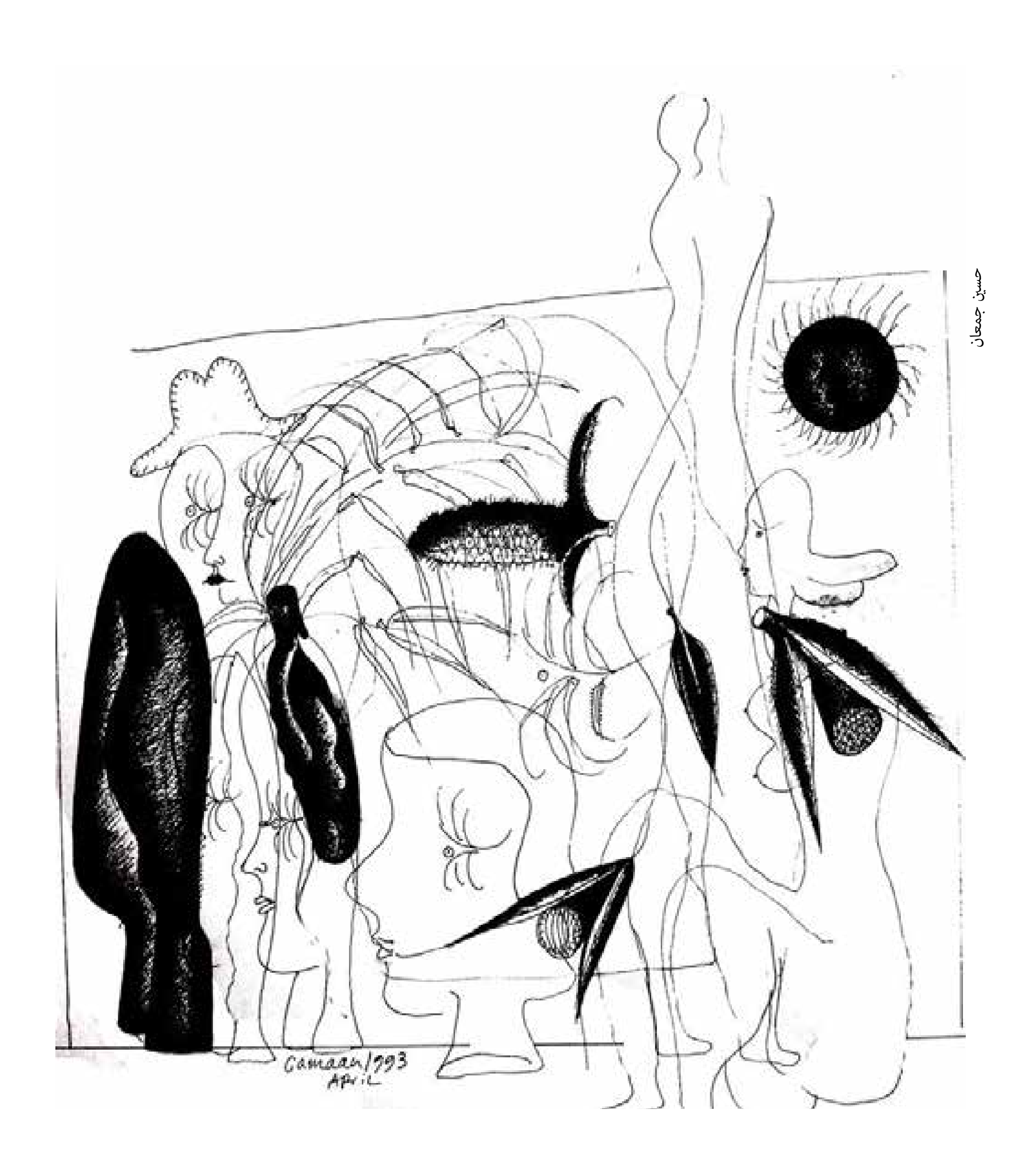
إلهُ الخرزِ
إلهُ ما تبقّى من حبات الخرزِ
على ساحلِ البحرِ
سارَ طويلا يتبعُ خطواتِ الغريبة.

***

اشتريت أصدافاً
كنتُ أظنّ
أني سأمتلكُ البحرَ الأبيضَ المتوسط.

***

نتمرّنُ على القسوة
والمغفرة حُلمَنا الجميل.



شاعرة من سوريا مقيمة في لندن

النزعة الإنسانية

مساءلة مشروعة

نزار عثمان

إن النزعة الإنسانية هي أثقل ميراث انحدر إلينا من القرن التاسع عشر، وقد آن الأوان للتخلص منه. ومهمتنا الراهنة هي العمل على التحرر نهائيا من هذه النزعة

ميشال فوكو



وليد المصري

امتلأت الفضائيات منذ نشوب الانتفاضة السورية، وقبلها فيما يعني العراق، بمؤسسات وجمعيات وشخصيات عامة كان لها دور أساسي في إغاثة اللاجئين ودعمهم والذود عن احتياجاتهم، وكثير من هذه المؤسسات والجمعيات إما غربية أو لها دعم غربي، وقد دفع كثير منهم حسهم الإنساني الرفيع للقيام بما يرونه واجبا تجاه إخوتهم في الإنسانية، لكن في استنطاق سريع لهذه الحركات التي تتعدد دوافعها نسأل، هل بات المفعل الإنساني يجدي؟ وهل أضحى له من دور فلسفي في حياتنا التي نعيش؟ وما جدواه؟ قد تبدو هذه الحركات محلّ تقدير الأوساط العالمية والمحلية المهتمة، لما يشكل من سبق في تسليط الضوء على مآسي تجاوزت العقد في كثير من الأماكن في بلداننا، لكن بين ثنايا الحدث، هل هناك ما يستحق التوقف عنده قليلا في تناول أولي لتصرفات سفراء النوايا الحسنة، وفيما خص النزعة الإنسانية التي تمس الجمعيات الرسمية وغير الرسمية والحركات والأشخاص الغربيين تحديدا بإزاء اللاجئين السوريين والعراقيين وغيرهم، في محاولة بدئية لقراءة ما بين السطور؟ لسنا بالطبع بصدد محاكمة نوايا هنا، لكنها محاولة لاستجلاء طبيعة النظرة التي ينظرها إلينا الإنساني في الغرب في ظل الماكينة الإعلامية العالمية الضخمة التي نقع معا ضحية لها.

لا شك البتة أن هناك دوافع إنسانية طيبة وراء عمل عدد من الناشطين الغربيين بإزاء قضايا الشرق الأوسط، لكن من المعلوم أن الخطاب الفلسفي منذ نيتشه مرورا بهيدغر وليفي شتراوس وصولا إلى فوكو قد بشر بموت الإنسان، أو قل على الدقة موت النزعة الإنسانية، على اعتبار أن الإنسان «اختراع حديث العهد، صورة لا يتجاوز عمرها مئتي سنة، إنه مجرد انعطاف في معرفتنا، وسيختفي عندما تتخذ المعرفة شكلا آخرا جديدا» بحسب فوكو، وبالطبع فالمقصود بالإنسان هو الإنسان المدرك المسؤول، المالك لناصية أمره، والمحرك لتاريخه وماضيه وحاضره ومستقبله، إنسان الحقوق والواجبات، وقد صنعت هذا الإنسان ثقافة القرن التاسع عشر، وهذا الإنسان محكوم بالزوال مع تصدع الأولويات التي صنعته، والثقافة التي بنته، وهذا ما بدأنا نشهده في العقدين الأخيرين من عمر البشرية.

في ظل عالم لم تعد فيه بدائل حضارية تذكر عن الرأسمالية -على ما يذكر سلافوي جيجك- التي باتت متوحشة وعن العولمة وثورة الاتصالات والتكنولوجيا التي غزتنا حتى غرف نومنا، وبات الإدراك الحديث عاجزا عن تجاوزها أو اللحاق بوتيرتها المتسارعة والتي تلعب فيها الرساميل العالمية واكتناز الثروات دور المفعل في هذا السباق والسياق، يطرح السؤال: أين هو إنسان الحقوق والواجبات لا سيما في الشرق الأوسط؟ بنظرة سريعة غير متخصصة يبدو أنه يذوي ويذوب، فعهد الوظيفة قد ولى، والأغنياء كقلة يزدادون ثراء والفقراء على اتساع رقعتهم يزدادون فقرا ويموتون على أبواب المستشفيات ولا يوفّرون لأبنائهم الغذاء أو التعليم المناسبين ولا يجدون أمامهم إلاّ الجمعيات الأهلية الخيرية كي تساهم مساهمة بسيطة في سد جزء من احتياجاتهم، وعدد كبير من هذه الجمعيات مدعومة من مؤسسات وهيئات سياسية دولية ومحلية لها أجنداتها... وهلمّ جرا، أليس هذا دليلا واضحا -دون الدخول بالتفاصيل الكثيرة أو الشواهد لما يقتضيه حال الاختصار في هذا المقال- على موت الإنسان الذي بشر به هؤلاء الفلاسفة؟ من هنا أين يمكن وضع أعمال تلك الجمعيات والحركات والأشخاص الخيرية؟ لعله مع إحسان الظن تجذيف بعكس التيار، فهي وأشباهها لم تخرج عن إطار المؤسسات الحاكمة في العالم، أو تتجاوز الخطوط الحمر في استنكارها لما يجري -كما حصل على سبيل المثال مع محمد علي كلاي وقضية مشاركته في حرب فيتنام، ولو أن هذه القضية لها ظروفها المختلفة بالزمان والمكان والمعطيات- بل غاية الأمر أنها تسير بوتيرة واحدة مما يمليه عليهم ضميرهم «الإنساني» وفق ما يساير الموجة العامة التي يحيطها فيه الإعلام المعولم.

ثم هناك إطار آخر للتناول، وهي نظرة الغربي لنا، وهي نظرة لا يختلف عليها اثنان إنها فوقية بنسب متفاوتة ولها أسبابها التي نحن بالغنى عن الدخول في تفاصيلها. لكن من المعلوم أن المحرك الأساس لمجتمعاتنا على كافة الصعد يلعب فيه الغرب دورا أوليا مهما، ونحن كمتلقين غالبا ما نتأثر ونتفاعل دون أن تكون لنا بدائل فعلية نركن إليها. من هنا عندما تتحرك هذه الهيئات باتجاه مجتمعاتنا الشرق أوسطية قد تلعب فيها عدة أحاسيس، منها الشفقة على أناس يعانون من عالم متوحش منمّط وفق رؤيتها للأمور، وإن أدخلنا بعدا نفعيا قد يكون بعضهم يسعى لنيل جوائز دولية تظهرهم كحمامة سلام في ظل هذه الغابة المسماة «شرق أوسط»، لكن لا يمكننا التوسع في هذا الإطار لما فيه من محاكمة للنوايا. ثم في ظل تأفف بعض المواطنين في الدول المضيفة من الحمل الثقيل الذي يشكّله النازحون تظهر تلك الشخصيات والهيئات وهي ترعى أطفال اللاجئين، في ثنائية قد تظهر للوهلة الأولى زيفنا، لكنها تحمل في طياتها أبعادا أعمق ليس أقلها المعاناة الصرفة ومطاردة سبل العيش الكريم التي يعيشها الفاعل والمنفعل في مجتمعاتنا، في حين أن الزائر «الإنساني» لا يقضي إلا أيّاما في ظلّ القسوة ليعود إلى جنّته التي تركها في وطنه الأم.

ثم أخيرا، ومع تعدّد أشكال الدعم والتي تنوّعت بين أفلام ومعارض ومسلسلات وغير ذلك تحاكي وتحكي قضايا اللاجئين، فلا يمكن الإغماض عن الجانب الربحي المادي والمعنوي، الذي تناله هذه الهيئات والأشخاص من دول في الغالب تكون هي المسبب المباشر أو غير المباشر في وجود اللاجئين، ويحضرني في هذه العجالة لافتة رفعت في التظاهر ضد الرئيس الأميركي دونالد ترامب كتب عليها «لا تريد لاجئين توقف عن إنتاجهم».

بالنهاية، لم تكتب هذه السطور لتدين تلك الهيئات والجمعيات والمؤسسات والأشخاص، كما لا تهضم حقهم الإنساني بالعمل وفق ما يرونه مناسبا أو تنوّه بأخلاقياتهم من وراء هذه الأعمال، غاية الأمر هو تسليط الضوء على حالة خاصة لها بعد عام، تستقطع جزءا من آلامنا وطموحاتنا كسكان للشرق الأوسط.

كاتب وفنان من سوريا



تسرّب

حاتم الأنصاري

إن شاء الله
انتحلي سيرتي أيتها الريح
ولا تنسي أن تنسبيها لغبار الطلْع!

***

وأنت أيها الليل
تمرّغ في حبالي الصوتية كيفما تشاء
ثم اخرج إلى النجوم صائحًا:
«كيفَ حال النائمات الناعمات!؟».

***

أما أنتم... يا معشر الفصول
فلكم أن تعيثوا
في عمري المجدوحِ بالخيبات
أرجحةً
حتى يُساقط عليكم
كسلاً شهيا
بالسُمّ... إن شاء الله.

براءة

يا للبراءة!
ما زال الصغير يمرح في عينيك الشاسعتين
(وقد أنشأتَ له، خصيصاً، روضة أطفال)
هنا ترقص أرجوحة
على أنغام ضحكات صباحية
وهناك
تحجل مزلقة حتى حدود الشمس.
وبين هذه وتلك
مباراة الاختباء..
وبين أقدام اللاعبين
علب لبن فارغة
وغلاف حلوى مكرمش
تتوسدّه

صورةُ بقرة.

وعيد النهار

أمضيت الليلَ بطوله
أدفعُ النهار بكلتا يدي!
غفوتُ قليلاً

سقطت
وحين أفَقتْ
لم أجد الشمس
قلتُ ربّما قهرتُ النهار
وربما مشى فوقي
أو قفز
ثم دسّ الشمس داخل شق في جدار مهمل
وتوعدني
بغدٍ مشرق.

الثالثة والثلاثون

الثالثة والثلاثون: سِنُّ أهل الجنة
هذا ما تَلَقّنّاهُ، أنتَ وأنا
في حصص الدين المبكرة.

***

أنت تعجز عن طردِ اليافعيْنِ اللذينِ يَتَراشقان
بالنكات
في فناء ذاكرتك الخلفي

***

أما أنا
فعاجز أبداً عن فضِّ الاشتباك

الذي وقعَ بين ضحكتيهما القاسيّتين.

تسرّب

أيها الغَدُ البعيد،
أيّها الغد الذي يُشرعُ ذراعيه
مُرَحّبًا بالآخرين
أنا قادمٌ رغمًا عنك!

***

لن آتيك طائرًا
ولا زاحفا

***

عبر مسامات جلدك الرقيق
نقطةً
نقطة
سأتسرب

***

تماما
كما تتسرب هذه الحروف الخبيثة
إلى أحلام يسرا وكوابيسها المبكرة.

شاعر من السودان

حسين جمعان

الولادة العسيرة للكتاب

أحمد إسماعيل إسماعيل

حين دفعت كتابي الأول للنشر كنت موزعاً بين الفرح والخوف، فرح وحيد وخوف على أكثر من صعيد، الفرح بولادة كتابي الشبيه بفرح الأب بولده البكر، الولادة التي حدثت بعد سنوات من المطالعة والمتابعة في الشأن المسرحي؛ غير أن هذا الفرح لم يكتمل بسبب مخاوف كثيرة سبقت ولادته وهي مخاوف لا تتعلق بصحة الكتاب وبنيته، إذ كنت متيقناً من أنه سيولد معافى فقد سبق لي أن أجريت له كل التحاليل الضرورية قبيل ولادته بيد أن كل ذلك غير ذي أهمية لمن يريد لكتابه أن يرى النور ويحتل مكاناً له على أرفف المكتبات. وذلك لا يكون إلا بالحصول على مباركة وزارة الإعلام؛ مباركة يحصل الكاتب بموجبها على شهادة مكتوبة بقلم موظف اتحاد الكتاب العرب تؤكد فيها هذه الجهة أن المولود خال من فيروس التابو ثلاثي الأبعاد: الجنس والدين والسياسة، وعليه يُمنح الكتاب شهادة لا مانع من النشر والتوزيع.

ولأن كتابي الذي أسميته «مسرحنا المأمول» والذي يضم بين دفتيه مجموعة من المقالات المسرحية الموجهة لبناء المسرح الكردي الفتي في سوريا كان خالياً من أيّ حديث عن الدين أو الجنس، عدا إشارات سياسية تجسدت في عبارات عامة مثل استغرابي من سياسة الحظر على الثقافة والفن الكرديين وسياسة تدجين الطفل الكردي والعربي أيضاً في مدارس الدولة الحزبية وما شابه ذلك، كان عليّ أنا الكاتب الغرّ الذي يجهل دهاليز وزارة الإعلام واتحاد الكتاب البحث عن وسيلة أو وساطة للوصول إلى دار نشر تتكفل باستحصال شهادة ولادة وموافقة من الوزارة المذكورة وذلك مقابل رشوة مالية أو بوضع اسم دار نشر لبنانية على غلاف الكتاب وهي وسيلة درجت على ممارستها دور نشر سورية عديدة للتهرب من المساءلة السياسية أو الأمنية.

فصادفت في دمشق شاباً من مدينتي يعمل سمساراً لدور النشر وقادني هذا الشاب إلى دار نشر يديرها رجل من بلدياتي، وفي مكتب دار النشر استغل صاحب الدار هواجسي ومخاوفي من احتمال عدم الحصول على الموافقة لأنني لم أحسن تشفير السياسة في مقالات الكتاب الموجهة للعاملين في المسرح الكردي المحظور أساساً، ثم طلب مني التحلي بالصبر والاتصال به بعد شهرين، وفعلت ما طلبه مني وكنت خلال هذه المدة التي استطالت أعاني آلاماً أشد قسوة من آلام تأليف الكتاب، وبعد انقضاء مدة الشهرين اتصلت به فأكد لي خلال الاتصال أنه حصل على الموافقة ولكن بعد أن بذل جهوداً جبارة ليطلب بعدها عمولة لقاء أتعابه فوافقت على الفور وبعد ثلاثة أسابيع ظهر الكتاب في ألف نسخة وكان ذلك سنة 1997، كانت الطباعة سيئة جداً استلمت النسخ بفرحة أمّ تضم وليدها إلى صدرها، حتى لو كان هذا الوليد مشوه الخلقة، ونقدته مبلغاً كبيراً مشفوعاً بالشكر الجزيل له ولصديقي السمسار وعدت بكتابي إلى بلدي وهناك قمت بتوزيع نسخ الكتاب بنفسي على المكتبات والأصدقاء وبعض الأحزاب المحظورة في مدينتي، وفي النهاية.. اختل حساب البيت مع حساب السوق ولم أحصل على بلح اليمن ولا على عنب الشام. لا نقود مالية ولا حتى صحفية.

قدمت بعدها مجموعة قصصية تحمل عنوان «رقصة العاشق» إلى وزارة الثقافة لتجنب استغلال دور النشر فتم رفض المجموعة وعليه توقيع السيدة نجاح العطار وزيرة الثقافة آنذاك دون أي تبرير، وكم كان استغرابي شديداً حين فازت المجموعة في السنة نفسها بجائزة الشارقة للإبداع سنة 2000.

مرت ثلاث سنوات وقدمت بعدها كتابين مسرحيين للحصول على الموافقة واحد لوزارة الإعلام وآخر لاتحاد الكتاب العرب، فتم رفض الكتابين، إنها لعنة السياسة حتى لو كانت في حدها الأدنى، أتقنت بعدها فن إخفاء المقاصد بكثير من التوريات وقدمت نصاً مسرحياً شديد القسوة سياسياً إلى وزارة الثقافة فتمت الموافقة عليه مع ثناء شفهي من مديرية التأليف. سعدت كثيراً لامتلاكي سرّ اللعبة وتمكني من إخفاء مقاصدي عن الرقابة، غير أن الفرحة سرعان ما تلاشت حين انتبهت بعدها بزمن أن أساليب الإخفاء التي لجأت إليها في نصوصي كانت من الكثرة والكثافة بحيث أخفت مقاصدي عن القارئ أيضاً.

وكررت بعد صدور الكتاب عن وزارة الثقافة التجربة ذاتها فتمت الموافقة على طباعة أكثر من كتاب موجه للأطفال.



فؤاد حمدي

نشرت أكثر من كتاب في وزارة الثقافة ثم في دور نشر خارج وطني، الإمارات العربية خاصة وكردستان العراق، ولقد بلغ ما نشرته حتى اليوم 13 كتاباً دون أن أحصل على ما يناسب هذا الكم من اهتمام نقدي. والسبب هو أنها السياسة؛ ليست سياسة النظام فحسب بل سياسة دور النشر الخاصة التي تستغل الكاتب الجديد مالياً ثم تتخلى عنه في التوزيع والتسويق والدعاية، وسياسة دور النشر الحكومية وخاصة وزارة الثقافة التي لا تنشر سوى ما يناسب سياسة النظام، إضافة إلى أن ما تطبعه يكاد ربعه فقط يتم توزيعه على مراكزها الثقافية أما الباقي فمصيره الدفن حياً في المستودعات.

أما القارئ المتلقي في أوطاننا فهو سيد مزاجي في هذا المجال بالذات، عبد في كل شيء إلا مع الكتاب، إذ أن الكتاب الوحيد لديه هو الكتاب المقدس وحتى هذا الكتاب لا يمسه إلا إذا مات شيء ما في داخله، فرح، أمل، عافية، أو مات قريب له، وأستثني هنا من يقرأه بدوافع إيمانية وحتى معرفية.

أمّا لجوؤه القديم، المتلقي، إلى المطالعة في كتاب أدبي أو غير أدبي كوسيلة لجلب النوم فقد أصبحت موضة قديمة واندثرت مع موت الجدات اللواتي كنّ يروين الحكايات الشائقة للأطفال قبل النوم، إذ أن وسائل أكثر من الكتاب فعالية في هذا المجال كالمسلسلات التركية والهندية المدبلجة قد تقدمت على الكتاب في جلب النوم براحة وخدر لذيذ.

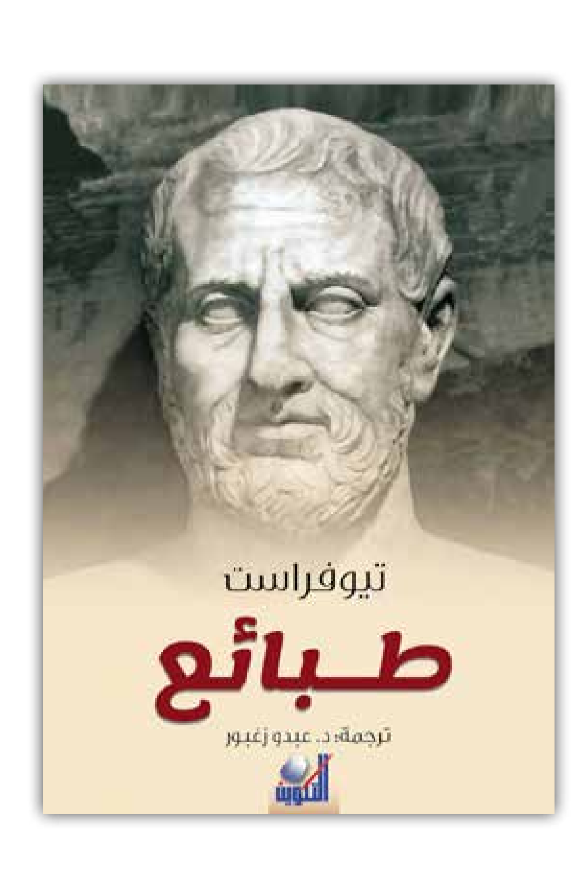
أما النقاد الجهة الموكل إليها أمر فرز الغث من الثمين في حقل المعرفة فقد انقسمت إلى طوائف وشيع، طائفة تعمل مقابل أجر بقصد التسويق وأخرى ضمن شلة تجمعها روابط غير أدبية، وطائفة ثالثة حزبية سياسية وربما كانت القلة منهم جادة، غير أنها لا تجد في الذهب إلا كل ما يلمع أو لَمَع، فلا تمسّ النتاجات الصادرة حديثاً حتى يثبت الدهر جدارتها وتلمع هي الأخرى.

ولذلك أصبح كل من يفكر في إصدار كتاب يجد من الضرورة امتلاك، أولاً وقبل كل شيء، وسائل تضمن له ليس نشر كتابه فقط بل تسويقه. وللتسويق في واقع استهلاكي كل شيء فيه مجرد سلعة؛ أفانينه.

كاتب من سوريا يقيم في ألمانيا

«طبائع» اليوناني تيوفراست
الشخصية وتحولاتها عبر التاريخ

هيثم حسين



يتحدث اليوناني تيوفراست (371-287 قبل الميلاد) في كتابه «طبائع» عن صور البؤس في الشخصيّة الإنسانيّة وتمظهراتها التي تتجلّى في السلوكيات عبر التاريخ وتناسلها وانتقالها من جيل إلى آخر ومحافظتها على طبيعتها البائسة وتلويثها مَن تطالهم بسوء وأذى.

يرسم تيوفراست عدداً من التنويعات من الحالات الإنسانية، يتغلغل من خلالها إلى النفس البشريّة، يفكك مكامن العلل والضعف والضعة والانحطاط فيها ويشكّل مدخلاً لتحليل الشخصيّة الإنسانيّة من خلال طبائعها وكيفية تبلورها عبر أفعال تدفعها طبائع قارة في النفوس لا يمكن التعتيم عليها بأيّ طريقة من طرق التحايل والتحوير.

يفصل تيوفراست في كتابه (منشورات التكوين، دمشق، ترجمة عبدو زغبور، 2016) طبائع البشر وصفاتهم الداخلية التي توصف بالشريرة، ويصف العيوب وكيف أن الطبائع تنتقل من عصر إلى آخر وتحتفظ بطبيعتها وتأثيراتها برغم اختلاف الأمكنة والأزمنة وتغير الظروف. وكأنّ البشر يستعيدون سير بعضهم بعضاً من زمان إلى آخر أو يتلوّنون بألوان جديدة تحتفظ بالهيئات والطبائع المتأصّلة التي تبرز حقيقتهم ووجودهم.

يرسم صورة «المنافق» ويقول إن المرء يستطيع أن يرى في النفاق، إذا ما أراد رسم جوهره، نوعاً من الرياء الذي يستند إلى سوء الطوية في التصرّف كما في الكلام. يحرص المنافق، إذا ما التقى بأعدائه، على التكلّم إليهم، بيد أنّه يخفي حقده عليهم. ويمدح الذين يطاردهم في الخفاء أثناء وجودهم ويعبّر لهم عن عطفه إذا ما أصيبوا بمصيبة. ويرفق متسامحاً بالذين يتكلّمون عنه بالسوء والذين يلصقون به «التهم». يبيع شيئاً، يزعم أنّه لم يبع أيّما شيء، لا يبيع شيئاً، يؤكّد العكس. ينكر بأنّه سمع شيئاً ولا يعترف بأنّه رأى شيئاً ولا يتذكّر بأنّه وعد بشيء.

يصف الوضاعة التي يتحلى بها «المتملّق» الذي لا يتحلى بأيّ قيمة وتخلو ممارساته وسلوكياته من أيّ كرامة، يستخدم حيلاً بائسة لتعظيم أناس يمضي في ظلهم ويحاول أن يستفيد منهم. ينتهز أيّ فرصة لإسباغ صفات مضخّمة عليهم. يقول عن هذه الحالة إنّه تحت التملّق يفهم المرء عادة على أنّه سلوك خال من الكرامة في العلاقة مع الآخرين والذي يتوخّى الاستفادة من المتملّق إليه.

يفكك شخصية «الثرثار» فيقول إنّ الثرثرة تفصح عن نفسها في الإسهاب وعدم التمعّن في كلامه، وإنّ الثرثار يسرد ثرثراته الجوفاء على مسامع الغرباء أينما حلّ وارتحل، يتحدّث عن كلّ شيء وعن لاشيء. ثم ينتقل إلى توصيف طباع «الجِلف» وكيف أنه تحت سلوك الرجل الجلف يفهم المرء عادة نقيصة مزعجة في التهذيب وآداب اللياقة.

يرسم شخصية «المتزلّف» ويفصل في تفكيك التزلف، وكيف أنه إذا أراد المرء تحديد جوهره يجده نوعاً من السلوك الذي يعمل على بعث الإعجاب من دون طوية حسنة. وحالة الرجل المتزلّف الممتدح لكل من يقابله. وينتقل إلى وصف انعدام الضمير ويعني به الإصرار على الاستهتار بالفضيلة والشرف أثناء الكلام والسلوك. يصفه الشخص عديم الضمير بأنه قادر على لعب دور المتّهم في المحكمة كقدرته على أن يكون المُدعى عليه، يتلوّن بحسب انتهازيته ومصالحه.





يتحدّث عن «مروّج الشائعات» ويشير إلى أنّ ترويج الشائعات ينحصر في جمع القصص والوقائع غير الصحيحة التي نقلها المروّج وينبغي على المرء تصديقها. كما يتحدّث عن «الوقح» ويصف الوقاحة بأنّ المرء إذا أراد رسم جوهرها فهي زراية سمعته الشخصية بغية منافع مهينة، ويشير إلى أن الإنسان الوقح إذا أراد استعارة شيء فإنّه يقصد ذاك الذي أضرّ به يوماً، ثمّ يقصد بعد ذلك شخصاً آخر. وتراه يطالب لأصدقائه الضيوف بالحقّ في مقعد في المسرح بينما هو يشاهد دون أن يسدد ما يترتب عليه ثم يتمادى ويجلب آخرين معه تالياً.

يكمل تيوفراست سلسلة توصيفاته لطبائع الشخصية البشريّة ويرسم صفات «المقتّر» الذي يغالي في الحرص على التوفير بما يتعلّق بالأمور المالية. يقول إنه إذا أراد الشخص المقتّر بيع شيء فإنّه يطلب ثمناً مرتفعاً إلى درجة أن شراءه من قبل المالك الجديد يصبح دون قيمة، ويمنع كثيراً من الأشياء البسيطة ويعلّل حظره لها بأنّ تلك الأشياء الصغيرة تكوّن مع مرور السنين مبلغاً طائلاً.

يحلّل بنية الارتياب بالاعتماد على طبع المرتاب ويجد أنّ الارتياب مظنّة ضدّ كلّ شيء، وكأنّ شيئاً يحدث من دون حقّ. ويقول إنّ الإنسان المرتاب يرسل أحدهم لشراء مواد ويدفع بآخر وراءه كي يخبره كم دفع ثمن كلّ سلعة. أو تراه يحمل نقوده معه ويجلس ليعدها بعد كل مسافة قصيرة.

يتحدث عن صفات أخرى لشخصيات عديدة منها: الفظّ، الأبله، المتحمّس، شارد الذهن، المتعجرف، المؤمن بالخرافة، المتذمر، المرتاب، المثير للقرف، قليل الذوق، المغرور، البخيل، الجبان، المتخلف، المفتري، صديق الأشرار، الجشِع، وغيرها من الطبائع التي تلوّث المرء وتخرجه عن طوره وإنسانيّته وتضعه في خانة العداء للقيم الاجتماعيّة والأخلاقيّة.

كأنّ تيوفراست يؤلّف في عمله معجم الشخصية الإنسانيّة، يجمع معجم الصفات وتحليل الشخصيات من خلال طبائعها وممارساتها التي تفترضها وتحدّد مسارات تحركها وعلاقاتها وتواصلها مع محيطها وترسم خطط تحرّكاتها داخل عالمها المشكّل بناء على ركائز يتوهّمها صاحبها ويبقيها سبل حماية ووقاية له في واقعه وعلاقاته.

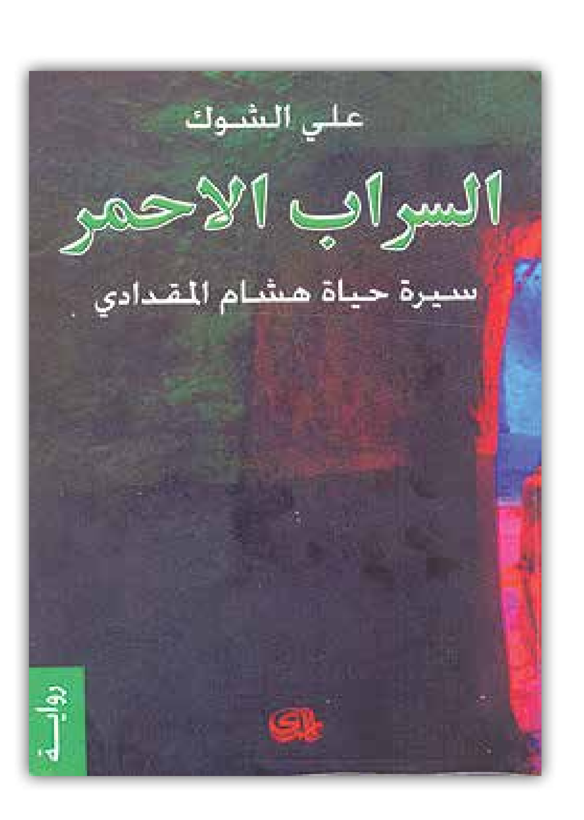
يشار إلى أنّ تيوفراست الذي ولد سنة 371 قبل الميلاد في بلدة إريسوس في جزيرة ليسبوس كان قد تتلمذ على يدي الفيلسوف أفلاطون وارتبط بصداقة مع أرسطو ورافقه إلى آسيا الصغرى، ولبثا هناك فترة ثم عادا إلى اليونان، وحين أصبح أرسطو سنة 343 معلماً للإسكندر لحق به تيوفراست، وخلفه في ترؤّس مدرسته التي أنشأها حتى وفاته سنة 287 قبل الميلاد.

كاتب من سوريا مقيم في إدنبرة اسكتلندا

علي الشوك روائيا

هل آلت آمال هشام المقدادي إلى سراب

شكيب كاظم



ترى ما هي الحدود الفاصلة بين السرد الروائي والسيرة الذاتية؟ وهل ثمة حدود؟

أرى أن ليست ثمة حدود في الفنون، لا بمعنى تحولها إلى انفلات وفوضى، بل حدود تكاد تكون هلامية، لكن فيها شيء من عقل وفن، لذا فاني إذ أقرأ العمل الروائي، الذي كتبه الأديب العراقي المغترب قسراً، فثمة من غادروا الأوطان ترفاً وبطراً، وبحثاً عن حياة فضلى، ما عادوا يجدونها في الوطن المضطرب منذ عقود، إني إذ اقرأ رواية «السراب الأحمر. سيرة حياة هشام المقدادي» الذي هو جزء من رباعية روائية خطتها يراعة القلم الأنيق الجوال علي الشوك، لتكون روايته «فتاة من طراز آخر»، الحلقة الرابعة والأخيرة من مشروعه الروائي الرباعي، وهي متصلة بسابقاتها، ومستقلة عنها في الوقت معاً، كما دوَن ذلك على واجهة غلافها الأول.

انهيار أخلاق الناس

إني إذ أقرأ، ليصعب علي فك الاشتباك بين السرد الروائي، وكتابة السيرة الذاتية، لكن هذا لا يعني نقلاً تسجيلياً لوقائع الحياة، حياة الروائي المركزي، بل فيها من فنون السرد شيء كثير، فإذ يقترب علي الشوك من وقائع سيرته الذاتية، حتى يأتي بأسماء عديد شخوص روايته بأسمائهم الصريحة، أو القريبة من الصريحة مثل: عدنان الملاك (ص 139)، الذي هو الصحافي الشاب المندفع عدنان البراك، ابن منطقة الكرخ، فضلاً عن يوسف عبدالمسيح جاره الذي رآه واقفاً أمام منزله في ذلك اليوم الشباطي الدموي العاصف، الذي طلب فيه الراوي المركزي، الذي هو الكاتب علي الشوك، طلب منه أن يشدَ حيله، في محاولة منه للتخفيف من قلقه وخوفه، ليصعقه جواب يوسف هذا، متخلَياً عن أبسط أصول اللياقة واللباقة، قائلاً له:

- لا.. لا أنا لا علاقة لي بكم، أنا غير مرتبط بأحد. ضحكت ودخلت (ص 140)، لكن هذا التخلي، والنأي بنفسه عن رفاقه، ما عصماه من السادية والقسوة، فما لبث منزله أن دوهم وأخذوه هو وزوجته (ص 145).

وهو لدى التدقيق، ولا سيما لدينا نحن الذين أمضينا العمر في دنيا القراءة. فيوسف هذا، هو الكاتب والمترجم بشؤون المسرح، يوسف عبد المسيح ثروة وما زالت في ذاكرتي دراساته الثرية عن المسرح العالمي وكتّابه، التي وإلى نشرها في مجلة «الأديب» اللبنانية نهاية عقد الستين من القرن العشرين، وبداية العقد الذي تلاه.

فإذ نجد علي الشوك يقترب من الواقع حتى ليكاد يتماهى معه، نراه في روايته هذه «السراب الأحمر» يوغل في الإبهام، ولا سيما حين يتناول السرد قضايا الحب والجنس والمرأة، وإذ خلت روايته هذه من صور الجنس، التي أفاض روائيونا فيها، راكبين موجة السرد المنفلت في بلاد الغرب، والأغرب أن يكنّ الروائيات العربيات أكثر إيغالاً في تصوير هذه المشاهد، وفي الذاكرة رواية «المسرات والأوجاع» للروائي العراقي الراحل فؤاد التكرلي (توفّي شباط 2008) عدا لقاء حميم جمعه بـ»داليا» وقد لعبت الشمبانيا برأسيهما، وزادت من هوسهما وشبقهما طالبة منه بإلحاح:

- هل تريد أن تخنقني؟ ادخل في... ادخل... ادخل. ودخل فيها، وقال بعد لحظات: أنت مذهلة في أعماقك السفلى. (ص334).



علا الأيوبي

الصورة الأيقونية

فضلاً عن بعض الشخوص، الذين لا يريد تحطيم صورتهم الأيقونية، على الأقل لديه هو، فبعد الانهيارات العاصفة التي ضربت الحزب الذي تواءم علي الشوك مع أفكاره، لا بل نذر كل حياته لها، بسبب ضغوط معنوية وجسدية صاعقة، قد لا يتحملها الإنسان فيتهاوى في لحظة نحسٍ وضعف، وخلق الإنسان ضعيفاً، هو السارد المركزي في رواية «السراب الأحمر» لا يريد تهشيم أو تشويه هذه الصورة التي ما زالت متألقة في نفسه، فلا يذكر اسم الذي نقلت إذاعة بغداد وتلفزيونها اعترافاته مساء الاثنين الأول من نيسان1963- إذ دأب السجانون على نقل الموقوفين إلى قاعات فسيحة في قصر النهاية، الذي تحول إلى سجن رهيب، بعد أن كان قصراً للرحاب، وغيّر «الجنرال» اسمه لدى عقد جلسات مؤتمر وزراء الخارجية العرب نهاية شهر كانون الثاني1961- في أروقة هذا القصر البسيط، الذي ابتناه الأمير عبدالإله بن علي مسكناً له. وشهد جريمة مصرع العائلة الملكية ضحى يوم الاثنين 14 تموز 1958، غيَّر «الجنرال» اسمه من قصر الرحاب إلى قصر النهاية، متشدقاً ومتباهياً، إنه كانت فيه نهاية الأسرة الهاشمية وليتحول من ثم هذا القصر، إلى سجن باستيل ثان. كانوا ينقلون إلى قاعة واسعة، كي يشاهدوا اعترافات قادتهم، ويسمعوها «لكن أكثر ما أحزنني (كما يقول السارد المركزي) هو مشاهدة رفيقي مروان بكر رشدي، من بين الأربعة الذين أجري معهم الحوار (...) لاحظت أنه فقد الكثير من وزنه، وتذكرت ما رواه (...) عن صموده وتحمله إلى أن انكسر في اللحظة الأخيرة، كان دمي يفور حين كنت أسمع الحوار (...) لأن المحاور كان يريد أن ينتزع منهم كل ما يدين (...) ويلطخ سمعته (...) ولاحظت أن مروان كان يتكلم من منطلق أن كل ما كان يؤمن به باطل (...) هذا (...) الذي صَفد أياماً تجرع في أثنائها كل أهوال التعذيب، إلى أن وقع (....) مروان بكر رشدي، الذي لم يقبّل فتاة في عمره، ولا أظنه نام مع امرأة.. هذا كل ما جناه من حياته، هو الذي لا تجد أكثر من عشرة مثقفين عراقيين في مستوى معارفه وثقافته» (ص272).

الروائي علي الشوك، لا يريد إيذاء الصورة الأيقونية الباذخة والمتألقة لرفيقه، فسماه

«مروان بكر رشدي». لكن استذكاراً لتلك الندوات الاعترافية التي كان يقدمها تلفزيون بغداد وبالارتباط مع إذاعتها كي يكون النقل، صورة وصوتاً أثناء أشهر شباط وآذار ونيسان1963-، التي غابت عن ذاكرة الكثيرين وتلاشت، بسبب تقادم السنين وموت الكثير ممن شهدها وسمعها، أو بسبب تحطم ذاكرة بعضهم الآخر، لبعد العهد بها ونسيانها، أقول: لكن استذكارا لتلك الندوات وعودتي لبعض الوثائق ومنها ما سمي ب»الكتاب الأسود. اعترافات الشيوعيين» الذي أصدرته وزارة الإرشاد ببغداد سنة 1963 ويقع في 123 صفحة، يؤكد لنا أن المعني هو: بديع عمر نظمي، عضو مكتب تثقيف بغداد، الذي كان علي الشوك عضواً فيه، والذي ظهر على شاشة تلفزيون بغداد مساء 1-4-1963 -كما ذكرت آنفاً- يدلي باعترافاته، وإذ لم يذكر السارد المركزي لرواية «السراب الأحمر» اسم المحاور الذي كان يدير الندوة التلفازية، ولعله نسيه أو أنساهُ إياه الزمان، أو لم يشأ أن يذكر اسمه فهو الإعلامي زكي الجابر، المولود في البصرة عام 1931، الذي اشتهر من خلال تلك الندوات، ولكن أشهد أن تعامله مع الذين كانوا يدلون باعترافاتهم -وقد دالت بهم الدنيا- كان تعاملاً حضارياً مؤدباً ومحترماً، مما كان يدل على سموّ خلقه، غادر العراق في سنوات تلت ثم غادر الحياة بمنزله في مدينة تكساس الأميركية يوم الأحد الـ29 من كانون الثاني 2012. وتلك الأيام نداولها بين الناس.

رواية أفكار سياسية

الرواية هي «السراب الأحمر» والعنوان يحمل دلالات عدة وتفسيرات، فهذا الذي غنّى له كثيرون ودفعوا جراءه ثمناً باهظاً، تحول إلى سراب، مع انهيار الأيديولوجيات الدكتاتورية والبيروقراطية ووأد نوازع الإنسان التواق للنور والحرية، وبتشويه صورتها ومن ثم انهيارها.

إن رواية «السراب الأحمر» التي ينفتح فضاؤها الروائي على بدايات سنة 1979، وتعكر الحال السياسي في العراق، المتعكر منذ عقود، رواية أفكار سياسية خالصة، كان لها دورها المؤثر في الحياة السياسية العراقية، ولقد حاول الروائي علي الشوك من أجل تشويق القارئ وكسبه، أن يمازج بين الخيال والواقع، متنقلاً في أصقاع شتى من هذا العالم، وما اكتفى بالحديث عن أجواء العراق، الذي يقرر السارد المركزي مغادرته، صيف ذلك العام 1979، مستفيداً من العطلة الدراسية الصيفية، كي يتخلَص من الضغوط عليه، وكي لا تجلب مغادرته انتباه الوشاة والمخبرين وما أكثرهم في كل زمان، وما كان سرده مطرداً زمانياً، بل كانت ثمة عودات إلى سنوات خلت، إلى



«السراب الأحمر» والعنوان يحمل دلالات عدة وتفسيرات، فهذا الذي غنّى له كثيرون ودفعوا جراءه ثمناً باهظاً، تحول إلى سراب، مع انهيار الأيديولوجيات الدكتاتورية والبيروقراطية ووأد نوازع الإنسان التواق للنور والحرية، وبتشويه صورتها ومن ثم انهيارها



أيام الدراسة الأولى في مدارس بغداد، والتحاقه بالبعثة والحصول على الشهادة العالية هو الذي كان مبتعثاً للحصول على الشهادة العليا لكن طارئ تموز 1958، يدفعه للعودة إلى الوطن، وتأجيل دراسته، فكانت هذه العودة، وارتماسه بالعمل السياسي الحزبي، هو المثقف المرهف البعيد عن توجهات الشارع وفوضاه وصبيانيته، هو الذي كان يخجل أن يصفق في تظاهرة، فكان ينأى بنفسه عن المشاركة فيها على كثرتها المزعجة وتعطيلها الحياة العامة بعد طارئ تموز 1958، لكن هذا الرجل المعتكف المنشغل بالقراءة الجادة والكتابة الأكثر جداً وتخصصاً، الذي تشغله الدادائية والأطروحة الفنطازية، تجعله السادية العراقية والقسوة يدفع ثمناً باهظاً تنوء به العصبة أولو الأيدي والقوة، أقله مغادرة الأهل والأصدقاء والكتب والإسطوانات الموسيقية الكلاسيكية ولذا رأيناه يذهب -وقد أزمع رحيلاً وشيكاً- يذهب مع صديقه الدكتور رمزي محمود إلى مخيم أنشأه بعيداً عن ضوضاء المدن ، وبعيداً عن أعين العسس والوشاة، ليمضي هناك وقتاً جميلاً في حضن الطبيعة، مع مجموعة من الأصدقاء قبل مبارحة أرض الوطن، «لأن حبل السرة الذي يربطه بهذا الوطن قد انقطع، وسيقذف به بين فكي المجهول» (ص305).

إن رواية «السراب الأحمر. سيرة حياة هاشم المقدادي» التي هي جزء من رباعية روائية أبدعها القلم الأنيق، الرشيق، الذي جال في عوالم نائية وعصية في الفكر والثقافة والمعرفة، ينأى مسطحو العقول عن الاقتراب منها، هذا القلم الدؤوب الذي يكتب للنخبة، والخاصة، وكدت أقول خاصة الخاصة، إن هذه الرواية لتعد باباً يشرعه علي الشوك على الوجع العراقي المستديم، منذ تلك الطفرة غير المحسوبة نتائجها المدمرة على الحياة في العراق.

ترى لو لم يحصل طارئ تموز1958، ما الذي كان سيغدقه على الثقافة العراقية قلم علي الشوك وعقله الزخار بالآراء والأفكار؟

كاتب من العراق





علا الأيوبي

«عين الشرق» لإبراهيم الجبين

استراتيجيات التشكيل وكتابة التاريخ

خالد حسين



لربما تنبثقُ قوةُ الفعل السَردي في هذه الرِّواية من اشتغال الروائيِّ على استراتيجيات القول وكذلك على محاولة كتابة تاريخ الرغبة، الرغبة في سلطويتها بحضورها المريع وشؤون أخرى. وهكذا ترتهن كينونة الممارسات الخطابية في بعدها الفني باستراتيجيات التشكيل البنائي للخطاب حيث تستأثر بانتباه القارئ عملية بَنْيَنَةِ السَرد والعنونة المركزية للخطاب الروائي ثم البداية النَّصية مع نظيرتها خاتمة النص. فالتشابك والتخطيب بين هذه البؤر يمنحان كينونة النَّص طاقة كبيرة على الحضور بنوعٍ من «اللؤم الفني» الذي أتقنه الروائيُّ في إنتاج نصه.

جاء في الرواية «قررت أن أكتب مذكراتي. لم أقرر بعد، فكثير من أحداثها لا أريد أن أرويه. ليس لأنه لا يعجبني، بل لأنني لم أكن فيه اللاعب الأساسي. كانت تحركني الرياح، وكنت طياراً يتقن تزك ذاته للهبوب»، هذه الرياح والهبوب سوف تؤشش لشكل الكتابة في النص وتمنحه هويتها المتغايرة والمتقلبة عبر التداخل بين المذكرات والتاريخ والشعري، لنكتشف من ثَمَّ أحد مكامن السرّ للنص الذي يتمثل باستراتيجية الكتابة التي اعتمدت «مناهضة التسريد والتشويق» وزجّ القارئ في خطوط سردية متقطعة ومكثّفة تلتفُّ على بعضها البعض في حركة متغايرة لتتداخل الأزمنة التاريخية فيما بينها بإيقاع متسارع وفي إطار وعي جمالي بالنوع الأدبي. وهذا ما منح الروائي القدرة على التحرك بحرية في الانتقال بين الأزمنة وإفساح المجال لكثرة كثيرة من الشخصيات تحضر وتغيب في المشهد الروائي.

غير أن هذه الاستراتيجية في الإمساك بالقارئ ما كانت لتمارس إغواءها لولا استراتيجية العنونة التي اتبعها النَّصُ لاصطياد القارئ ليمنحه الرغبة في القراءة والمراودة. أقصد توسيم النَّص بتسميةٍ سوف تمثِّل البؤرة المركزية للنص حدثاً وشخصياتٍ وأزمنةً، إنها لدمشق وإنها لـ»عين الشرق: هايبرثيميسيا 21»، أما لماذا توسيم الرواية بال»عين»؟ فالعين هي النافذة التي تطلُّ على العالم وهي العتبة التي يحدث فيها التلاقي.

وفي الثقافات العالمية تكتنز «العين» بدلالات سيميائية كثيفة يمكن أن نشير في هذا السياق إلى كونها ترمز إلى المعرفة غير المحدودة والعلم الإلهي والضياء والتنوير والعقل واليقظة والحماية.. إلخ. وهذا هو ديدنُ «عين الشرق» دمشق ذات الطاقة الهائلة على الجذب والاكتواء بعشقها الأسطوري.

وفي هذا الصدد يرى المرء أنَّ العنوان الرئيسي يملك طاقة دلالية مكتفية بذاتها في شؤون إغواء القارئ وإحداث فعل القراءة ومن ثم تجعله بغنى عن العنوان الثانوي الذي يؤدي هنا دور المفسّرة الشارحة أو للإشارة إلى فضاء التفاصيل الصغيرة التي تعصف بالرواية. لكن ذلك لا أهمية له في الموقع الذي يحتازه في فضاء الغلاف لأن الكتابة الروائية ذاتها تتأسس على التفاصيل الصغيرة.

لا يرمي الروائيُّ هذه التسمية على عواهنها، إذا ينبغي إبرامُ عهدٍ بين العنوان و»جسده-النص» حيث تكشف الرواية من خلال «عهد التلازم» هذا عن دور العنوان في تنظيم إيقاع الرواية وانتظام الأحداث والشخصيات والأزمنة المتنوعة في سياق الرواية ضمن بنية تؤوّل ذاتها بذاتها. إن عنوان الرواية كما أشرت يرتبط بأمور عدة، فاقتناص دمشق لهذا الاسم يأتي من الإمبراطور الروماني «يوليان» الذي رأى في دمشق «قاعدة سوريا المجوّفة، وسماها «عين الشرق»، كما لو أنَّ الإمبراطور الروماني يدرك تماماً أن الشرق رهين دمشق. فمعرفة الشرق والسيطرة عليه مرتهن بالاستحواذ على هذه «العين الساحرة: دمشق»، العين التي تتدفق ماء وسحراً، لتشكّل فضاء لسحر الكلام المتقاطع مع هسيس الشعر «دمشق مدينة شعرية. سحريتها قادمة من هناك، من شعريتها. لغتها شعرية، وعمارتها شعرية. أشجارها مرسومة كما ترسم الأشجار في القصائد، وأنهارها السبعة شعر، مصائر كائناتها مصائر شعرية لا مصائر روائية...» لكن هذا العنوان «عين الشرق»، حيث الإبصار والحدس والجمال، يستدرجنا إلى نبوءة رجيمة مقتبسة من العهد القديم «وحيٌ من جهة دمشقَ: هوذا دمشقُ تُزالُ من بين المدنِ وتكونُ رُجمةَ ردم» جعلها الروائيُّ نصاً-تمهيداً لروايته كناية عن المآل الذي آل إليه «الهدير السوري» بعد أن تكالب عليه كلُّ قوى الشر في العالم لإخماده ومنع الحلم السوري من الانبثاق في صورة عين ساحرة.


فؤاد حمدي

لا شك أن النبوءة الرجيمة انعكاس لمآلات «الانفجار الكبير» الذي تحوّل إلى «دمار كبير»، فالنبوءة الرجيمة تمثل نهايةً للفعل السردي، نهاية للنَّص في الحقيقة. لكن استراتيجية اللعب السردي تدفع بالنهاية إلى «البداية» و»البداية إلى النهاية»، «كانت لحظة غير عادية، عمرها آلاف السنين، تلك التي سبقت صوت الطباشير والألوان البدائية، وهي تحفّ جدار مدرسة في درعا جنوب سوريا...».

إن العناصر المحيطة بالنَّص مع السرد المنفلت في كل الاتجاهات تُشكِّل الفضاء الذي وقع فيه حدث كتابة تاريخ غير رسمي عبر السرد، كتابة تاريخ مخفي، وهذه الكتابة-الجريئة تستمدُّ ثيماتها من قراءة العلائق التي نمت وتنمو في «عين الشرق».

فالتاريخ ليس تأريخاً، تأريخ «حدثٍ» فحسب كالصَّرخة السورية! وإنما لعبة سردية قوامها التأويل أيضاً، فالاستراتيجيات التي لجأ إليها «الدكتاتور-الأب» في السلطة جعلته «إلهاً» في نظر «طائفته» التي استمدت كينونتها في الرغبة المتسلطة من رغبة «الإله» -إله العلويين- في الحضور الأبدي، ولذلك «لم يكن الموت قدراً، للذين حملوا السلاح للدفاع عن إلههم، كان اختياراً»، وسيترتَّب على هذا «الاختيار» اللاعقلاني دمارُ بلدٍ بأكمله أرضاً وبشراً؛ لكي يستمر ابن «الإله» في السيطرة لأن فيه استمرار «الرعية» بالحضور اقتصاداً واجتماعاً وسياسةً. ولذلك كان الأمر متوقعاً، وما هو أشدّ توقعاً منه أن ينضم مثقفو الطائفة بمختلف مشاربهم -حتى اليسار الراديكالي إلا فيما ندر- إلى هذا «الاختيار» المدمّر بدعوى الخوف من «إرهاب» قامت السلطة برسم ملامحه وتشكيله ثم إطلاقه وذلك لإغلاق كل إمكانية من شأنها أن تمضي بسوريا إلى فضاء ديمقراطي! يحضر التاريخُ المخفيُ بكثافةٍ في السياق الروائي ويتولى الراوي رسم ملامح الحدث التاريخي ثم تأويله، سواء تعلّق الأمر بحدثٍ واقعي جرى في حماه «قال ياكوب: إن أجساد الضحايا السوريين كانت من ضمن مواد البناء التي اختلطت مع الأساسات حينها» أو بتاريخ بعض الشخصيات كشخصيةِ الشاعر أدونيس الذي تكشف الخيوط المخفية لتاريخه الشخصي أن اصطفافه مع السلطة الطائفية ليس بالأمر المستغرب.

كتابةُ التاريخ بالسرد وفي السرد أيضاً تتجه نحو تأويل الشخصيات الروائية الأخرى بوصفها أحداثاً تصنع التاريخ بهذا الشكل أو ذاك حيث تتحرك في المشهد الروائي كثير من الشخصيات بعضها تاريخية (عبدالقادر الجزائري) الذي يتعقب الراوي سيرتَهُ تأويلاً وتفسيراً، وبعضها الآخر بأسماء رمزية لكن ببرامج سردية طائفية (جماعة حراس الأرض) أو ببرامج سردية انتهازية. وفي المقابل ثمة شخصيات بأسماء صريحة (هائل اليوسفي، سليم بركات، صبحي حديدي، بشار عيسى، يوسف عبدلكي،... إلخ). ولا يخفي الراوي إعجابه بالبرامج السردية التي تقود حيوات هاته الشخصيات.

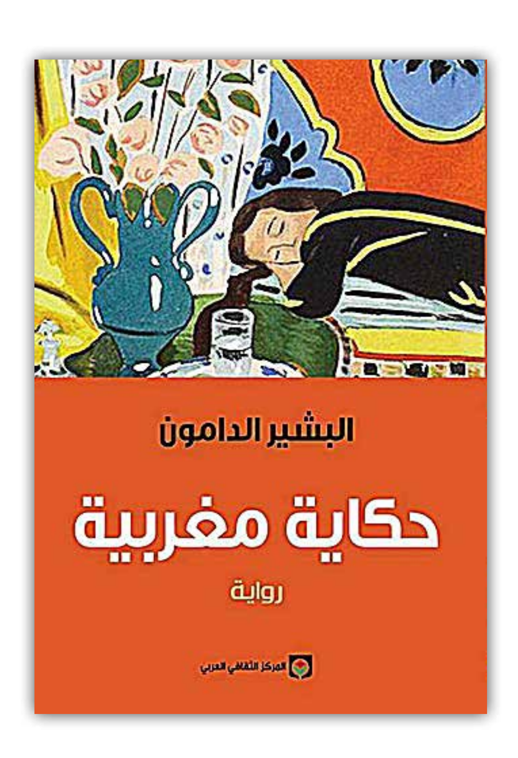
وهكذا فـ«عين الشرق» من الممارسات الخطابية التي تقرأ «دمشق» المكان-البؤرة برؤية فنية تسكن مسار الجرأة تسريداً وتجريباً.

كاتب من سوريا مقيم في ألمانيا

أحلام جيل منكسر

«حكاية مغربية» للبشير الدامون

سعيد بوعيطة



يعد الروائي المغربي البشير الدامون من الأسماء الحاضر بقوة في المشهد الروائي المغربي الحديث. فعلى الرغم من أن رصيده الروائي لا يتجاوز أربع روايات، فقد تميزت أعماله بصياغة وبناء سردي متميزين منذ رواية الأولى «سرير الأسرار» 2008. وتوالت أعماله الروائية بنفس الصياغة والأسلوب وهي رواية «أرض المدامع» 2012، رواية «هديل سيدة حرة» 2015، رواية «حكاية مغربية» 2017. إن الخيط الرفيع الذي يجمع بين أعمال البشير الدامون الروائية من خلال قراءاتنا للروايات هو الغوص في أعماق المجتمع والكشف عن خباياه. وهو بدوره غوص في أعماق الإنسان المغربي/العربي سواء في الأحياء الشعبية أو الراقية، قصد تفكيك مختلف العلاقات الإنسانية المختلفة وما يشوبها من صراعات واختلال. وكذا من آمال وآلام في الوقت نفسه. وما تعرفه من أحلام وانكسارات نفسية وجسدية.

أغلب شخصيات هذه الروايات مسحوقة بآلة التهميش والفاقة، وضحية للفساد ومافيا المخدرات. تتميز علاقات شخصيات هذه الروايات الاجتماعية بالتنافر وسط الحي السكني الواحد. لكنها في الوقت نفسه تسعى لبناء علاقات الألفة والحميمية النادرة. ولعل هذا التنافر والحدة في العلاقات قد جعلا المتخيل السردي يتميز بالعنف. لارتباطه بشخصيات هامشية تصارع من أجل البقاء، باستثناء رواية «هديل سيدة حرة» التي هيمن عليها الجانب التاريخي. وإذا كانت هذه الخاصية حاضرة في جل أعمال الروائي البشير الدامون السابقة، فهل تعد كذلك خاصية روايته الأخيرة «حكاية مغربية»؟

هذه الرواية

تسرد رواية «حكاية مغربية» (منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 2017)، حكاية الشخصية المحورية أسماء. الفتاة اليافعة العجفاء. تقطن حيا شعبيا مع عائلتها بمدينة تطوان ابتداء من سنة 1984. حيث ستعرف هذه السنة بعض الاحتجاجات الاجتماعية. سيعتقل على إثرها أخوها حسن التلميذ اليافع الذي فرض عليه بعض المحتجين فتح خزنة حديدية تم إخراجها من وكالة بنكية. لكن حبها لأخيها الذي كان يدرس في معهد التكوين المهني وإحساسها بالمسؤولية تجاه عائلتها المكونة من أب وأم وأخ صغير والأخ المعتقل سيدفعها رغم صغر سنها (18 سنة) لمحاولة التدخل من أجل تخفيف الحكم عنه أو تبرئته. لكن محاولتها تلك ستؤدي ثمنها غاليا حيث ستغتصبها شخصية القاضي التي وعدتها بالتدخل لتخفيف الحكم عن أخيها وتفقدها بكارتها.

لم تكن الساردة، (شخصية أسماء) قد شفيت من صدمتها الأولى حين حكم على أخيها بعشرين سنة سجنا، حتى تصدم مرة ثانية وذلك عند زيارتها الأولى له بالسجن، إذ اكتشفت أنه قد تم اغتصابه هناك وتم استغلاله جنسيا لدرجة أن مغتصبيه زينوا يديه وقدميه بالحناء كما يحتفل بالعروس ليلة دخلتها. فكانت الصدمات قوية على نفسية الفتاة مما جعلها تعاني من تمزق نفسي وقلق موجع خاصة وأنها لم تكن تملك ثمن العلاج لدى طبيب نفسي.

وعلى الرغم من هذه الظروف القاسية فقد قادها التحدي لتواصل دراستها بنجاح إلى أن حصلت على الإجازة. لكنها ستواجه مرة أخرى البطالة. لن تنفعها الاحتجاجات مع المعطلين بل كانت سببا لتكتشف الفساد والمحسوبية التي تنخر المجتمع. وأمام فقر عائلتها ستضطر للذهاب للعمل بالتهريب بباب سبتة حتى توفّر مصارفها وتساعد عائلتها وخاصة الأخ السجين. لكن تحرش أحد حراس الحدود الجمركية وإلحاحه عليها، جعلها توقف عملها بباب سبتة لتلجأ للعمل كخادمة لأم مهربة كبيرة للمخدرات (شخصية حنان) تتزعم شبكة دولية. مما سيجعلها تكتشف عوالم خفية غريبة كما أنها ستتمكن من الحصول على غير قليل من المال. أمام مغريات هذا العالم الجديد، ستستدعي أخاها الصغير (شخصية كريم) ليشتغل مع هذه المهربة حيث سيغتني هو كذلك وسيعيش علاقة عاطفية مع مشغلته في غياب زوجها (شخصية الأقرع) الذي يقبع في السجن. كما ستكتشف شخصية أسماء العلاقات المريبة التي تجمع كبار مهربي المخدرات مع بعض رجال السلطة والقضاء والسياسة. حيث ستضطر إلى إيصال مبلغ رشوة كبير من مشغلتها إلى ذاك القاضي الذي كان قد اغتصبها من قبل.

وحين يخرج زوج حنان (شخصية الأقرع) وهو من كبار المهربين من السجن، سيعذب أسماء متهما إياها بأنها قد استقدمت أخاها كريم لدى زوجته حنان وأنها ليست سوى قوادة. سجنها بقبو الفيلا الكبيرة لأيام وظل يعذبها ليل نهار إلى أن انهارت نفسيا، مما سيؤدي بها إلى مستشفى للأمراض العقلية لمدة شهرين. حيث ستلتقي بمريضة عاشقة للشعر وبممرض خدوم سيجعلانها تزرع الأمل في نفسها من جديد من أجل تقبل حياتها. وكأن السرد يعود إلى بدايته بشكل دائري.


صلاح المر

سيرة أحلام جيل منكسر

إن رواية «حكاية مغربية» هي بمثابة سيرة جيل عانى البطالة والتهميش. تقول شخصية أسماء في الصفحة 47 «كنا نجعل من الوقفات الاحتجاجية والاعتصامات في الشوارع وأبواب النقابات مناسبة لنخفف ما بأنفسنا. نواسي بعضنا بعضا. أغلبية المعطلين ينحدرون من أوساط معوزة». جيل يحلم بالتغيير والرقي المادي والمعنوي، لكن أحلامه وآماله انكسرت وهي تصطدم بواقع قاس اندحرت بسببه هذه الأحلام. هكذا يرسم لنا الروائي البشير الدامون شخصيات واقعية نابضة بالحياة. فعلى الرغم من كون رواية «حكاية مغربية» تنبني على شخصية محورية تتجلى في شخصية أسماء المليئة بالأحلام من أجل تغيير ظروف عائلتها. تقول الساردة «تابعت الدراسة بنجاح، وحصلت على الإجازة. كنت آمل أن ألتحق بمعهد تكوين المعلمين...» (الصفحة 45). فإن حكاياتها تتشظى على طول المسار السردي لتكشف عن حكايات مغربية وحيوات شخصيات عديدة منها: شخصية أحمد قيدوم المعطلين كما ينعته المعطلون وأحلامه وصراخه الذي لا ينتهي «قيدوم المعطلين هذا كان حلو المعشر والحديث. وقفة احتجاجية من دونه تمرّ دون طعم. كل وقفة وهو معنا كنا نستغلها لنعرف ما جد من أحداث الفساد» (الصفحة 47). وشخصية الشاعر محمد الذي يعشق الشعر إلى حد الجنون. وحديثه الذي لا ينتهي عن الحقوق المهضومة والدماء المهدورة لشعوب وأفراد من مختلف بقاع العالم. تقول الساردة في الصفحة 53 «في لقائي الأخير به حدثني عن الحقوق المهضومة، والدماء المهدورة لشعوب وأفراد من مختلف بقاع العالم...». وهكذا تتناسل وتتوالد حكايات شخصيات متعددة: شخصية أحمد، شخصية محمد، شخصية حسن، شخصية كريم، شخصية بدرية، شخصية سعيد (الممرض). شخصيات خرجت من رحم الحرمان والمعاناة، فكانت حكاياتها بمثابة سيرة جيل تحطمت أحلامه وتراكمت هزائمه النفسية.

حين تحاول شخصيات الرواية تغيير

مصيرها تواجه خيارات عدة: ممارسة المحظور أو الخيانة... الخ. أما الشخصيات التي ترفض هذه الخيارات، فكان مصيرها أكثر مأساوية: الجنون والتشرد كما هو حال شخصية أحمد «كرهت الاحتجاجات والتظاهرات يوم التحق بنا خاي أحمد. الفساد وعلامات اضطراب نفسي بادية واضحة عليه. وقف بيننا وصرخ بشدة وبهستريا: لا من ينهى ولا من ينتهي.. لا محاسب ولا مراقب. اضطر بعض الشباب للتدخل وسحبه خارج الحلقة» (الصفحة 53).

وأخرى تتكدس بها مصحات الأمراض العقلية. تقول الساردة في وصفها لحالة مرضى المصحة «تؤلمني حالة المرضى المتشنجين الذين تنتابهم حالات هستيريا أو نوبات رهاب رهيب بعض المرضى كنت أغبطهم، إنهم سارحون غير مكترثين بما حولهم وكأنهم طلقوا الحياة وأنواءها» (الصفحات 155-156).

لكن تبقى شخصية السارد المحورية (شخصية أسماء)، على الرغم من كونها تظهر وتختفي عبر المسار السردي للرواية، حاضرة بقوة. إنها تذكرنا بالشخصيات التي رسمها الكاتب الفرنسي أندريه مالرو في بعض رواياته، خاصة روايته «الشرط الإنساني» شخصية تختزل المعرفة البشرية والتجربة الحياتية الغنية وتحلم انطلاقا من ذلك بأن تغير البشر والعالم. إنها الشخصية الكلية حسب تعبير ماركوز التي تعبر عن حركة الواقع الجوهرية التي لا يراها الآخرون. كما تضع هذه الشخصية أمامها مهمتين أساسيتين: الكشف عن هذه الحركة أمام عيون كل البشر من جهة. والعمل على قذفهم في أتونها من أجل خلق عالم جديد.

من الانكسار إلى التجاوز

تمنحنا شخصية أسماء والشخصيات الأخرى التي تدور في فلكها بنية فكرية توازي مفهوم الوعي القائم كما حدده لوسيان غولدمان. يرتبط هذا الوعي بالحالة القائمة على جميع مستويات الحياة لكنها تتميز بالسلبية، بحيث يكشف هذا الوعي عن ذات (ذوات) مأزومة نظرا لارتباطها بظروف عامة مأزومة وسلبية في الوقت نفسه. لكن هذه الذات لا تستكين لهذه الأزمة والوضع القائم السلبي بل تعمل على تجاوز هذا الوضع المأزوم بطرق عدة من خلال خلق علاقات جديدة مع أمكنة وشخصيات أخرى وخلق وعي جديد يندرج ضمن الوعي المفروض وضمن بنية مجتمعية عامة (اقتصادية، سياسية، اجتماعية، وثقافية). إذ تؤثر هذه البنى كما يرى غولدمان، بعضها على بعض، لتتداخل ضمن بنيات تاريخية واجتماعية عامة. فشخصية أسماء (الشخصية المناضلة)، حين حاولت التجاوز، أرغمت على بناء وعي جديد يساير بنية الوعي العام للمجتمع (المنافي لوعيها السابق)، فاشتغلت بالأعمال الممنوعة: تهريب السلع بباب سبتة «نجية التي كانت تقوم بسياقة السيارة أشارت لي منذ اليوم الأول من العمل أننا محظوظتان ما دمنا نملك عربة نخرج بها السلع المهربة» (الصفحة 58)، العمل مع عصابات تهريب المخدرات (شخصية حنان) «صرت مساعدة ثقة للمرأة، أصبحت أشاركها بعض أسرارها. حنان إلى جانب قيامها بعمليات التهريب كانت وسيطة لتجار المخدرات» (الصفحة 102). لكن هذا الوعي الجديد لم يساعد شخصية أسماء على تحقيق التجاوز، بقدر ما عرفت مرة ثانية نوعا من الانكسار النفسي قادها إلى مستشفى الأمراض العقلية. تقول الساردة في الصفحة 151 «أشباه المجانين أمثالي معذبون يستميتون على التشبث بالحياة رغم عذاباتهم ورغم الاكتئاب الحاد ورهاب الجنون. أغبط الناس الذين لا يأبهون للحياة وأنوائها. كأن أفئدتهم من حديد. تمر الحياة بمصائبها وكأنها تمر بجانبهم وليس على أرواحهم». انكسار نفسي، ستحاول الشخصية تجاوزه بعد مغادرتها المستشفى في آخر النص الروائي. تقول شخصية سعيد (الممرض بالمستشفى) «شمس اليوم رائعة السطوع. تغسل الأنفس المكدَرة. ستشفين حين تعتبرين الخوف من الجنون عدوا وصديقا. لتكن أحلامك أحلاما بالشفاء، فالعالم قاس دون حلم، نوباتك احتجاج داخلي على ما عشته وتعيشينه، فجرّي احتجاجك على الملأ ووجهيه نحو طريق سليم» (الصفحة 159). وهذا يبقى نص «حكاية مغربية» محكوما ببنية الانكسار والتجاوز بشكل مستمر لا يعرف التوقف. تتناسل من خلاله حكايات مغربية أخرى، ولعل هذا ما جعل السارد يختم الرواية بهذه الجملة «احكي حكايتك إنها جديرة بأن تسمع» (الصفحة 159). وعلى الرغم من محاولات التجاوز، يبقى الانكسار حاضرا بقوة.

انكسار الروح

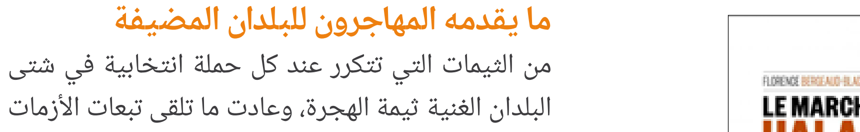
رواية «حكاية مغربية» للبشير الدامون حكايات شخصيات عاشت انكسارا روحيا من خلال القمع الفكري والفساد السياسي مرورا بالطبقية الحثيثة ومرارة الهزيمة والانكسار النفسي ودائرة الإحباط المغلقة وقصص الحب الحالمة والانتهازية والمتاجرة بأحلام الطبقات الفقيرة. كل هذا يضعها في قلب هذه الرواية التي شكلت سيرة أحلام جيل منكسر بكل ما تحمله من مشاعر وتفاصيل ومآس وأحلام. كما تصور الحالة الداخلية لنفسية الشخصيات من أجل إبراز الفجيعة وعمق الجرح الذي في النفس نتيجة الهزيمة. وبهذا يكون الروائي البشير الدامون قد رسم لنا شخصياته بمهارة فنية عالية. كما تميزت بلغتها السردية المنسابة بعفوية كبيرة والمشحونة بشاعرية جميلة. وبهذا تكون هذه الرواية إذا استعرنا العبارة من الروائي عبدالرحمن منيف من الروايات التي تقول همومنا وأحلامنا وليست كالتي تستعير أصابع الآخرين من أجل الكتابة.

كاتب من المغرب

سلافة حجازي

SULAFA HIJAZI





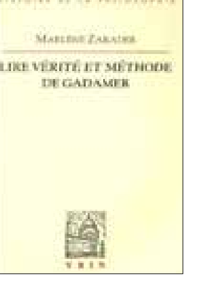
المختصر

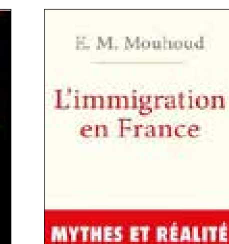
عواد علي

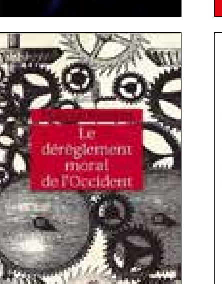
















ما يقدمه المهاجرون للبلدان المضيفة

من التيمات التي تتكرر عند كل حملة انتخابية في شتى البلدان الغنية ثيمة الهجرة، وعادت ما تلقى تبعات الأزمات ولا سيما الاقتصادية منها على عاتق المهاجرين. فهل صحيح أن تلك البلدان تستقبل بؤس العالم؟ وأن المهاجرين يثقلون اقتصادها؟ وأنهم يستولون على شغل أبنائها؟ هذا كتاب بعنوان «الهجرة في فرنسا» للجزائري الموهوب موحود أستاذ العلوم الاقتصادية بجامعة باريس دوفين، يفنّد تلك المزاعم، ويردّ على أصحابها بأن الأرقام والتحاليل متوافرة، وكلها تؤكد أن البلدان الغنية تستفيد كثيرا من المهاجرين، لأنهم ليسوا مجرد أيد عاملة، بل فيهم عدد كبير من حملة الشهائد ومن المتخصصين في مجالات تقنية عديدة، ولكن أصحاب تلك المزاعم يغضون عنها الطرف، ويتوسّلون بخطاب شعبوي لغايات انتخابية. وقد أحصى المؤلف ما لا يقل عن خمس عشرة أسطورة تلصق بالمهاجرين بغير وجه حق.



نشوء الإمبراطوريات وزوالها

بعد «ابن خلدون وأرواح الإسلام السبعة» نشر غابريال مارتينيز غرو، المتخصص في تاريخ الإسلام في العصر الوسيط، كتابا عن نشوء الإمبراطوريات وزوالها، من روما إلى إمبراطوريات الصين، مرورا بدول الإسلام والمغول والهند، يستقرئ فيه التاريخ وينزل في صميمه مسائل العنف والسلم، ويوازن مركز الإمبراطورية المسالم وأطرافها العنيفة، وفق مقاربة استوحاها من ابن خلدون المنظر الكبير للدولة كما يقول. ذلك أنه يعترف لابن خلدون بفكره العميق ذي التأثير الكوني على غرار فكر ماركس أو توكفيل، فكر يكاد يكون الوحيد الذي لم ينشأ في الغرب. والمؤلف إذ يتتبع مسار دول عظمى سادت ثم بادت، ويستعرض دوافع نشوئها واستقوائها، وأسباب انحدارها وزوالها، يتوقف أيضا عند الديمقراطيات الكبرى التي نشأت عقب الثورة الصناعية ليحلّل ما يميزها عن الإمبراطوريات الغابرة، وما يقرّبها منها ويجعلها مؤهلة هي أيضا للاندثار.

منظومة الحلال في أوروبا

«السوق الحلال أو ابتداع تقليد» هو عنوان كتاب جديد للباحثة فلورانس بيرجو بلاكلير، التي ترصد منذ أكثر من عشرين عاما تطوّر السوق الحلال في أوروبا. سوق تتوجه إلى المسلمين في بلاد الله الواسعة، وتشمل كل ما يدخل في حياتهم بدءا من المجازر الإسلامية إلى السياحة الحلال، مرورا بالأطعمة والأدوية والألبسة. هذا الانتشار تعزوه المؤلفة إلى التقاء طوباويتين من طوباويات القرن التاسع عشر: الأصولية الإسلامية والليبرالية الجديدة. الأولى عبر تأويلها التقاليد على هواها، خلقت فضاء معياريا يكون فيه المسلم مضطرا إلى البحث عن الحلال وتجنّب ما ليس كذلك. والثانية برغبتها في التحرّر من كل قيد، مزرت المصالح التجارية قبل حياد الدولة والحرية الدينية. والأخطر أن الرقابة المفروضة على البضائع الحلال صارت تطبق أيضا عبر أناس نصف تجار ونصف متدينين على سلوك حرفائهم.

سلافة حجازي

معنى العقاب وغايته

ما معنى العقاب؟ ولمَ العقاب؟ وعلى من يسلّط؟ في كتاب جديد بعنوان «عقاب» يتولى ديدييه فاسان أستاذ العلوم الاجتماعية بمعهد الدراسات المتقدمة برنستون عبر هذه الأسئلة فتح حوار مع الفلسفة الأخلاقية والنظرية القانونية، مستمدًا أمثلة حجاجِه من ظروف تاريخية ووطنية مختلفة، ليبين أن الرد على الجريمة لم يرافقه دائما فرض عقوبات جسدية، وأن العقاب لا يقوم فقط على منطق عقلاني يهدف إلى تبريره، وأن إثقال العقوبات غالبا ما تكون نتيجتها التمييز، وبالتالي زيادة التفاوت الاجتماعي. وعلى

عكس الشعبوية الطاغية حاليا، يقترح المؤلف مراجعة ضرورية للأحكام المسبقة التي تغذّي شغف العقاب، ويدعو إلى إعادة النظر في مكانة العقاب في عالمنا المعاصر. والكتاب مقاربة جينالوجية وإثنوغرافية للإمساك برهانات اللحظة انطلاقا من أسس العقاب نفسها.

الكنار أنشينيه في مئويتها

من سخرية السياسة في فرنسا أن الـ«كنار أنشينيه» قد تحتفل بمئويتها على أنقاض الأحزاب السياسية الكبرى، فما فتئت هذه الصحيفة منذ بضعة أشهر تنشر فضائح المرشحين للرئاسة، كما اعتادت أن تفعل مع الكبار والمتنفّذين والمخالفين للقانون والدستور منذ قرن على مدار العام. تأسست عام 1916 وسط صخب الحرب العالمية الأولى، واختارت منذ عددها الأول أن تعيش على مبيعاتها دون أن ترهن توجهها لأيّ طرف، غايتها أن تضحك وتُضحِك سيرا على النهج الذي اختطّه لها مؤسسها موريس ماريشال (1882-1942)، ثم تجاوزت ذلك إلى فضح كل مروق، أيا ما يكن مقترفه ولو كان رئيس الدولة. لقد ظلت على مدى مسيرتها نموذج الصحافة الحرة، وهي استثناء في الساحة الفرنسية. واحتفالا بهذا الحدث أصدرت كتابا بعنوان «قرن من المقالات والرسوم» بتقديم للكاتب باتريك رامبو، يزخر بذكريات ونوادر هي جزء لا يتجزأ من تاريخ فرنسا.

الزعم بأسلمة أوروبا

فيليب دو فيلييه سياسي مفلس، هجرته الأضواء منذ مدة، وها هو يحاول العودة إلى معترك السياسة عن طريق التحالف مع حزب مارين لوبان العنصري. ومن ثم فهو يغتنم فرصة المزايدة على أعتاق الجاليات المسلمة، من خلال كتاب ينبئ عنوانه عن محتواه «هل ستدق الأجراس غدا؟». فهو يحاول أن يقنع الفرنسيين بأن بلادهم تغير وجهها منذ الثمانينات وبدأت تتأسلم، «ببطء لا محالة، ولكن بثبات»، ويزعم أن ذلك يدخل ضمن مشروع يدعى «أوريسلام» شجعت النخب الفرنسية على قيامه، وهو مشروع سرّي اطلع عليه فيما يزعم كما اطلع على معلومات خطيرة أخرى تخص الشعب الفرنسي ومستقبله، وهو ما كان ذكره في كتاب آخر احتفى به المحافظون واليمينيون المتطرفون العام الماضي عنوانه «حان الوقت كي أروي ما رأيت».

الإسلاموفوبيا من منظور يهودي

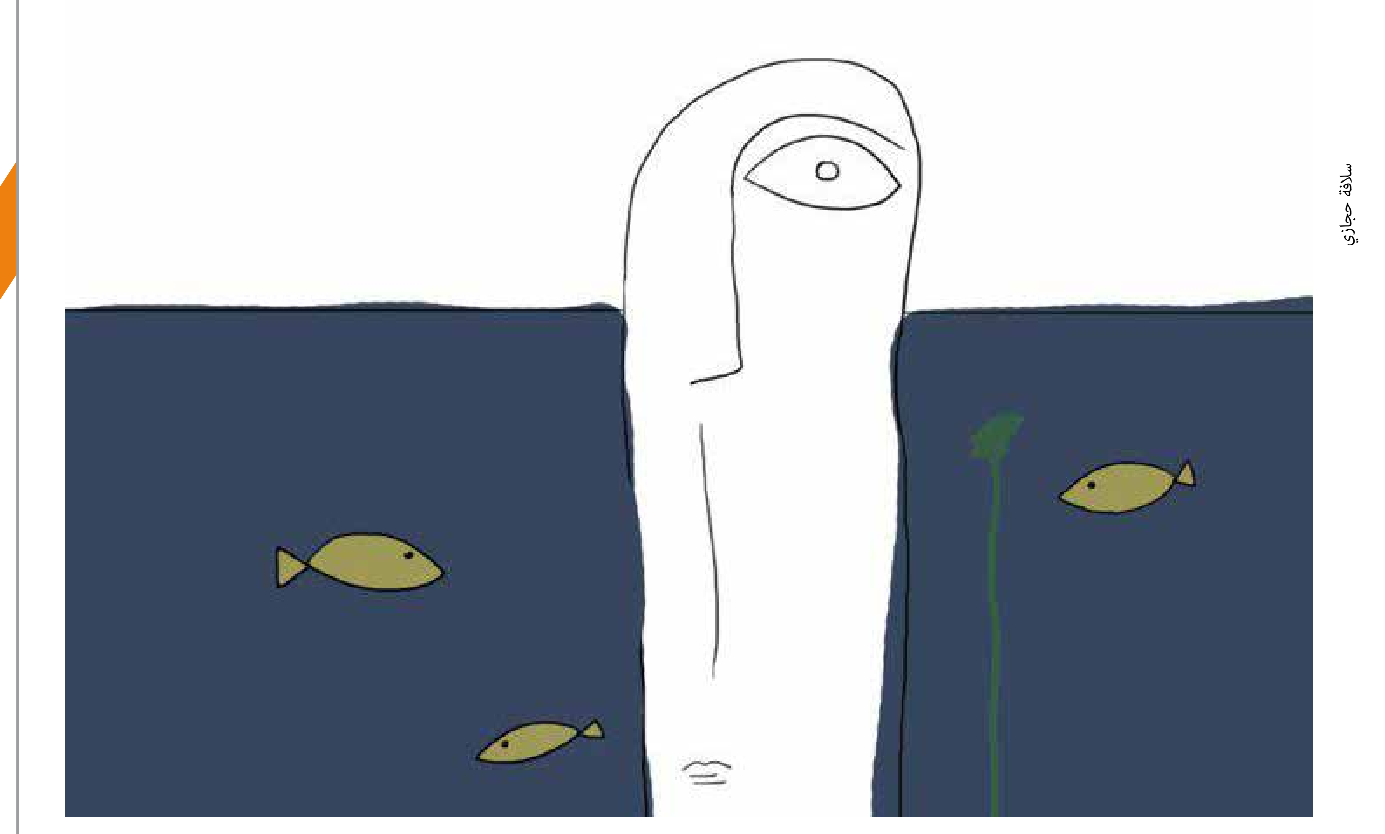
لعِبُ دور الضحية والتذكير بالهولوكوست واستعراض ما تعرضوا له زمن النازية هي الأصل التجاري لليهود، فهم لا يقبلون أن ينافسهم فيه منافس، ومثلما احتج المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في فرنسا مؤخرا احتجاجا صارما على تشبيه فرنسوا فيون وزير التربية الأسبق ما يلقاه المسلمون من اضطهاد بما كان يلقاه اليهود سابقا، بدعوى أن ما أصاب اليهود لا يجوز مقارنته بأيّ مصاب، وطالبت الوزير الأسبق بالاعتذار (فاعتذر)، يحتج الفيلسوف (اليهودي) باسكال بروكنر في كتابه الأخير «عنصرية خيالية: الخصومة حول الإسلاموفوبيا» بدعوى أن ما يصيب المسلمين ليس من العنصرية في شيء، وأن مصطلح الإسلاموفوبيا إنما ابتدع لمنع أيّ خطاب نقدي يمس الإسلام. وأن الغاية منه تكميم أفواه الغربيين، وتجريد المصلحين المسلمين من شرعيّتهم. وبروكنر يريد ألا يحتج المسلمون على ما يلقونه من ميز عنصري وازدراء بدينهم، بدعوى حرية التعبير وحرية النقد.

وصية تودوروف

«انتصار الفنان» كتاب دفع به تودوروف إلى المطبعة قبل وفاته، وتناول فيه العلاقات الأيديولوجية بين من يسمّيهم «الفنانين المبدعين» والسلطة السياسية بداية من ثورة أكتوبر 1917. كيف أعلن الفنانون الثورة؟ وكيف انقادوا بعد ذلك إلى الواقعية الاشتراكية التي كانت السلطة تهدف من ورائها إلى إلغاء كل ابتكار أو أداروا لها الظهر؟ يركز تودوروف على الفنانين الكبار أمثال مياكوفسكي وباسترناك وبولغاكوف ومنديلستام ويتوقّف عند تجربة الرسام كازيمير مالفيتش الذي نجد في تعدد مواهبه أصداء لقوة التزامه. أي أن انتصار الفنان في نهاية الأمر هو سلطان الفن على من يرغب في موته. يقول تودوروف «الخطاب السوفييتي الرسمي يصف تدريجيا واقع بلاد بألفاظ لا تتناسب مع التجربة المشتركة، كأن الكلمات يمكن أن تخلق الأشياء.. أهمية هذه النظرية تتجاوز كثيرا المجال الجمالي، وتتمثل في أجلى أوجهها ملامح مهيمنة للمجتمع السوفييتي تحت ستالين، لأنها تكرس الهيمنة الكونية للكذب».

الثقافة في نظر النازية

هل يمكن الحديث عن ثورة ثقافية لدى نظام سياسي عنصري أحرق الكتب ونعت الفنانين بالمنحرفين؟ نعم، يقول جوهان شابوتو أستاذ التاريخ المعاصر بالسوربون في كتاب مثير عنوانه «الثورة الثقافية النازية»، يبين من خلاله أن الثقافة لدى النازيين هي نسخة من الطبيعة، حيث كان الإنسان يجلّ الشجر والجداول، ويتغذّى ويتكاثر ويتصارع ويدافع عن قطيعه كالحيوانات. ثم بدأ الانحراف مع الساميين الذين استقروا في اليونان، والمبشرين الذين جاؤوا باليهودية المسيحية، ثم تعمقت الهوة مع الثورة الفرنسية ومبادئها الأيديولوجية العبثية. فلم يجد النازيون بدًّا، لإنقاذ العرق الشمالي الجرماني، من القيام بثورة ثقافية يستعيدون من خلالها نمط عيش الأسلاف والتوفيق بين الثقافة والطبيعة.



سلافة حجازي

وبفضل استعادة القانون والأخلاق القديمين ظن الإنسان الجرماني أن من حقه أن يحافظ على جنسه، وبالتالي يغدو جائزا أخلاقيا وقانونيا ضرب الآخر وقتله.

غادامير لفهم أزمة العقل

لماذا نقرأ كتاب غادامير «الحقيقة والمنهج»؟ لأنه أحد الكتب الهامة في الفلسفة المعاصرة، ولأنه أيضا، بسبب الجدل الذي أثاره، يحيل على مجمل تلك الفلسفة نفسها. ومن ثم يهدف كتاب «قراءة الحقيقة والمنهج» لمارلين زارادير أستاذة الفلسفة والفينومينولوجيا والهرمينوطيقا الألمانية إلى غايتين اثنتين. الأولى تقديم تعليق على كامل النص، باقتفائه خطوة خطوة لمساعدة القارئ على ولوج عالمه الزاخر، وفهم مفاهيمه والتدرّب على التنقل داخله دون تيه والتعرف على نقاط القوة فيه. هذا العمل المتأني هو وحده الكفيل بتجنيبنا قراءات متسرعة، توهم بأنها أجوبة المؤلف دون التمييز بين ما هو تحليل للظواهر وما هو موقف تجاهها. والثانية استحضار مختلف الحوارات المرتبطة بـ«الحقيقة والمنهج» سواء من داخل الأثر (أي الفلاسفة الذين يستشهد بهم غادامير) أم مما تلاه من تأويل ونقد. كتاب هام سوف يفتح نوافذ على آثار غادامير كلها، ولا سيما الهرمينوطيقا، والفلسفة المعاصرة بعامة.

اليسار وسكرات الموت

جديد جان بيير لوغوف، عالم الاجتماع المعروف كتاب بعنوان «اليسار يُحتضر» يتناول المرحلة الممتدة من ثورة مايو 1968 إلى الخلافات التي شابت المرحلة التمهيدية للانتخابات الرئاسية في الوقت الحاضر، ليتساءل عن الأسباب التي جعلت اليسار يتردّى إلى هذا المكانة المتدنية في الساحة السياسية الفرنسية. بعد استعراض أهم الثيمات التي هيكلت هويته منذ القرن التاسع عشر، تلك الثميات التي آلت إلى التآكل وحتى التحلّل، يسلط الكاتب الضوء على نهاية دورة تاريخية، ويؤكد الصعوبات الحالية التي تعوق إعادة البناء، فالهوة ليست بين الأجيال وحدها، بل هي حاضرة في أوساط الشرائح الشعبية التي ما فتئت تبتعد عن اليسار الثقافي على خلفية احتضار أفكار. وفي رأيه أن اليسار لا يمكن أن يحلم بإعادة بناء ثقافي ما لم يستعد تراثه ويستفيد مما يحويه.

أزمة الأخلاق في الغرب

عرف الفيلسوف فيليب بينيتون، الأستاذ بكلية الحقوق والعلوم السياسية في مدينة رين بإسهاماته العديدة حول الأنظمة السياسية والطبقات الاجتماعية والنزعة المحافظة. في كتابه الجديد «اختلال الغرب أخلاقيا» يلاحظ طغيان سلطة المظهر في الغرب، فالفرد ملك قانونيا، ولكنه في الواقع منزوع من استقلاليته. يوغد حسب القانون بحرية التصرف ولكنه واقع تحت التأثير. فالمهارة الكبرى لهذا العصر هي أن نعطي الامتثالية اسم الحرية والاختلال الأخلاقي اسم التفتح. ولكن يتجلى اليوم بوضوح أن الرأي العام المهيمن هو فكر ضعيف رغم مواقعه القوية، وأنه يسير وفق التخويف ويرفض كل جدل نزيه. ويتجلى أيضا أن «الأخلاق» الجديدة متأتية من أزمة أخلاقية عميقة يعاني منها الغرب. والكاتب يرسم صورة قاتمة عن عالم راض بقوانين اللعبة، يمارس التكشير بدل الضحك ليقنع مشاهدته.

كاتب من العراق مقيم في عمان

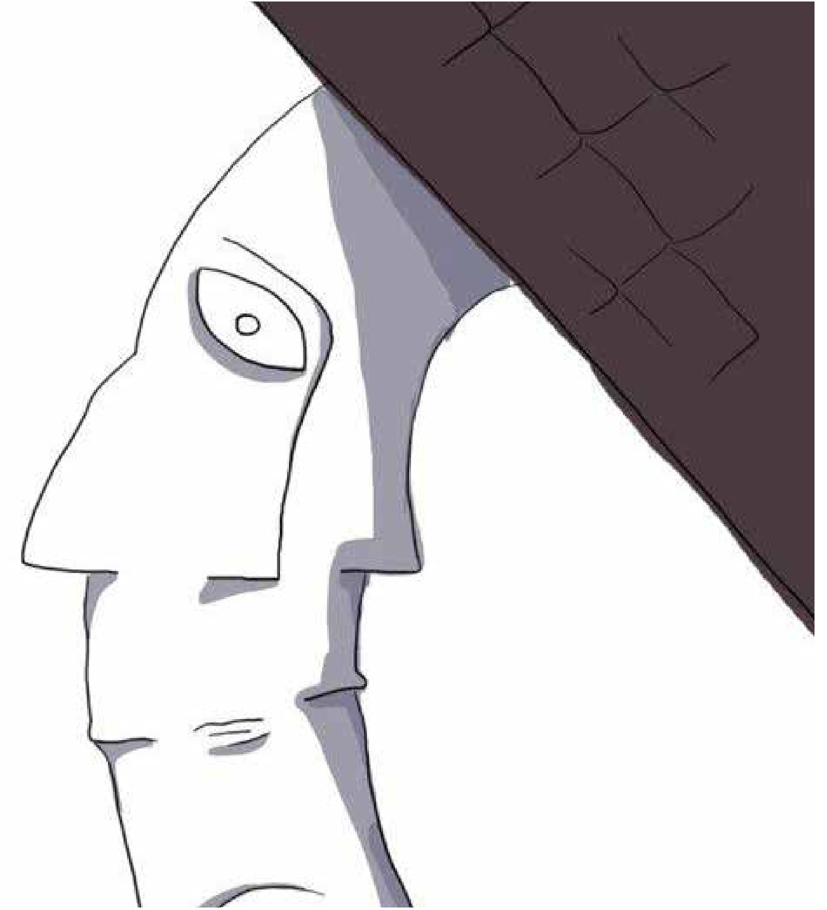
انتصار العنصرية في بلد حقوق الإنسان

أبو بكر العيادي



سهير سباعي

عندما يصل هذا المقال إلى القراء، تكون مارين لوبان زعيمة الجبهة الوطنية قد مرّت إلى الدور الثاني من الانتخابات الرئاسية الفرنسية، على حساب أحد مرشحَي الحزبين التقليديين، أي الحزب الاشتراكي اليساري وحزب الجمهوريين اليميني، الذي ما انفكت تسمياته تتغير بتغير زعمائه، وتوالي فضائحهم. وقد يُكتب لها ولحزبها الفوز هذه المرة، حسب استطلاعات الرأي منذ عدة أشهر، إذ يستبعد المحللون تشكُّل كتلةٍ جمهورية تضم اليسار واليمين والخضر للتصدي لها، على غرار ما ووجه به والدها جان ماري لوبان عند بلوغه الدور الثاني في انتخابات مايو 2002. وأيا ما يكن المرشّح الذي سيواجهها، فلا شك أنه سيجد صعوبة في حشد أنصاره للتغلب على هذه الموجة الشعبوية العاتية.



سلافة حجازي

ولسائل أن يسأل: كيف استطاع حزب فاشيّ أن يتصدر المشهد السياسي؟ وكيف أمكن للخطاب العنصري أن يخصب في بلد حقوق الإنسان؟ وكيف باتت الأغلبية ميالة إلى تنصيب زعيمة شعبوية ليس في برنامجها ما يخرج فرنسا من أزماتها؟

للإجابة عن تلك الأسئلة ينبغي العودة إلى نشأة هذا الحزب وأيديولوجيته وشعاراته، والعوامل التي جعلته اليوم أشبه بحزب طبيعي، يبث خطابه مثل بقية الأحزاب، ويرى أن الحكم صار بالنسبة إليه يسير المنال.

تأسست الجبهة الوطنية في 27 أكتوبر 1972 كفرع من تنظيم فاشي يدعى النظام الجديد كان يندد بما يسميه «الهجرة المتوحشة» بتعلة الدفاع عن الغرب، ويدعو إلى «مواجهة الرعب الأحمر». اختار أحدُ مؤسسيه وهو الكاتبُ اليميني المتطرف ويل إمانويل ألو (1919-2012) جان ماري لوبان رئيسا له ومرشحه في الانتخابات الرئاسية لعام 1974، مثلما اختار شعار حزب الفاشية الجديدة الإيطالي، الحركة الاجتماعية الإيطالية، وهو عبارة عن شعلة ثلاثية الألوان. وكان لوبان، الذي شارك في معارك بورت فؤاد بمصر وفي معركة الجزائر العاصمة واتهم بالتعذيب، لا يزال ملتزما بماضيه البوجادي - نسبة إلى بيير بوجاد (1920-2003) الذي أنشأ حركة نقابية وسياسية تعادي الشيوعية وترفض التطورات المجتمعية الجارية وتدافع عن صغار المقاولين والتجار. ولكن فرانسوا دوبرا (1940-1978) أحد رموز اليمين المتطرف أقنعه بضرورة الاهتمام بمسألة الهجرة، والتركيز على ملامحها الاجتماعية والاقتصادية، لا سيما بعد ظهور البطالة وإقرار الرئيس جيسكار ديستان بحق المهاجرين في استقدام عائلاتهم، وهو ما ولّد الخوف والاستنكار لدى شرائح من الشعب، سوف يعمل حزب الجبهة الوطنية على توسيعها وتضخيمها على مرّ السنين.

طوال العشرية الأولى، كان الحزب نهبا للخلافات، لا يضم في صفوفه أكثر من خمسمائة منخرط، قادمين في معظمهم من تيارات متنافرة، كالأصوليين الكاثوليك والثوريين، من داخل فرنسا وخارجها، أو المنسلخين عن اليمين التقليدي. وكان الحزب يعتبر نفسه منذ انبعاثه الممثل الوحيد ليمين «اجتماعي شعبي وطني»، وبلد ينبغي أن تكون الأولوية فيه لمواطنيه في شتى المجالات، وقد عبّر عن ذلك من خلال شعار رمزي «الفرنسيون أولا»، كان بمثابة الخط الواجب اتباعه، على غرار شعار ترامب «أمريكا أولا.» ومنذ 1977 توخى جان ماري لوبان استراتيجيا اجتماعية وسياسية ذات صبغة عنصرية عملا بتوصية أمين مال الحزب بيير بوسكيه (1919-1991) الضابط الأسبق في فرق الحماية النازية إس إس، مع التنديد بالهجرة كعامل بطالة وانخرام أمن. فمضى لوبان وأعوانه في كل منبر يصفون المهاجر بكونه انتهازيا يسرق عمل الفرنسي، ويعيش عالة على المجتمع، ويهدد أمن الفرنسيين مستغلا تراخي اليسار، دون أن يقع الربط بين صورة المهاجر والمسلم، رغم محاولة يائسة في أواسط الثمانينات. وقد أتت تلك الاستراتيجيا أكلها منذ عام 1983 حيث حقق الحزب أول انتصاراته خلال الانتخابات البلدية بمدينة درو، ثم في الانتخابات الأوروبية عام 1984 بدخول عشرة نواب إلى البرلمان الأوروبي. ولولا تصريحات لوبان عام 1987 التي أدين عليها بتهمة «معاداة السامية وإنكار المحرقة» حين وصف غرف الغاز بـ«جزئية من جزئيات التاريخ»، لمضى الحزب في تحقيق أرقام أكبر مما حققه في الأعوام الموالية.

استغل هذا الحزب إذن تدهور الأوضاع الاقتصادية وتآكل القيم واعتماد قطاعات كثيرة على العمالة الأجنبية ليبث خطابا شعبويا عنصريا ما انفك يستقطب شرائح المجتمع الضعيفة، تلك التي تراجعت قدرتها الشرائية بتراجع موقع فرنسا كقوة اقتصادية كبرى، ما دفع تشكيلات حزبية أخرى إلى تبني خطاب الجبهة الوطنية ولغتها وأفكارها، طمعا في تجفيف منابعها. ولئن كان تسرب العدوى قد بدأ منذ أواخر السبعينات، من خلال تحالف اليمين مع الجبهة الوطنية لسد الطريق أمام الاشتراكيين في الانتخابات البلدية، فإن التسعينات شهدت تشدد خطاب حزبَي اليمين (التجمع من أجل الجمهورية) والوسط (الاتحاد من أجل الديمقراطية الفرنسية) تجاه الهجرة، تشدّدًا بلغ ذروته عام 1998 في الانتخابات الجهوية، حيث تحالف اليمين في جهات عديدة مع الجبهة الوطنية لتحقيق الفوز، ما جعل اليمين المتطرف في عيون الفرنسيين بديلا جديرا بالحكم هو أيضا. ولكن العدوى استفحلت مع نيكولا ساركوزي، حيث لعب دورا حاسما في تحرير الخطاب العنصري، بتبنيه سياسة الجبهة الوطنية ومعجمها لانتزاع ناخبيها وجلبهم إلى حضيرة حزبه (الذي صار يسمى في الأثناء الاتحاد من أجل الشعب)، عملا بتوجيهات مستشاره الخاص باتريك بويسون المثقف اليميني المتطرف. انتصر ساركوزي عام 2007 ولكنه أخرج المارد من قمقمه، لا سيما بعد بعث وزارة الهجرة والاندماج والهوية الوطنية والتنمية التضامنية، فقد باتت الثيمات الجبهوية تحتل صدارة الجدل الساسي العام، وتثار كنوع من القضايا الجديدة بالطرح والمعالجة، دون اعتبار لجوانبها العنصرية. ذلك أن ساركوزي، بربطه «الهوية» بـ«الوطنية» ألغى «الآخر، الأجنبي»، وقدّم الضمير «نحن» على الضمير «هم» الذي يعود على المهاجرين. وبالجمع «الشفاف» بين الهوية الوطنية والهجرة، تبنى اليمين مؤشرا أيديولوجيا خاصا بالجبهة الوطنية. ومن الدلائل العميقة على استشراء عدوى الخطاب الجبهوي ذاك في صفوف اليمين التقليدي أن «فرنسا أولا» هي التسمية التي تصدرت اختيارات مناضليه بعد أن قرر ساركوزي تغيير اسم الحزب، مرة أخرى،

في محاولة للتهرب من تتبعات قضائية طالت حزبه وبعض قادته، وطالته هو شخصيا بعد إزاحته عن السلطة.

احتلت مارين لوبان المركز الثالث في انتخابات 2012، ولكنها وجدت الطريق ممهدة كي تمضي في نشر خطابها الشعبوي، ولو أن الخط السياسي تغير، إذ تم ربط الخطاب عن الهجرة هذه المرة بالتنديد الشديد بالإسلاموية، مع تأويل مخصوص للعلمانية. فالجبهة الوطنية لم تعد تتذرع بالدوافع الاجتماعية وحدها في محاربة الهجرة، بل صارت تضيف إليها التهديد الذي تشكله الجاليات الإسلامية على القيم الجمهورية، والتي تزعم الجبهة أنها الأقدر على مواجهته. إذ إن مارين لوبان نصبت نفسها، بدعوى مقاومة «التوتاليتارية الإسلامية»، مناضلة تدافع عن حقوق المرأة والمثليين والخدمات العامة واللائكية... وهو ما لم يكن متخيلا في عهد لوبان الأب. فهي تختلف عنه في هذه النقطة مثلما تختلف عنه في نظرية «التعويض الأكبر» التي جاء بها رونو كامو، إذ لا تتصور أن الهجرة تلبي خطة مرسومة، بل هي ف ينظرها وسيلة تستعملها الأطراف المالية الكبرى لتكريس انخفاض الأجور، وجزء من تبعات العولمة المدمرة كما تقول. والتغير باد أيضا على المستوى الدلالي، حيث ناب التنديد بالإسلاميين و»المهاجرين العابرين القادمين من بؤر التوتر» عن التهجم على العرب والمهاجرين المقيمين، في إطار خطة تهدف إلى استقطاب ناخبين جدد حتى من بين الجاليات العربية الناقمة على اليسار واليمين ووعودهما الكاذبة. ولكن إذا تغير الأسلوب فالأصل ثابت، فالخطاب المعادي للأجانب، كما يقول المؤرخ غريغوار كوفمان، لا يزال محفورا في دي.إن.إيه حزب مارين لوبان، وإن غدا العداء في الأعوام الأخيرة موجها أساسا للإسلاميين والمهاجرين الهاربين من ويلات الحروب، تجنبا لإثارة ناخبين محتملين من الفرنسيين ذوي الأصول الأجنبية.

كل ذلك لا يفسر وحده هذا المدّ الذي يكاد يكون اليوم كاسحا حسب وكالات استطلاع الرأي. وإنما مردّه أيضا إلى طبيعة عمل هذا الحزب منذ نشأته، فهو يسيّر كحزب فاشي، مناضلوه ليسوا محترفين بل هم جنودٌ ملتزمون، عادة ما يكرر على مسامعهم أن حركتهم جيش، كما ورد في إحدى مذكرات فرع الحزب بمقاطعة الواز: «المناضل جندي سياسي، وكأي جندي ينبغي أن يخضع لأجل المصلحة العامة إلى جملة من القواعد سوف يضمن احترامُها انتصارَ مَثلِنا الوطني الأعلى.» وككل حزب فاشي تعتمد الجبهة أساسا على البروباغندا.

في كتاب لها بعنوان «الفرنسيون أولا» مع عنوان فرعي «شعارات وعدوى الجبهة الوطنية (1972-2017)»، تؤكد المؤرخة فاليري إيغونيه أنه لا يمكن الحديث عن الجبهة الوطنية وتاريخها وصعودها القوي دون ذكر شعاراتها ومعلقاتها ومناشيرها. فقد ساهمت عناصر الاتصال تلك في جعل الأفكار الجبهوية تتسرب في نسيج المجتمع، وفي الجدل العام، وفي أوساط تشكيلات سياسية معينة. فشعارات مثل «كفى بطالة! العمل للفرنسيين!» و»مليون عاطل عن العمل، معناه مليون مهاجر زائد!» أو «لا يمين لا يسار: فرنسيون!» أثرت بشكل ملحوظ في التاريخ السياسي للعشريات الأخيرة، ما يدل دلالة قاطعة على نجاعتها.

لقد اعتنى برونو ميغريه، أهم مساعدي جان ماري لوبان قبل أن ينفصل عنه، بهذه الركيزة كي يخفف شيطنة حزبه، ولا تزال المعلقات وسيلة الجبهة في إصابة المرمى بأقصر السبل. فاللافت ليس تطور البروباغندا فحسب، بل استمرارها على مر الأعوام. وإذا كان قد حصل تغير في الشكل منذ قدوم مارين لوبان، حيث تضاءل شعار الجبهة أو اختفى ليترك مكانه للصورة، لا سيما صورة مارين بعد أن طبعت معها الطبقة السياسية وباتت لا ترى حرجا في محاورتها ومجادلاتها، فإن الجوهر، أي معاداة الأجانب، لم يتغير، وإن طرأ عليه بعض التغليف. وتعتبر إيغونيه أن معلقة «كفى بطالة! العمل للفرنسيين!» التي ظهرت عام 1973، أي بعد بضعة أشهر فقط من تأسيس الجبهة الوطنية، هي المعلقة المؤسِّسة، فهي، بأحرفها الحمراء المطبوعة على ورق أبيض بسيط، النموذج النمطي الذي سار عليه الحزب في بداياته. وهي ذات رمزية عالية لأنها تعلن عن استراتيجية الجبهة وتشهد عن براعة تكتيكية لا غبار عليها، فالصراع ضد الهجرة وقع تناوله لأول مرة من زاوية اقتصادية وليس من زاوية عنصرية. والغاية، كما تقول، هي رغبة الجبهة في التميز عن جماعات اليمين المتطرف لإغراء الطبقات الشعبية، وتقديم نفسها كتشكيلة حزبية محترمة تنافس اليسار. ومنذ ذلك التاريخ، ما انفكت الجبهة تقف من الهجرة والأولوية الوطنية موقفا يلبي أفق انتظار الطبقات الشعبية كلما احتدت الأزمة الاقتصادية.

أما الإسلام، فلم يكن من الثيمات التي تشغل الجبهة، باستثناء معلقة مجهولة المصدر يعود عهدها إلى عام 1987، لاعتقاد لوبان الأب، وحتى ابنته، بأن الإسلام ليس موضوعا سياسيا، ولكن الأمر تغير بداية من 2010، إذ ناب عداء الإسلام عن معاداة اليهود، وصار من المؤشرات الرمزية الدالة في خطاب الجبهة إلى جانب مقاومة العولمة الاقتصادية.

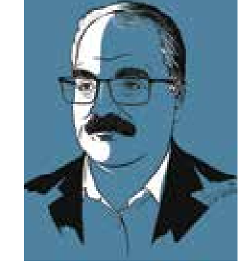
واليوم، ها أن هذا الحزب العنصري الذي نشأ على الهامش، يستفيد من تبعات أزمة قيم واقتصاد مترنح، ورياح شعبوية عاصفة تجتاح أوروبا وأمريكا، ليدعي أنه الممثل الوحيد ليمينٍ حقّ، ويجمّل زعيمة عنصرية في جوهرها، ليضعها على مشارف سلطة لم تعد تفصلها عنها سوى بضع درجات.

كاتب من تونس مقيم في باريس



SULAFA HIJAZI

سلافة حجازي



هيثم الزبيدي

المصدومون

حيرتنا أمام الشعبوية

العداء للدولة ليس بجديد. تاريخ الدول مرتبط بتاريخ التمرد عليها. ثمة ثقافة باطنية واسعة الانتشار بهذا الشأن.

نظريا، العداء يكون ضد الدولة التي لا تراعي مواطنيها أو ترعى رعاياها. الظلم يولد التمرد ويعطيه المبرر. ولكن هناك ما يكفي من الشواهد التاريخية التي تؤكد أن الظلم ليس السبب الوحيد دائما.

الدوافع الأيديولوجية كانت من دوافع التمرد. الأديان، بعمومها، كانت تمردا أيديولوجيا على حال سائدة. من قلب الأديان أيضا جاءت حركات متمردة كثيرة على الدول التي أسستها الأديان. الحق في التفسير أو الرأي أو كسر الاحتكار الديني كان دافعا قويا. التمرد باسم الدين على الدولة التي أقيمت باسم نفس الدين هو واقع حال مستمر منذ قرون. الفكر ابن الفكر الأصلي يقف ضد الدولة التي أساسها نفس هذا الفكر. سال دم كثير في حروب الفكر المتشابه والمتصارع.

الأيديولوجيا المعادية للأديان أخذت حصتها في مواجهة الدولة التي أقيمت باسم الدين. فكرة اليسار، بتنويعاتها المختلفة، قد تكون الأشهر في هذا الصدد. الفكر المادي بنسخه الماركسية والشيوعية كان منطلقا لتحدي الدول. الحركات الشيوعية لم تتردد في تدمير الدول القائمة، ملكية أو جمهورية، وإحلال البديل الشيوعي لها. سال دم كثير تحت هذه الرايات.

الفكر اليساري المعتدل ساهم أيضا في تحدي الدولة، ولكن لتقويمها وليس لتدميرها. العدالة الاجتماعية كانت فكرة اليسار في الغرب لمواجهة السيطرة المطلقة للكنيسة والدولة معا. الغرب المتقدم الذي نراه اليوم هو نتاج لحالة عداء مخفّفة ومتدرّجة بين اليسار المعتدل وبنية الدولة القائمة. هذا لم يمنع من صعود تيارات فاشية حاربت فكرة اليسار المعتدل، ولكنها وجدت نفسها في صدام مع الدول القائمة التي أدركت أهمية التعديلات الاجتماعية التي أدخلت على أنظمة الحكم والفكر والتشريع. الحرب العالمية الثانية من نتائج هذا الصدام، ولكنها ليست الحرب الوحيدة.

اليمين بدوره كان معاديا للدولة. النموذج الأميركي هو تجسيد لهذا العداء. بدأ ضد السيطرة البريطانية وتحول إلى نزعة مترسخة في عقل الأميركي. الدولة الأفضل في نظر الأميركي هي الدولة الأخف وطأة والأقل تدخلا. حرب الاستقلال والحرب الأهلية الأميركية كانتا نتيجة لرسوخ تلك النزعة.

صمود الدولة، مع كل التغيرات التي حدثت عبر التاريخ، كان مذهلا. مَن يتمرد على الدولة كان يعيد تأسيسها من جديد ولكن على صورته. ثقافة حضور الدولة كانت الأقوى. لكننا نشهد اليوم شيئا مختلفا جذريا.

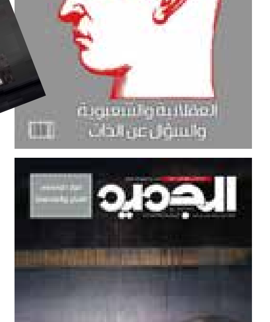
انهيار منظومة الدولة في أكثر من بلد عربي كان نتيجة لتراكمات كثيرة. الدولة في بعض الدول العربية الآن تبدو مقاطعة من مقاطعات عديدة، أغلبها متمرد. رئيس الدولة يبدو أشبه بأمير حرب له نصيبه من حصة ما تبقى من الدولة الوطنية. زعماء قبليون ودينيون وسياسيون صار لديهم ما يكفي من الولاءات لتحدي فكرة الدولة. هم أنفسهم يعانون من تشظّي الولاءات أيضا. العداء للدولة أنتج حالة هلامية خطيرة تهدد كل ما تم إنجازه على مدى قرون. الحروب التي أدت إلى الوضع الراهن أنتجت حروبا أخرى. هل يستطيع أحد الجزم بما سيؤول إليه حاله بعد سنوات قليلة، وهل سيبقى عراقيا أو سوريا أو يمنيا أو ليبيا؟

الغرب أنتج بدوره نسخته من التفكك. اليمين الشعبوي قوة صاعدة. الرئيس الأميركي دونالد ترامب لا يخفي عداءه لمنظومة الدولة التي يرأسها. تيارات اليمين الشعبوي الآن تتحرك بموازاة مفهوم الدولة الحديثة وتؤسس لقواعدها الخاصة بعيدا عن فكرة الأحزاب التقليدية والتقاسم الديمقراطي للسلطات. مع افتقاد الإعلام التقليدي للسيطرة على توجيه الأفكار، ومع صعود تأثير الوسائط الإلكترونية البديلة، ومع تردي قدرة الدولة على توفير المال لضبط ولاءات المجتمعات بتوفير التعليم والصحة والأمن والرعاية الاجتماعية، تبدو الشعبوية هي القوة الغالبة في المدى المنظور. العامة تمرّدوا بطريقتهم وصاروا يوجهون السياسة بعيدا عن المنهج التقليدي. ترامب مشهد من أول المشاهد للتغيرات الكبرى القادمة. أوروبا ستلحق بالولايات المتحدة قريبا. السياسيون الشعبويون قادمون، والتقسيمات الجغرافية سيعاد النظر فيها بأسرع مما يعتقد كثيرون. دعوات استقلال أسكتلندا وأيرلندا الشمالية وقرار الخروج من أوروبا «بريكست» في بريطانيا هي علامات على طريق الشعبوية.

مثلما صدم المثقفون العرب أمام تفكك الدولة، يبدو أن مثقفي الغرب يقفون منذهلين أمام تسارع صعود التيارات الشعبوية. مرة أخرى يثبت المثقفون أنهم مستسلمون لواقع ثابت وعاجزون عن قراءة التغيرات الاجتماعية والسياسية الكبرى التي وصلت مع تقدم التكنولوجيا. الثقافة، التي يفترض أنها القوة الطليعية في قيادة المجتمعات، تبدو حائرة حتى في تفسير حركة هذه المجتمعات ■

كاتب من العراق مقيم في لندن



















إبراهيم سعدي
أبو بكر العيادي
أحمد الفيتوري
أحمد برقاوي
أحمد ضحية
أحمد ضياء
أزراج عمر
جابر السّلامي
جاد الكريم الجباعي
جمعة اللامي
حياة الرايس
حيدر علي سلامة
خلدون الشمعة
دنيا الزبيدي
ربوح بشير
رمضان نايلي
سعيد خطيبي
سعيدة تاقي
سفيان رجب
سلافوي جيجك
شاكر نوري
شرف الدين ماجدولين
علي حسن الفواز
علي لفته سعيد
عواد علي
كاصد محمد
كاميليا عبدالفتاح
كه يلان محمد
ماهر عبدالمحسن
محمود السرساوي
مريم حيدري
مصطفى تاج الدين الموسى
نجيب جورج عوض
نوري الجراح
هيثم الزبيدي



فكر حر وإبداع جديد

www.aljadeedmagazine.com